الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر
باتنـــــــــــة

كلية الآداب والعلوم الإنسانيـة
قسـم اللغـة العربيـة وآدابهـا

أدبية الخطاب النثري
عند القـاضـي عياض

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم

إعداد الطالب:
نــواري بالــة

إشــــراف الأستاذ الدكتور:
محـمـــد زرمـــان

السنــة الجامعيـة :
1430/1429 هـ - 2008/2007 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر
باتنـــــــــــــة

كلية الآداب والعلوم الإنسانيـة
قســم اللغة العربيـة و آدابهــا

أدبية الخطاب النثري عند القاضــي عياض

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم

إعداد الطالب:
نــواري بالــة

إشــــراف الأستاذ الدكتور:
محمـد زرمـان

لجنة المناقشة

الرقم	الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	كمـال عجالي	أستاذ التعليم العالي	باتنة	رئيسـا
02	محمد زرمان	أستاذ التعليم العالي	باتنة	مشرفا ومقررا
03	عـلي عـاليـة	دكتــــور	باتنة	عضوا مناقشا
04	فاتـح حنبلي	دكتــــور	أم البواقي	عضوا مناقشا

السنــة الجامعيـة :
1430/1429 هـ - **2008/2007** م


بسم الله الرحمن الرحيم

مـــقـــدمـــــة

الحمد لله و الصلاة والسلام على نبيه و مصطفاه

وبعد :

لقد حقق القاضي عياض شهرة واسعة ، حتى قيل : لولا عياض لما عرف المغرب ، وهم يعنون بـــهذا في جملة مايعنون أنه أول من لفت نظر علماء المشرق إلى علماء المغرب حتى أواسط القرن السادس الهجري .

وتوزعت حياة القاضي عياض بين القضاء والتدريس والتأليف، غير أن ماخلّد ذكره هو مصنفاتـــه التي بوّأته مكانة رفيعة بين كبار الأئمة والعلماء .

وقد نبغ القاضي عياض في علم الحديث رواية ودراية وتحقق له فيه علو الإسناد ، كما كان له باع كبير في الفقه المالكي .

وهذه الجوانب السابقة هي أهم الجوانب التي لا قت العناية الكبيرة و الدراسة الواسعة من قبل الدارسين والباحثين للقاضي عياض ومؤلفاته ، فهم اهتموا بالقاضي عياض المحدّث الفقيه.

لكن هناك جانب مهم كان نصيبه غير وافر من الدراسة هو: القاضي عياض الأديب، فقد كان أديبا إلى جانب كونه محدّثا و فقيها .

فمن ناحية الشعر لم يكن له شعر كثير، كما أ نه فيه من الصنعة أكثر مـــما فيه من الدفـــق الشعري ، لأ نه على ما يبدو كان يصنع الشعر وينمّقه تنميقا ، ولا عجب في ذلك لأنه إمام علم لايستهويه الشعر ولا يساعده عمله على الانصراف إليه ، وإنما هي سوانح تجود بأبيات من حين لآخر .

أما نثره فقد كان وافرا ومتنوّعا ، من خطب و رسائل و تراجم ، غير أن النظرة السائدة لأدب الفقهـــاء عموما – والقاضي عياض منهم – ترى أنه أدب خاص لايرقى في أغلبه إلى أدب الفحول ممن اختصوا بـــهذه الصناعة .

ومن هنا كان الدافع الذي جعلني أتبنى هذا الموضوع قصد محاولة رصد ماقيل و ما أثير حول الجانب الأدبي في أعمال القاضي عياض النثرية .

فنثر القاضي عياض لا يمكن إلا أن يكون على درجة من المزايا الفنية والجمال الأسلوبي ، إذ أنه كان معروفا بثقافته اللغوية المتمكنة و بصره بالعربية و فنونها ، فلا يمكن أن يخلو نثره من

قوة في البيان ، وبلاغة في الأسلوب ، وجودة في السبك ، ودقة في التعبير ، وهذا ما سأحـــاول تتبعـــه و تقصيه في هذه الدراســـة .

كما أنني سأحاول السير نحو أفق الكتابة من خلال السعي لكشف الجوانب الفنية في كتابات القاضي عياض النثرية وكذا العناصر الأدبية التي تشكّلت منها و إبراز أدوات الكتابة النثرية عنده والخصائص التي طبع بـــها نثره .

وقد جعلتُ هذه الدراسة تحت عنوان " أدبية الخطاب النثري عند القاضي عياض "، وإشكاليتها المحورية هي مدى توفر العناصر الأدبية في كتابات القاضي عياض النثرية .

و هي تطرح إشكاليات فرعية تتمثل في تحديد مجال الدراسة الذي يوضح المعايير التي ستكـــون مقياسا للأعمال الأدبية التي ستُدرس ، ثم من هو القاضي عياض ؟ وماهي الظروف و الملابسات المحيطة بشخصيته و بتكوينه الثقافي ؟ ثم ما هي أهم الفنـــون الأدبية النثرية التي كتب فيها القاضي عياض ؟ وماهي أدوات الكتابة النثرية عنده ؟ وهـــل استجابت كتاباته النثرية للمعايير المحــــددة للقوالب الفنية ودرجة أدبيتها ؟

و قد وظفت منهجـــا متكاملا لهذه الدراسة فرضته طبيعة الموضوع و الإشكـــالية المطروحـــة والأهداف المنشودة من الدراسة .

ففي الفصل التمهيدي وظفت المنهج التاريخي للتعريف بالقاضي عياض وتتبع نشأتـــه وتطـــور تكوينه الثقافي والعوامل المؤثرة في ذلك ، ثم وظفت المنهج الوصفي في تتبع أشكـــال الخطـــاب النثري عنده من خطب ورسائل وتراجم .

ثم يأتي دور المنهج التحليلي في دراسة هذه الأعمال والوقوف على العناصر الأدبية فيها .

وقد ارتأيت أن أرسم للبحث خطة على النحوالتالي:

مقدمة وقد حددت فيها : أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، والإشكالية المطروحة ، و المنهج المتبع في الدراسة ، وخطة البحث ، وأهم المصادر ، والدراسات السابقة التي تناولت الموضوع ، ثم الصعوبات التي واجهتني خلال مسيرتي مع هذا الموضوع .

بعد ذلك وضعت فصلا تمهيديا يتكون من شقين :

-الشق الأول حددت فيه مفهوم المصطلحات الواردة في العنوان وهي : الأدبية والخطاب ، والنثر .

– الشق الثاني تناولت فيه التعريف بالقاضي عياض من خلال نسبه ومولده ونشأته وحياته ثم وفاته وأخيرا شخصيته وثقافته ومؤلفاته .

أما الفصل الأول الذي عنونته : "الخطب " فقمت بتقسيمه إلى أربعة جوانب :

في الجانب الأول عرّفت الخطابة لغة و اصطلاحا ، ثم حددت أنواعها .

و في الثاني تحدثت عن الخطابة عند القاضي عياض و إسهامه فيها .

أما الثالث فقد اوردت فيه نماذج من خطب القاضي عياض الدينية منها و الجهادية .

و الجانب الرابع خصصته لدراسة النصوص التي أوردتها في النماذج من خلال بيان هيكلها العام، و قضاياها الفكرية و خصائصها الفنية .

بينما عنونت الفصل الثاني بـــ: " الرسائل " و قسمت الدراسة فيه إلى أربعة جوانب أيضا :

تناولت في الأول منها تعريف الرسالة لغة و اصطلاحا ، ثم أنواعها .

و في الجانب الثاني تناولت فن الرسالة عند القاضي عياض و مشاركته فيها .

و أوردت في الجانب الثالث نماذج من رسائله ، تمثلت في رسالة للحضرة النبوية و مجموعة رسائل إخوانية و رسالة علمية .

بينما في الجانب الرابع تناولت بالدراسة و التحليل النماذج التي أوردتها من خلال تحديد هيكلها العام ، و استقصاء خصائصها الفنية .

أما الفصل الثالث و الأخير فقد عنونته بـــ : " التراجم و السير " و قد جاء في ثلاث جوانب عرّفت في الأول الترجمة و السيرة لغة و اصطلاحا ثم بينت أنواع السيرة ، و الفرق بين الترجـــمة و السيرة .

و في الجانب الثاني تحدثت عن فن التراجم و السير عند القاضي و مساهمته فيه و جهوده التي تجلّت في مؤلفاته .

أما الجانب الثالث فخصصته لدراسة تراجم القاضي عياض في كتابيه " ترتيب المـــدارك و الغنية " و الوقوف على أسلوبه و منهجـــه فيها ، و كذا دراسة السيرة النبوية التي كتبهـــا و المتمثلة في كتاب " الشفـــا " من خـــلال التطرق لموضوعـــه و منهج القاضي عياض فيـــه و خصائص أسلوبه .

أما أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة فتتمثل أساسا في مؤلفات القاضي عياض ، وبعض المصادر القديمة ، وهي :

- " ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك " الذي حققه الدكتور أحمد بكير محمود .

- " كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى " تحقيق : هيثم الطعيمي و نجيب ماجدي .

- " كتاب الغنية " و هو مشيخة القاضي عياض و قد حققه ماهر زهير جرار .

- كتاب " التعريف بالقاضي عياض " لولده أبي عبد الله محمد ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة .

- كتاب " أزهار الرياض في أخبار عياض " للمقري ، تحقيق مصطفى السقا و محمد بن تاويت و نخبة من الباحثين .

- كتاب " قلائد العقيان " للفتح ابن خاقان ،تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور .

أما أهم الدراسات السابقة لهذه الدراسة والتي اعتمدت عليها ،فتتمثل في :

- كتاب " القاضي عياض الأديب " للدكتور عبد السلام شقور .

- كتاب " فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين " للدكتور مصطفى الزباخ .

- كتاب " القاضي عياض و جهوده في علمي الحديث رواية ودراية " للأستاذ البشير علي حمد الترابي .

أما عن الصعوبات التي جابهتني فهي بالأساس محدودية الدراسات التي تناولت الموضوع و قلتها ، و إن وجدت فصعوبة الحصول عليها ،مما لم يسعفني بإمكانية الإطلاع على كل جوانب الموضوع وخفاياه .

وعلى الرغم من ذلك فقد بذلت جهدي لأُلـمّ وأحيط بأكبر قدر ممكن من حيثيات الموضوع ، و حاولت إضافة لبنة جديدة و بسيطة جدا في صرح الدراسات الأكاديمية التي تناولت الأدب المغربي عموما ونثر القاضي عياض خصوصا ، و هو مجال لازال و سيبقى خصبا واسعا بحاجة لمزيد من الإثراء و البحث و التنقيب ، فعملي هو عمل الطالب

الباحث المبتـــدئ ليس إلا.

وأنوه بفضل المشرف الأستاذ الدكتور محمد زرمان ، و أوجّه له فائق الشكر والعرفان فإنه لم يدّخر جهدا في مساعدتي بالتوجيه و النصيحة و التشجيع و المراجع ، فقد كان نعم المربي و أرجـــو أنّي كنت نعم التلميذ ، كما أوجه جزيل الشكر و الامتنـــان إلى كل من ساعدني في إنـــجـــاز هذه الدراسة وإتـــمامها .

والله أســـألُ التوفيـــقَ والســـدادَ .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ (هود)

الفصـــل التمهيـــدي

أولا:مقاربة اصطلاحية للمفاهيم

1- مفهوم الأدبيـــة

2- مفهوم الخطاب

3- مفهوم النشــر

1-مفهوم الأدبية:

ترجع كلمة الأدبية في أصلها اللغوي إلى لفظة أدب حيث ورد في لسان العرب "الأَدَبُ الذي يَتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح"، وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصنيع يُدعى إليه الناس مدعاة، "ومأدُبة"[1].

والأدب الظرف وحسن التناول، وأدَّبه فتأدَّب: علَّمه، ويقال للبعير إذا رِيضَ وذُلِّلَ: أديب ومُؤَدَّب[2].

وهكذا فإن الأدب يطلق على الفضائل من الأقوال والأفعال.

ثم "إن الأدب الذي يعني الفضيلة والخلق الحسن، صار يعني تعليم الفضيلة و الخلق الحسن ، والتدرب عليهما، وحمل الناس على السلوك الطيب"[3].

فالأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل[4].

ومن هنا يتشعب الأدب إلى مفهومين الأول أدب النفس ويتضمن المعطيات الخُلُقية والذوقية، والثاني أدب الدرس وهو ما يهتم بالتعلم والتعليم في مجالات البيان والبلاغة وغيرها.

ثم صار الأدب علما"لكل صياغة فنية لتجربة بشرية"أوهو" تعبير عن الحياة ... وسيلته اللغة"[5].

إذن هو تجسيد الفكر بالكلمات، " فللأدب صيغتين:

- تعبير عن حقيقة ومن هنا يستمد قيمته المعنوية، أي القيمة النفسية للأدب.
- تعبير جميل ومن هنا يستمد قيمته الفنية والجمالية"[6].

فموضوع الأدب إذن هو الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته وحسن صياغته، والغاية هي الإجادة في هذين الفنّين وتهذيب العقل وتذكية الجنان.

---

(1)- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم- لسان العرب - دار صادر بيروت – لبنان - ط1- 1992م - مجلد 1- مادة : أدب - ص 206.

(2)- المصدر نفسه - ص 207.

(3)- العاكوب، عيسى علي- التفكير النقدي عند العرب - دار الفكر- دمشق – سورية - ط1 – 1997 - إعادة 2002 - ص 19.

(4)- الزبيدي، محمد مرتضى الحسين- تاج العروس من جواهر القاموس - تحقيق :علي هلالي - وزارة الإرشاد والأنباء - الكويت – ج2 - 1386هـ/ 1966 م – مادة: أدب ص 12.

(5)- الحاج، جورج زكي – دروس وموضوعات في أدب اللغة العربية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع – بيروت – لبنان - ط1 - 1403هـ/ 1983م - ص 14-15.

(6)- المرجع نفسه - ص15.

أما فائدته فإنه " يعصم صاحبه من زلّة الجهل، وأنه يروض الأخلاق ويلين الطبائع، وأنه يعين على المروءة وينهض بالهمم إلى طلب المعالي والأمور الشريفة"[1] .

وكلمة أدب "literature" في الانجليزية و"littérature" كذلك في الفرنسية مأخوذة من كلمة " litera " اللاتينية، وهي بذلك توحي بالأدب المكتوب أو المطبوع ولكن ينبغي أن يشمل تعريف الأدب ذلك الأدب الملفوظ كذلك[2].

وعليه يكون الأدب هو فن الكلمة، سواء الكلمة المقروءة أو المسموعة وهذا ما يسوغ القول بأن الصورة الأدبية هي رسم أداته الكلمة مكتوبة كانت أو شفوية.

فسِرُّ الفن في الأدب هو استخدام الألفاظ وتركيب هذه الألفاظ في جمل للتعبير عن المعاني والمشاعر.

ولكل كاتب طريقته الخــاصة في إخراج المعاني والتعبير عن المشاعــر، وهي التي تمثل الأسلوب، فالتجربة الأدبية في حقيقتهــا "تجربة ألفاظ مستخدمة استخداما فنيــا، أي أننا يمكننا القول أن الأدب هو الاستخدام الفني للطاقات الحسيــة والعقلية والنفسيــة والصوتية للألفــاظ"[3].

فإذا فقد الأدب القيم الجمــالية، وحرارة العاطفــة فقد كونــه أدبــا، وحتى عندما يكون العمل الأدبي قائما على الفكـــر يجب أن يتضمن الحرارة القادرة على أن تحرك وجـــدان الإنســـان[4].

وقد كانت المادة الأدبية مجالا خصبا لجملة من " العلوم الأدبية التي استقلـــت وصارت شيئا غير الأدب الفني الخالص، وإن كانت مما يكمل ثقافة الأديب ويعينه على إنشـــاء الأدب وفهمه"[5].

وهذا لا ينفي أن تكون الدراسة الأدبية فنا أدبيا، ولكنها "أكثر الفنون الأدبية امتزاجا أو اختلاطا بالعلم، وهي تنمو وتتطور بنمو وتطور الأدب، والعلوم الإنسانية على اختلافها"[6].

وتتعدد منطلقات الدراسة الأدبية حسب مجالاتها أو إطاراتها، فتعنى بدرس نص أو أثر أدبي لا تتعداه، أو تختص بعدة نصوص أو آثار، أو أعمال لأديب أو كاتب، وقد تشمل النتاج الأدبي في

([1])- الهاشمي، السيد أحمد- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب - دار الجيل – بيروت – لبنان - ص 15.
([2])- اسماعيل، عز الدين - الأدب وفنونه - دار الفكر العربي – القاهرة – مصر- ط 8 - 1983م - ص12.
([3])- الورقي، السعيد- في الأدب والنقد الأدبي - دار المعرفة الجامعية – مصر- القاهرة – 2002 م – ص 46.
([4])- مندور، محمد - الأدب وفنونه - دار نهضة مصر – القاهرة - مصر - 2000 م - ص 04- بتصرف.
([5])- الخضراوي، فخري- رحلة مع النقد الأدبي - دار الفكر العربي - 1977- ص 14.
([6])- حطيط، كاظم – أعلام ورواد في الأدب العربي – دار الكتب الحديثة – بيروت – لبنان- ط 1- 1423هـ - 2003 م –ج 1 – ص 15.

عصر ما، أو تتناول هذا النتاج من حيث المحتوى أو الشكل، أو استجلاء الأفكار، أو الحالة النفسية للأديب، وغيرها من جوانب الدراسة.

وتعد الدراسة الأدبية صميم الفكر النقدي الذي تطور مع تطور الأدب فظهرت النظريـــات والاتجاهات النقدية.

والأدبية كمفهوم استعملها الناقد واللغوي الروسي رومان جاكبسون للإشارة إلى كل ما يجعل من عمل معين عملا أدبيا، وقد كانت الأدبية " موضوع اهتمام الشكلانيين الروس، والمدرسة الشكلية الألمانية، وتيار النقد الجديد الأمريكي New criticism ، والذي وصفوهم في فرنسا (بالبنيويين) في الستينيات من القرن العشرين "[1].

فهي تتناول كافة العناصر والمعايير والمقومات التي تحدد العمل الأدبي وخصائصه الفنية من حيث الشكل والمضمون.

وهكذا فالأدبية تسعى للغوص في أعماق النص الأدبي وسبر أغواره سعيا وراء الخصائص والميزات الفنية والجمالية التي يزخر بها النص الأدبي، فهي لا تتجاوز النص الأدبي ولا تلتفت إلى ما يحيط به من حيثيات بل تجعل منه بداية العملية ونهايتها.

فهي إذن عملية تحليلية تهتم بدراسة النصوص والآثار الأدبية بعيدا على مرجعياتها وعتباتها في قراءة داخلية للنص انطلاقا من مكوناته الأساسية وهي اللغة بكل مستوياتها (كلمة، جملة، فقرة...) للوصول إلى الأبعاد الفنية والجمالية التي يتميز ويتفرد بها هذا النص عن غيره من النصوص الأخرى؛ "والأدبية ليست إلا تخصصا في مجال الشعرية، أو تحول عناصر اللغة من صفة الدال على مدلول خارج عنه، إلى وضع يتحول فيه الدال نفسه إلى مدلول"[2].

والقول بأدبية الأدب يعني أنها تنقل "مركز القيمة في الأعمال الأدبية من السياق التاريخي والسياق الاجتماعي، والسياق النفسي لتضعه في السياق المنبثق من الأعمال الأدبية ذاتها أي في طبيعتها الشعرية بالمفهوم الواسع لكلمة الشعرية التي لا تقتصر على جنس بذاته وإنما تشمل كل الأجناس الفنية"[3].

([1])- حجازي، سمير سعيد- النظرية الأدبية و مصطلحاتها الحديثة - دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية - القاهرة – مصـــر - 2004 - ص 167.

([2])- المرجع السابق - ص 167.

([3])- فضل، صلاح – مناهج النقد المعاصر- دار الآفاق العربية – القاهرة – مصر – 1996 – ص 88.

والتمييز بين الأعمال الأدبية وغير الأدبية، لم يعد مهما، لأن الظواهر غير الأدبية لا تدخل ضمن الخصائص والمعايير التي تطبع بها الظواهر الأدبية، فالنظرية الأدبية انتهى بها الأمر إلى أن تكون "حاسمة في إقصاء الخطابات والممارسات غير الأدبية"[1].

فالعملية الأدبية تتمثل في "تحويل الموضوع مهما كانت قيمته في حد ذاته (ومهما اختلفت المواقف في قبوله أو رفضه وفي مدحه أو ذمه) إلى كلمة جميلة، إنها خروج بالموضوع من سَنَن تقويمي خاص يُعتمد في تقدير قيمته قبل أن يكون نصا، أو بصرف النظر عن صورته النصية عندما يصبح نصا، إلى سَنَن تقويمي عام، يُنْظَرُ إليه منه على أنه نص لا يُقَوَّمُ بالوثائق والشهادات والحجج، وإنما بخصائص الأسلوب التي تكشف أدبيته، وبالمعاني التي "تبرمجها" الكلمات فيه لا بالمعاني التي يبثها التوثيق والتحقيق"[2].

فالخطاب الأدبي إذن "من طبيعته، بل من شروط أدبيته أن يجعل الأشياء المألوفة تبدو وكأنها غير مألوفة"[3]، وهذا الفعل الذي يتجه نحو خرق المألوف هو ما ينشئ الغرابة ويغلف العمل الأدبي بهالة من السر والجمال قد تستعصي أحيانا على التفسير.

"وإذا كانت أدبية الأدب تكمن في جمال الكلام فإن جمال الكلام يكون في الكلام على الجمال كما يكون في الكلام على القبح سواء، فاختلاف الموضوعات وتنوع المواقف منها، لا صلة لهما بمستوى الكلام"[4].

فمقياس الجمال لا يعني أنه هناك "قيما أدبية خالصة" أو "معايير فنية ثابتة" يمكن من خلالها تقدير الكتابة الجيدة لذاتها، "والنظرية الأدبية لا يمكن أن تنفصل عن علم الجمال العام، أو عن النقد العملي أي الحكم على الأعمال الفنية المفردة وتحليلها"[5].

فالأدبية إذن تعني "دراسة مبادئ الأدب وأصنافه ومعاييره، بحيث تنفصل عن النقد بشكل أو بآخر في حالة اقتصار اهتمامه على الأعمال الأدبية في ذاتها، متوجها إلى تفسيرها أو متابعة قيمها التقديرية في الحكم على وفق ميزان الجودة"[1].

([1])- كولر، جوناثان- مدخل إلى النظرية الأدبية – ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام - المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – مصر - ط 1 - 2003 - ص 37.

([2])- الطرابلسي، محمد الهادي – تحاليل أسلوبية – مؤسسة عالم الكتاب – 2006 - ص 157.

([3])- عامر، مخلوف – الخطاب الأدبي ومقتضيات التلقي – مجلة المخبر- أبحاث في اللغة والأدب الجزائري – جامعة محمد خيضر – بسكرة – العدد الثالث- 2006 – ص 119.

([4])- الطرابلسي، محمد الهادي- تحاليل أسلوبية – ص 157.

([5])- طائفة من الأساتذة – حاضر النقد الأدبي (مقالات في طبيعة الأدب) – ترجمة: محمود الربيعي- دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة – مصر- 1998- ص 70.

وهذا ما يجعل الأدبية تكون تقطعات مع النظريات النقدية كالأسلوبية والشعرية، فالأسلوبية هدفها هو اللغة، في حين هدف الأدبية النص، وبالتالي توظفها وتشملها، أما الشعرية فتنضوي تحتها الأدبية.

وقد صارت الأدبية "جزءا من النقد، أو البحث المقصود والتخصصي في الأدب لأنه أصبح يهدف إلى إدراك المعرفة الفكرية المنظمة في الأدب"[(2)].

وخلاصة القول: الأدبية هي منهج في تحليل النصوص الأدبية تحليلا شاملا وفق نظرة علمية بغية الوصول إلى الخصائص والمعايير والمقاييس والقيم الجمالية والفنية التي تجعل من عمل ما أدبا أو تنفي عنه هذه الصفة.

([1])- الحربي، فرحان بدري- الأسلوبية في النقد العربي الحديث: دراسة في تحليل الخطاب – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان- ط1 – 1424 هـ / 2003 م - ص 145.

([2])- المرجع نفسه - ص 145.

2- مفهوم الخطاب:

الخَطْب: الشأن أو الأمر، صَغُر أو عَظُم، وقيل هو سبب الأمر، يقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟[1]

والخطب هو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال.

وإنما سمي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة [2].

وجَلَّ الخطب أي عَظُم الأمر، والشأن، وجمعه خطوب.

وفي القرآن الكريم : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [3] أي ما شأنكم؟ وما أمركم؟

ومن المجاز:"هو يقاسي خطوب الدهر"[4].

ومنه الخُطبة وهي الكلام المنثور يلقيه الخطيب على المنبر.

والخِطْبُ الذي يخطب المرأة للزواج وهي خِطبه التي يخطبها.

والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان[5].

وقول ابن منظور: مراجعة الكلام، كأن النص لا يُعرف نصا إلا إذا راجعه صاحبه، بمعنى أن الكلام يكون في الذات، فإذا راجعه بأن أخرجه إلى المتلقي كتابة أو نطقا، تكون هذه العملية هي المراجعة للكلام التي تمثل الخطاب.

فهو يرى أن الخطاب يحمل الدلالتين: الكلام المكتوب والمنطوق، في حين أن النص يحمل المكتوب فقط فالنص إذن جزء من الخطاب.

وإن تحديد المعنى الاصطلاحي للخطاب يعد من الصعوبة بمكان نظرا لطبيعة هذا المصطلح الهلامية، وذلك راجع لكونه مصطلحا حديثا لم تستقر أبعاده بعد، وكذا لتعدد الموضوعات التي يطرحها، إذ أنه يرتبط بالكلام، ومراجعة الكلام، والحوار، والرسالة التي ينقلها المرسل إلى المتلقي وارتباط هذه الرسالة بالنظام اللغوي وغيرها...

---

(1)- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم - لسان العرب- مجلد 1- مادة: خطب - ص 360.

(2)- ابن فارس، أبو الحسين أحمد - معجم مقاييس اللغة - دار الجيل - بيروت - لبنان - مجلد 02 - ص 198.

(3)- سورة الحجرالآية : (57) - وسورة الذاريات الآية: (31).

(4)- الزبيدي، مجد الدين محمد بن يعقوب - تاج العروس - ج 2 - مادة: خطب - ص 370.

(5)- ابن منظور- لسان العرب- مجلد 1- ص 361.

" ولن نبالغ كثيرا إذا قلنا إن لفظ "الخطاب" هو أكثر الألفاظ تداولا في الخطاب العربي المعاصر، فالكل يتحدث عن الخطاب: الخطاب العلمي، الخطاب النهضوي ...، طبيعي أن يلحق اللفظ بعض "العياء"، فيفقد كل دلالة، أو على الأقل لا يعود يعني شيئا كثيرا. بل إنه يكاد في معظم الأحوال لا يعني إلا ما يدل عليه لفظ "مقال""[1].

ومن هنا ينظر للخطاب بكونه مرجعية للكلام المراد توصيله، شفويا كان أو كتابيا لإبلاغ خبر ما عن قضية بعينها.

"وهو يُؤخذ هنا ترجمة للكلمة الفرنسية discours، ومقابلها الإغريقي logos، التي تُحيل إلى الكلام المعقول، أي سلسلة منتظمة من المنطوقات التي تحكمها مبادئ المنطق التقليدي"[2].

أما من وجهة نظر اللسانيات فتحدد ماهية الخطاب في ثلاثة تعاريف:

1-الخطاب يعني الكلام (parole).

2-الخطاب مرادف للملفوظ (Enoncé).

3-الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة (Enoncé supérieur à la phrase)[3].

غير أن من الدارسين من اعتبر " الخطاب "رسالة" متجاوزًا اعتبار الشخص كمرجع له، باعتباره الوحدة اللسانية المتكلمة"[4].

ويشير مصطلح الخطاب إلى "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا"[5].

وإذا كان الخطاب يشكل متتالية منسجمة من الملفوظات فإن أي ملفوظ لا يمكن أن يتم عزله عن غيره من الملفوظات.

فالخطاب هو ما تؤديه اللغة من أفكار الكاتب ومعتقداته، والخطاب الأدبي خطاب نوعي يحمل رسالة معرفية أو شعورية وجدانية، وهذا ما جعل " "تودوروف" يدعو إلى استعمال الخطاب

---

(1)- عبد السلام، بنعبد العالي – بين، بين- دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – المغرب – ط1 - 1996 – ص 78.

(2)- المرجع نفسه – ص 78.

(3)- أحمد، يوسف – بين الخطاب والنص- مجلة تجليات الحداثة – معهد اللغة العربية وآدابها – جامعة وهران – السنة الأولى – العدد الأول – 1992- ص 51.

(4)- مويقن، مصطفى – بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة – دار الحوار- اللاذقية – سوريا- ط1 – 2005 – ص 153.

(5)- رزان، محمود ابراهيم – خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ط 1 – 2003- ص 17.

الأدبي محل الأدب أو العمل الأدبي، وذلك لاعتبارات عديدة من بينها أن هناك علاقات بين الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية"[1].

باعتبار الخطاب الأدبي تشكيل جمالي، استوعب في حدثه اللساني الألفاظ والمعاني والأخيلة والصور والأفكار والرؤى، فضلا عن واجهته المشكِّلة له.

وعليه يمكن اعتبار الخطاب الأدبي " نوع خاص من الكتابة التي تعكس ذاتهـــا"[2].

ودراســـة الخطـــاب لا تفـــرق بين تلك النصـــوص التي تعتبر أدبية وتلك التي تعتبر غير ذلك.

ويختلف الخطاب عن النص، بكون النص "سلسلة من الجمل المبثوثة بين فراغين دلاليين أو بين وقفتين على عملية اتصال، أما الخطاب فهو الآلية الإفهامية التي تشرط النص، وهذا الأمر لا يتحقق إلا بعملية الربط بين الآلية الداخلية وشروط الإنتاج"[3].

وبذلك يكون الخطاب أوسع مفهوما من النص، من حيث التحديد، كما أنه أكثر اتصالا وارتباط بالعلوم الإنسانية ، وذلك لكونه يعتمد عملية التواصل مرجعية في الدراسة والتصور الذي يتشكل من المرسل و المتلقي من خلال الرسالة المنقولة.

"وإذا كان ثمت اتفاق على أن المادة الداخلية للنص هي الوسيلة والغاية في آن ... فإن الخطاب مصطلح أكثر اتساعا ممن النص بمعنى أنه يحتضن عملية التوصيل بجهازها الثلاثي (المؤلف، النص، القارئ) "[4].

"كما أنه لا يتحدد مفهوم النص في الإطار نفسه كما هو في الجملة، بهذا الفهم يجب أن يتميز النص عن الفقرة التي هي وحدة تصنيفية لعدة جمل، كما يمكن أن يتطابق النص مع جملة مثلما يتطابق مع كتاب بكامله، فهو يتحدد باستقلاليته ... "[5].

([1])- يقطين، سعيد- تحليل الخطاب الروائي- (الزمن، السرد، التبئير) – المركز الثقافي العربي – (بيروت – لبنان)– (الدار البيضاء – المغرب) – ط 3 – 1997- ص 14- 15.

([2])- ميلز، سارة – الخطاب – ترجمة: يوسف بغول – منشورات دار مخبر للترجمة في الأدب واللسانيات – جامعة منتوري – قسنطينة – دار البعـــث – قسنطينة – الجزائر – 2004 – ص 18.

([3])- ناظم، عبد الجليل – نقد الشعر في المغرب الحديث – دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – المغرب – ط 1 – 1992 – ص 13.

([4])- نجا، أشرف محمود – في الأدب الأندلسي – بحوث على نقد الخطاب الإبداعي – دار الوفـــاء – الإســـكندرية – مصـــر – ط1 – 2006 – ص73.

([5])- تودوروف، تزيفيطان – مفاهيم سردية – ترجمة: عبد الرحمن مزيان – منشورات الاختلاف – الجزائر – ط 1 – 2005 – ص 32.

وعليه: يشار بالخطاب إلى الطريقة التي تُشَكَّل بها الجمل مكونة نظاما متتابعا تسهم به في نسق كلي متحد الخواص وعلى نحوٍ "يمكن معه أن تتألف الجمل في خطاب بعينه لتشكل نصا مفردا، أو تتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطابا أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد"[(1)].

وعلى هذا الأساس يختلف الخطاب عن الجملة في اللغة والقضية في المنطق كما يختلف التحليل الخطابي عن التحليل الألسني أو التحليل المنطقي، وذلك لكون " الخطاب هو مجموعة من المنطوقات أو الملفوظات التي تكون بدورها مجموعة من التشكيلات الخطابية المحكومة بقواعد التكوين والتحويل"[(2)].

وإذا ما تجاوزنا المفهوم اللساني للخطاب، فإن باستطاعتنا أن نجد له تعريفات أخرى فهو " فضلا عن كونه مجموع التعابير الخاصة التي تحدد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الإيديولوجي، أي مجموع النصوص والأقوال ذات النظام والتنظيم"[(3)].

فالخطاب إذن يتشكل " انطلاقا من المرجعية، فالشعر ينجب الخطاب الشعري، والسرد ينجب الخطاب السردي ... ، ويتحقق هذا كله بحسب وظيفة الخطاب المتميزة"[(4)].

"إن الخطاب الأدبي جملة علائقية إحالية مكتفية بذاتها حتى تكاد تكون مغلقة ومعنى كونها علائقية أنها مجموعة حدود لا قوام لكل منها بذاتها، وهي مكتفية بذاتها[(5)]"، وهذا يعني أن الخطاب مبني على جملة العلاقات التي تربط مكوناته فيما بينهما ثم يربطها بغيرها بلا نهاية... وذلك انطلاقا من كون " العمل الأدبي هو التعبير من طريق اللغة عن تجربة شعورية بطريقة موحية مؤثرة في القارئ أو السامـــع "[(6)].

وأخيرا يمكن تلخيص مفهوم الخطاب من خلال وضع الاصطلاح الأكثر عمومية له فهو "نظام تعبير متقن ومضبوط"[(7)].

وهذا النظام ليس في جوهره إلا بناء فكريا يحمل وجهة نظر، وقد تمت صياغته في بناء استدلالي بشكل مقدمات ونتائج، ويجري الخطاب بين مرسل، ومتلق للرسالة ضمن عملية اتصـــال.

([1])- نجا، أشرف محمود – في الأدب الأندلسي – ص 73.

([2])- بغورة، الزاوي – المنهج البنيوي – بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات – دار الهدى – عين مليلة – الجزائر- ط 1 – 2001 – ص 208.

([3])- الحربي، فرحان بدري- الأسلوبية في النقد العربي الحديث – دراسة في تحليل الخطاب – ص 40.

([4])- بوحوش، رابح – الأسلوبيات وتحليل الخطاب – منشورات جامعة باجي مختار – عنابة – الجزائر- 2006- ص 91.

([5])- شرشار، عبد القادر – تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق - سوريا – 2006 – ص 41-42.

([6])- عنبر، أحمد محمد – قضية الأدب بين اللفظ والمعنى – دار الكتاب العربي – مصر – 1954- ص 39.

([7])- الحربي، فرحان بدري – الأسلوبية في النقد العربي الحديث – ص 40.

فهو الكاشف عن فكر المؤلف لأنه يشكل المعرفة المنظمة الخاصة لجـــانبٍ محددٍ من الواقـــع أو ظاهرة محددة، ومن ثم يمكن الحديث عن خطابات متعددة: أدبي، سياسي، فلسفي...

3- مفهوم النشر:

نشر: يقال نشر ينشر نشرًا- الشيءَ، فهو منشور؛" نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثْرِ الجوزِ واللوزِ والسكرِ، وكذلك نثر الحبِّ إذا بُذِرَ، وهو النِّثَار"[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

وقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾[3].

و رجل نَثِرٌ أي كثير الكلام ، و النثير للدواب و الإبل كالعطاس للناس[4].

ونثر قراءته أي أسرع فيها ، و رأيته يناثره الدُّرَّ إذا حاوره بكلام حسن[5].

يقال انتثر الحَبُّ وانتثرت الكواكب أي تساقطت وفسد نظامها، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾[6].

ومن المجاز النَّثور: كصبور: المرأة (الكثيرة الولد) وكذلك الرجل، ونثر الكلام والولد : أكثره[7].

ويقال استنثر إذا استنشق الماء ثم استخرج ذلك بنَفَس الأنف.

والنَّثَرُ بالتحريك ما تناثر منه، أو الأولى تُخَصُّ بما ينتثر من المائدة فيؤكل للثواب، وتناثروا مرضوا فماتوا[8].

فالمعنى اللغوي العام لكلمة النثر يدل على التفرق والتبعثر.

---

(1)- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم - لسان العرب – ج 5 – ص 191.

(2)- سورة الفرقان – الآية (23) .

(3)- سورةالإنسان – الآية (19) .

(4)- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم - لسان العرب – ج5 – ص 191.

(5)- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر- أساس البلاغة – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان – ط 1 – 1996 – ص 113.

(6)- سورة الانفطار- الآيتين (1- 2) .

(7)- الزبيدي، محمد مرتضى الحسين – تاج العروس – ج 14 – ص 171.

(8)- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب- القاموس المحيط- دار الكتب العلمية- بيروت – لبنان- ط 2- 1428هـ/2007م- ص 503.

أما مدلول النثر في الاصطلاح فيطلق على الكلام الفني الجيد الذي يرسله قائله أو كاتبه إرسالا بلا وزن ولا قافية، وهو بهذا المعنى يقابل فنا قوليا آخر هو النظم أو الشعر المنظــوم بالأوزان والقوافي[1].

فهو- في ضوء ما سبق- ذلك الكلام الذي ننطق به مركبا، أو نكتبه تعبيرا عما يجول في أذهاننا ونفوسنا من خواطر، ومشاعر، وما تقع عليه حواسنا من مشاهــد وصور بغايــة الشــرح أو الإيضاح أو الإفهام أو التبيين أو الإقناع، دون التقيد بوزن أو قافية.

ولذلك فالنثر أصلح لنشر الآراء والمذاهب والعقائد وما تحتاج إليه العقول؛ ولقرب تناوله وضرورة استعماله وعدم إثقاله بالأوزان، كان أسبق أنواع الكلام في الوجود[2].

وقد اختلف الدارسون في أولية الشعر والنثر، غير أنه كما تمت الإشارة إليه فإن أولية النثر على الشعر هي رأي أغلبهم باعتبار أن النثر هو القول العادي الذي ليست له قيود وزن وقافية.

"وكلٌّ ما ليس شعرا فهو نثر في الأدب وفيه نستطيع أن ندرج الخطابة والأمثال والرسائل وبعض الكتابات التاريخية، والأدبية كالمختارات والنوادر والدراسات الأدبية، والقصص والمقامات، والمسرحية... إلخ "[3].

ولابد من الإشارة إلى أن جل النقاد والدارسين الذين عمدوا إلى تعريف النثر ووضع حد لمفهومه، قد جعلوا ذلك مقارنة بالشعر، فلا يتعرف النثر عندهم إلا من خلال مقارنة خصائصه وأبعاده بخصائص وأبعاد الشعر.

"فتصورهم لماهية النثر يبدو أنه لا يعدو القول بأن النثر فن أدبي كالشعر "[4]، فيه "مظهر من مظاهر الجمال، وفيه قصد إلى التأثير في النفس في أية ناحية من أنحائهــا"[5].

أي أن النثر حسب هذا المفهوم يعد لغة أدبية مثيرة للنفس والشعور ومن ثم فهو يتفق في هذا المعنى وجوهر الشعر، ولكنه يختلف على الشعر من ناحية الشكل والموسيقى.

وقد كان القدماء يعتبرون النثر هو مطلق القول غير الموزون سواء كان لغة فنية عادي.

([1])- عبد العال، محمود يونس – في النثر العربي- قضايا وفنون ونصوص – الشركة المصرية العامة للنشر – لونغمان – الإسكندرية – مصر – ط 1 – 1996- ص 07.

([2])- العوبي، رابح – أنواع النثر الشعبي – منشورات جامعة باجي مختار- عنابة – الجزائر - ص 14.

([3])- سلام، محمد زغلول - النقد الأدبي الحديث: أصوله واتجاهات رواده – منشأة المعارف – الإسكندرية – مصر –1981–ص 95.

([4])- موافي، عثمان – في نظرية الأدب – من قضايا الشعر والنثر في النقد الأدبي - دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – مصر – ط 3 – 2002- ص 35.

([5])- طه، حسين- في الأدب الجاهلي – المجموعة الكاملة – المجلد 5 – الأدب والنقد (1) – دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان – ص 328.

وكثيرا ما اقترن النثر بالسجع، غير أن الفرق هو أن السجع كلام مقفى على حد الأرجوزة من الشعر، إلا انه غير موزون، ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام إذا هدر، وسجعت الناقة إذا مدت حنينها على جهة واحدة، وهو يُحَسِّن في مواضع ويُشَيِّن في أخرى.

في حين أن النثر "هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة إلا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه وإيثار ما يألفه السمع والطبع منه، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام بل هو الأصل في الإنشــاء، وما سواه فرع منه فإنه طبيعي أصيل، وما دونه صناعي حــادث و الأصل في الطبيعة لا محالة"[1].

ومن الإجحاف اعتبار الحد بين النثر والشعر هو الوزن والقافية، وذلك لكون الشعر والنثر " قالبان أدبيان لا نوعان فنيان ولا شكلان متناقضان من أشكاله التعبيرية، قالبان أدبيان أحدهما يتميز بالوزن والقافية والآخر يتميز بخلوّه منهما"[2].

ولكي يعد الأدب فنا جميلا، ينبغي أن يتوافر له المضمون والشكل الفنيان، سواء جاءا في قالب الشعر أو في قالب النثر؛ " وقد يستوعب القالب الشعري أدبا غير فني كما قد يستوعب أدبا فنيا رفيعا، وقد يستوعب القالب النثري أدبا جماليا بشكله ومحتواه، كما قد يستوعب أدبا يخلو من كل أثر لهذه الجمالية شكلا ومحتوى "[3].

"والأصل في الشعر أن يصنع من الإنسان أسطورة، في حين يرسم النثر صورتــه"[4].

فالتمييز بين الشعر والنثر إذن لا ينحصر في الوزن والقافية بل هو شيء أهم، فهو الذوق في اختيار الكلمات التي تحدث رنة اهتزاز البيت الشعري، والخيال الواسع والشعور الحار والتعبير الصادق؛ " بحيث تطرب له النفس عند القراءة وتهتز له المشاعر عند الفهم، أما النثر فميادينه واسعة تكاد لا تحصى، لأن أغراضه لا يكاد يفي الشعر منها بشيء فهي تشمل الإنتاج الفكري بأنواعه كلها من أدبية وعلمية وفلسفية"[5].

([1])- الخطيب، محمد كامل – نظرية النقد – منشورات وزارة الثقافة – سوريا – 2001 – القسم الأول "من البلاغة إلى النقد" - أديب إسحاق – حد الكتابة وأقسامها – ص 16.

([2])- عاصي، ميشال – الفن والأدب – مؤسسة نوفل – بيروت – لبنان – ط3 – 1980 – ص 83.

([3])- المرجع نفسه – ص 83.

([4])- سارتــر، جــون بـــول – مـــا الأدب – ترجمـــة : محمد غنيمي هلال – دار نهضـــة مصـــر – القاهـــرة – مصر - 1990 – ص 35. بتصرف

([5])- كرو، أبو القاسم / عبد الله شريط – شخصيات أدبية من المشرق والمغرب – دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – ط 2- 1966- ص 31.

وعنصر الفكرة يسود في النثر ويضعف في الشعر، وعلى العكس نلفي عنصري الخيال والعاطفة يغلبان على الشعر ويتضاءل أثرهما في النثر[1].

وليس معنى هذا طبعا أن الشعر كله عاطفة وخيال ولا أثر فيه للفكرة، أو أن النثر يقوم على الفكرة وينعدم فيه الخيال والعاطفة.

" ولكل واحد من هذه الفنون (الشعر والنثر) أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب..."[2].

" إن شيئا ما يجب أن يقال في النثر، والكلمات فيه تعبر على - نحوٍ نشط - عن دلالاتها الفكرية الكامنة والواضحة، وعلى العكس نجد السبات الفكري والدلالي في الشعر حين ينفجر السياق الشعري بدلالات تصويرية مميزة تتأتى من المكانة الخاصة والمقصودة للكلمة حيال الكلمات الأخرى"[3].

إذن فالنثر هو حالة من حالات الوعي، لا يشترط فيه ما يشترط في الشعر، ومن خصائصه البساطة والوضوح في التعبير.

([1])- بوملحم، علي – في الأدب وفنونه – المطبعة العصرية – صيدا – لبنان – ص 21.

([2])- ابن خلدون، عبد الرحمان – المقدمة – دار الفكر – بيروت – لبنان – ط 1 - 1424 هـ / 2004 م – ص 643.

([3])- ناظم، حسن- مفاهيم الشعرية – دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم – المركز الثقافي العربي – (بيروت – لبنان) - (الدار البيضاء – المغرب) - ط 1 – 1994 – ص 84.

ثانيا: القاضي عياض الشخصية و التكوين الثقافي

1–نسبـــه و مولـــده

2–نشأتـــه و حياتـــه

3–وفـــاتـــــه

4–شخصيته و ثقافته

5–مؤلفـــاتـــه

1- نسبـــه ومولـــده:

أورد أبو عبد الله محمد بن عياض سلسلة أجداد والده القاضي عياض في كتابـــه "التعريـــف بالقاضي عياض" فقال: "أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي، وكان أبي رحمة الله عليه يقول: لا أدري هل محمـــد والد عياض أم بينهما رجل فهو جده"[1].

ووقع في معجم "أصحاب الصدفي" لابن الأبار "ابن عمرو" دون نون[2].

وهو ذاته ما ذكره بن خلكان في "الوفيات" فقد أورد كذلك: "بن عمرو" دون نون[3].

والمرجح هو ما أورده إبنه أبو عبد الله في "التعريف"، إذ أنه الأدرى بأصـــله وأجـــداده، ولا يكون علم هذا الأصل إلا من والده الذي تتلمذ عليه.

واليحصبي بضم الصاد وكسرها نسبة إلى قبيلة "يحصب".

ويَحْصب: من حِمْيَرْ، وهو يحصب بن مُدْرِك، حسبما هو مذكور في كتب الأنساب[4].

كما ينسب القاضي عياض لمدينة سبتة فيقال: "اليحصبي السبتي"، وســـبتة مدينـــة معروفـــة بالمغرب.

يقول ابن بشكوال: "عياض بن موسى بن عياض اليحصبي من أهـــل ســـبتة، يُكـــنى: أبـــا الفضل"[5].

ونسبته إلى سبتة إنما جاءت من ولادته بها ونشأته فيها حيث ولد القاضي عياض بمدينة ســـبتة في النصف من شعبان عام ستة وسبعين وأربعمائة للهجرة.

([1])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – تقديم وتحقيق: محمد بن شريفة – وزارة الأوقاف والشؤون الإســـلامية – المملكـــة المغربية – ط 2 – 1402 هـــ / 1982 م – ص 2.

([2])- ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي – المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي – دار الكاتب العربي – القاهرة – مصر - 1387 هـــ / 1967م – ص 306.

([3])- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – تحقيق: إحســـان عبـــاس – دار صـــادر – بيروت – لبنان – مجلد 03 - ص 483.

([4])- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وآخرون- مطبعـــة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – مصر- 1358 هـــ / 1939 م – ج 1 - ص 27.

([5])- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك – كتاب الصلة – في تاريخ علماء الأندلس – تحقيق: صلاح الدين الهواري – المكتبة العصـــرية – صيدا – بيروت – لبنان – ط 1- 1423 هـــ / 2003 م – ج 1- ص 359.

وقد صرح بذلك ولده أبو عبد الله في "التعريف" حيث قال في معرض حديثه عن أجداده: " ثم ولد لموسى ابنه عياض أبي – رحمة الله عليه وعلى جميعهم – فيما رأيت بخطه في النصف من شعبان عام ستة وسبعين وأربعمائة بسبتة"[1].

أما ابن فرحون المالكي فيرى أن مولد القاضي عياض كان خلاف ذلك إذ يقول: " كان مولد القاضي"عياض" بسبتة في شهر شعبان من سنة ست وتسعين وأربعمائة "[2].

ولعل هذا تصحيف من النساخ وهو الأقرب، أو أنه خلط حدث لابن فرحون بين سبعين وتسعين؛ إذ أن الأشهر والأرجح في ميلاد القاضي عياض هو عام ستة وسبعين وأربعمائة للهجرة، وهو ما أجمعت عليه المصادر التي ترجمت له في حين شذ ابن فرحون بإيراده لهذا التاريخ في ديباجه.

2- نشأته وحياته:

نشأ القاضي عياض في سبتة في بيت علم ودين وتلقى العلم أول ما تلقاه عن شيوخها.

وقد كانت سبتة مسقط الرأس لعدد من علماء المغرب والأندلس، " وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها، يشغل كل منهما مكانة بارزة في تاريخ العلوم العربية، وقد عاش كلاهما في نفس العصر تقريبا، أي في النصف الأول من القرن السادس الهجري، هما الشريف الإدريسي، أعظم الجغرافيين المسلمين، والقاضي عياض بن موسى السبتي أعظم حفاظ المغرب بلا مراء"[3].

ويدخل عياض الصبي إلى الكُتَّاب، شأن أقرانه، ليقرأ القرآن الكريم على عادة أهل المغرب في التعليم إذ يفتتحون التعليم بالقرآن الكريم[4].

فبدأ يحفظ كتاب الله حتى أتقنه ثم طلب الحديث والفقه وتتلمذ على أعلام سبتة في وقته، ويبدو أن موقع بلده سبتة أتاح له اتصالا باكرا بعلماء أجلّاء إذ كانت سبتة مغشى كثير من العلماء الذين يجتازون بها، سواء الوارد من الأندلس للمغرب، أو القادم من المشرق إلى المغرب.

([1])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 3-4.

([2])- ابن فرحون المالكي، أبو إسحاق ابراهيم بن علي – الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب – تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور – دار التراث – القاهرة – مصر – 1972 – ج 2 – ص 51.

([3])- عنان، محمد عبد الله – تراجم إسلامية شرقية وأندلسية – مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر – ط 2 – 1390 هـ / 1970 م – ص 306.

([4])- شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – دار الفكر المغربي – طنجة – المغرب – ط 1 – 1983 – ص 70.

ويقول أبو عبد الله محمد بن عياض عن نشأة والده: " نشأ على عِفَّةٍ وصِيانةٍ مَرْضِيَ الخِـــلاَل، محمود الأقوال والأفعال، موصوفا بالنُّبل والفهمِ والحِذْقِ، طالبا للعلم حريصا عليه، مجتهدا فيه، معَظَّما عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه "[1].

وهذه دون شك نشأة صالحة متينة الأسس، لن يكون لصاحبها إلا النجـــاح لأنـــه اســـتوفى الأسباب وأخذ بها لبلوغ المقاصد والمآرب.

وقد كان القرآن الكريم مناط اهتمامه ورأس الأمر في علمه، فكل العلوم تدور حوله وترجـــع إليه " وبلغ من التفنن في فنـــون العلم ما هو معلوم، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، والقيام عليه، لا يترك التلاوة له على كلِّ حالة، مع القـــراءة الحسنـــة المستعذبة، والصـــوت الجهـــير والحـــــظ الوافـــر من تفسيـــره، والقيام على معانيه وإعرابـــــه وشواهـــــده وأحكامـــه، وجميـــع أنـــواع علومــــه"[2].

كما أنه عنى بالحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة والأدب وفنونهما، فكان فصيحا مطلعا على أخبار الصالحين وسيرهم، كما أنه " مليح القلم، من أكتب أهل زمانه"[3].

وصفه صاحب "بغية الملتمس" بأنه فقيه محدث عارف أديب[4].

أما صاحب "الحلل السندسية" فقال عنه: " هو أحد الحفاظ، المحدثين الأدباء "[5].

ويقول السيوطي:" كان إمام أهل الحديث في وقته، وأعلم الناس بعلومه وبالنحو واللغة وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم"[6].

([1])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 04.

([2])- المصدر نفسه – ص 04.

([3])-المصدر نفسه – ص 04.

([4])- ابن عميرة الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد – بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس – مكتبة المثنى – بغداد – العراق – ص 425.

([5])- الوزير السراج، محمد بن محمد الأندلسي – الحلل السندسية في الأخبار التونسية – تحقيق: محمد الحبيب الهيلة – الدار التونسية للنشر- تونس- 1970 – ج 1- القسم 04- ص 97.

([6])- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر- طبقات الحفاظ – تحقيق لجنة من العلماء بإشراف الناشر- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط 2 -1414 هـــ / 1994 م – ص 470.

وقد أخذ القاضي عياض عن شيوخ بلده سبتة أولا، يقول ولــده أبــو عبــد الله محمــد في "التعريف" : " أخذ عن أشياخ بلده كالقاضي أبي عبد الله بن عيسى (ت 505هـ)، والخطيــب أبي القاسم (ت 502 هـ)، والفقيه أبي إسحاق ابن الفاسي (ت 513 هـ)، وغيرهم "[1].

ثم رحل إلى الأندلس في منتصف جمادى الأولى عام 507 هـ، فأخذ عن أعــلام قرطبــة، والتقى أبا علي الصدفي بمرسية (ت 514 هـ) فسمع عليه كثيرا ولازمه، وأجازه، كما أجازه غيره الكثير من جلة شيوخ العلم والرواية في الأندلس، وجاء في التعريف: " ثم رحل إلى الأندلس، وكــان خروجه من سبتة في يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، فوصل إلى قرطبة يــوم الثلاثاء مستهل جمــادى الآخرة بعده، فأخذ بها عن ابن عتــــاب (ت 520 هـ)، وابن حمــدين (ت508 هـ)، وابن الحاج (ت529 هـ)، وغيرهم من أعلام قرطبة، ثم خرج منها إلى مرسية ... فوجد أبا علي الحافظ الحسين بن محمد الصَّدَفي "[2].

كما لقــي في رحلته هذه جماعة من أعــلام الأندلس، أجازوه هم أيضا فقد أجازه أبو علــي الجياني (ت 498 هـ)، والقاضــي بن شبرين (ت 503 هـ)، وأبــو الحســن شريــح (ت 539 هـ)،وقد كان له من الشيوخ من " سمعه وأجازه واليسير منهم من لقيه وجالسه و لم يسمع منه إلى مائة شيخ "[3]، إذ اكتفى بمجالستهم ومذاكرتهم و لم يحمل عنهم الكتب.

وبعد أن جال في بلاد الأندلس وحصّل ما وفقه الله إليه من العلم رواية ودراية، ونال ما كتبه الله له من الإجازات عاد إلى سبتة سنة 508 هـ.

" ووصل بلده ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة من عام ثمان وخمسمائة وأجلسه أهــل بلده للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن اثنين وثلاثين عاما أو نحوها، وبعــد ذلــك بيســير أجلــس للشورى"[4].

([1])- أبو عبد الله محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 06.

([2])- المصدر نفسه – ص 17.

([3])- المصدر نفسه - ص 10.

([4])- المصدر نفسه – ص 10.

ثم ولي قضاء سبتة، وبعدها انتقل إلى غرناطة ليولَّى قضاءها، ثم عاد مرة أخرى إلى سبتة وتولى قضاءها.

يقول ابنه محمد في معرض حديثه عن تقلب والده في مناصب القضاء بين سبتة وغرناطة، بعد أن عاد من رحلته للأندلس: " ثم ولي القضاء عام خمسة عشر خمسمائة لثلاث بقين من صفر، فسار فيه حسن السيرة محمود الطريقة مشكور الخلة، وأقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة الذي كَمُلَ بها جماله ... فعظم جاهه وبَعُدَ صيته"[1].

وبعدها انتقل قاضيا إلى غرناطة فأقام بها مايقرب من عام، يقول ولده محمد: " ثم نُقِلَ إلى غرناطة سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فنهض إليها وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمه السنية وأخلاقه المرضية مشكورا عند جميع الناس"[2].

غير أنه عاد مرة أخرى إلى بلده سبتة " ثم ولي قضاء سبتة ثانية في آخر عام تسع وثلاثين وخمسمائة قدمه ابراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف، وابتهج أهل بلده وسار فيهم السيرة التي عَهِدوا منه "[3].

وابراهيم بن تاشفين من أمراء المرابطين الأواخر، إذ كان " سقوط دولة المرابطين على قوة فتية مغربية جديدة"[4]، على رأسها محمد بن تومرت المدعو بالمهدي، وأطلقوا على أنفسهم اسم الموحدين، وتولى قيادة جيوشهم عبد المؤمن بن علي الكومي الذي استطاع الاستيلاء على كثير من مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرهما.

ولما قويت شوكتهم وتولى الموحدون أمور المغرب والأندلس[5]، وبدأ الناس ينصاعون لأمرهم، ويبايعون جماعات وفرادى، وتساقطت المدن تحت وطأة جنودهم الواحدة تلو الأخرى،

---

(1)- المصدر السابق – ص 10.

(2)- المصدر نفسه – ص 10-11.

(3)- المصدر نفسه – ص 11.

(4)- العبادي، أحمد مختار – في تاريخ المغرب والأندلس – مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية – مصر – 2003 – ص 327.

(5)- عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي – الغنية – تحقيق : ماهر زهير جرار – دار المغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – ط 1 – 1402 هـ / 1982 م – المقدمة – ص 07.

" رأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظا على الأعراض والأموال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل، وقبل أمير الموحدين تلك البيعة الاضطرارية"[1].

ومن المؤرخين من اعتبر القاضي عياض واليا على سبتة، في تلك الفترة كالدكتور سعدون نصر الله في كتابه "تاريخ العرب السياسي في المغرب" إذ يقول في حديثه عن الموحدين على مدن الدولة المرابطية: " ثم حاصر مدينة سبتة فامتنعت عليه وقد دافع عنها واليها القاضي عياض بن موسى"[2].

والواقع أن القاضي عياض إنما كان قاضيا لسبتة وليس واليا عليها، لكن كان له الرأي والمشورة والسمع من أهل سبتة، ولهذا كانت مبايعته لأمير الموحدين ملزمة بشكل أو بآخر لأهل سبتة، ولذلك حرص أمير الموحدين على الحصول على مبايعة القاضي عياض له، و قد كان ذلك.

يقول ابنه محمد في "التعريف": "ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين، فأقره أمير المؤمنين أدام الله نصره على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه"[3].

وهذا يشير صراحة إلى أن الموحدين أبقوا عياضا في منصبه قاضيا على سبتة وأقروه فيه، لكن سرعان ما ثار أهل مناطق كثيرة من المغرب على عبد المؤمن أمير الموحدين، وذلك بسبب قيام إبن هود ضدهم، وما نشأ عن ذلك من فتن؛ " انتفض أهل سبتة أيضا وكان انتفاضهم برأي القاضي عياض – رحمه الله –"[4].

فسارع عبد المؤمن بن علي إلى نزال أهل سبتة، فامتنعت عنه مدة، ثم دخلها وأخمد الثورة؛ وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم، وعفا عنهم وعن القاضي عياض، وأمره بسكنى مراكش، كما أمر بهدم سور سبتة فهُدم.

وفي ذلك يقول ابنه محمد في "التعريف": "وانصرف على أحسن حال، إلى أن ثارت الفتنة وقام البلد، والله يعلم أن ذلك كان غير رضى منه، كراهة في الفتنة الدنيوية والأخروية، وبقي يدبر

---

(1)– الصلابي، علي محمد – صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي – دار الإيمان الإسكندرية – مصر– 2003 – ص 414- 415.
(2)– نصر الله، سعدون عباس– تاريخ العرب السياسي في المغرب – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ط 1 – 2003 – ص 291.
(3)– أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 11-12.
(4)– السلاوي، أحمد بن خالد الناصري – كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق: أحمد الناصري – منشورات وزارة الثقافة والاتصال- المغرب – 2001- ج3 – ص 59.

أمره، ويسوس أهله دون تعاط إلى الإمرة في قول أو فعل ... واشتد الحصار بالبلد، فسعى في استعطاف الموحدين – أدام الله أمرهم – وتلطف في استلطافهم والاعتذار عن الكائنة إلى أن عفوا عما كان وأخذوا بالصفح والغفران فملكوا البلد"[1].

وانصرف القاضي عياض إلى مراكش وسكنها إلى أن وافته منيته.

3- وفاته:

ادّعى بعض المؤلفين أن القاضي عياض صاحب "الشفا في حقوق المصطفى – صلى الله عليه وسلم-" قد مات موتة غير طبيعية[2].

بل وتضاربت بعض الروايات في ذلك وهي كلها مما لا يثبت، وليس له معتمد أو بينة ومن ذلك:

قول الزركلي في "الأعلام": "وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمَّه يهودي"[3].

وأيضا قول الذهبي: " قلت: بلغني أنه قتل بالرماح لكونه أنكر عصمة ابن تومرت"[4].

فهذه الأخبار، إنما يدحضها اتفاق المؤرخين لحياة القاضي عياض، والمترجمين له وعلى رأسهم ابنه أبو عبد الله محمد بن عياض الذي أورد في كتابه "التعريف بالقاضي عياض" في معرض حديثه عن رحلة والده عند اجتماعه بأمير الموحدين "وخرج صحبته، فمرض بعد مسير مرحلة، فأذن له في الرجوع، فرجع إلى الحضرة، فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام، ثم مات - عفا الله عنه – ليلة الجمعة – نصف الليل – التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة، ودفن بها في باب أَيْلان داخل السُّور قدس الله روحه، ونوَّر ضريحه"[5].

([1])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 12

([2])- الخراشي، سليمان بن صالح – قصص لا تثبت – دار الصميعي – الرياض – المملكة العربية السعودية – ط 1 – 1420 هـ / 1999 م – ج 6 – ص 57.

([3])- الزركلي، خير الدين – الأعلام - قاموس تراجم – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان - ط 15- 2002- ج 5- ص 99.

([4])- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان – سير أعلام النبلاء – تحقيق: شعيب الأرناؤوط – محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – ط 1- 1405 هـ / 1985 م – ج 20- ص 217. وأيضا محمد حسن عقيل موسى: نزهة الفضلاء – تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي – دار الأندلس – جدة – المملكة العربية السعودية – 1991- ج3- ص 1415.

([5])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 13.

فالاتفاق قائم إذن على أن القاضي عياض – رحمه الله – توفي بمراكش على وجه التحديد ليلة الجمعة التاسع من جمادى الثانية من العام 544 هـــ الموافق لـــ 1149 م، ودفن بها بباب أَيْلان داخل مدينة مراكش.

4- شخصيتـــه وثقافتـــه:

لقد هيأ الله تعالى القاضي عياض بملكة ذهنية نادرة قوامها الذكاء الحاد وسرعـــة الاستيعاب لِمَا يَقرأ، الأمر الذي جعل سمة الذكاء ملازمـــة له، ولذلك تعاور في وصفه بها المترجمون لـــه.

فوصفه الصفدي بقوله: "وهو من أهل التفنن والذكاء واليقظة والفهم"[1].

ويعد من أعظم رجالات العلم وحملته في الأندلس، وأشهرهم ذكاءً ومعرفة وفهما ومقدرة[2].

وقد ازدحم الطلاب ورواد العلم والمعرفة على القاضي عياض الذي كان مضطلعا في جملة من العلوم كالحديث وعلومه والنحو واللغة والأدب والتأريخ والأنساب ... وغيرهـــا.

كما وصفه النُّبَاهي بأنه: "من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقضة والفهم"[3].

ويقول عنه الفتح بن خاقان في "القلائد": "جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالي وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حِيام، وجلاّ من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور... فَبَذَّ على فتائه الكهول سكونا وحلما، وسبقهم معرفة وعلما وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله سري الرياح، فتشوفت لعلاه الأقطار وكفت تحكى نداه الأمطار"[4].

([1])- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك – كتاب الوافي بالوفيات – تحقيق: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ط 1- 1422 هـــ / 2001 م – ج 23 – ص 122.

([2])- الجبوري، كامل سليمان – معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002 م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1424 هـــ / 2003 م- ج 4 – ص 372-373.

([3])- النُّباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي – تاريخ قضاة الأندلس – تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة – دار الأفاق الجديدة – بيروت – لبنان – ط 5- 1403 هـــ / 1983 م – ص 101.

([4])- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي – قلائد العقيان – تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر– 1990 – ص 539.

هذا قول الفتح بن خاقان في القاضي عياض، الذي أقام عليه في يوم من الأيام حدّ شرب الخمر، إذ كان القاضي عياض شديدا في تعظيم الشريعة والذب عن حرمها، بحيث أن الفتح ابن خاقان الكاتب المشهور صاحب قلائد العقيان دخل عليه يوما وهو بمحكمته، فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوها، فغضب عليه، وجرده من ثيابه وحدّه الحد الشرعي، ولم تأخذه في الله لومة لائم ... وخرج الفتح من عنده ثائرا حنقًا وهمّ أن يحذف ذكره من قلائده، فقيل له أن ذلك يكون أدعى لاشتهار القضية وظهورها فعدل عن ذلك[1].

ولو أقدم الفتح على ذلك لغابت ترجمة القاضي عياض من قلائده ولكان سبب ذلك راجعا "إلى التنافس الذي كثيرا ما يحتدم بين المتعاصرين من الذين يتعاطون مهنة واحدة فتتولد عن ذلك غيرة – ليست نادرة في ميدان الأدب على كل حال – ينتقم الأديب بواسطتها من خصمه وتحرم الأجيال من معرفة المبدعين، ونحن نجد عند ابن خاقان بالذات مثلا واضحا على هذا السلوك"[2].

لكن القاضي عياض الأديب بعد أن خرج الفتح من عنده أَتْبَعَهُ بِصِلَةٍ سُنِّيةٍ، إبقاءً على وُدِّهِ، واسترضاءً لخاطره، وضربا للمثل في أن التمسك بقواعد الإسلام وحفظ حدوده لا ينافي الأريحية الأدبية ولا يذهب بظرف الأديب ورقة حاشيته رحمه الله[3].

ولقد عاش القاضي عياض الشطر الأكبر من حياته في ظل دولة المرابطين، التي كانت تدعم المذهب المالكي، وتكرم علمائه، وتوليهم مناصب القيادة والتوجيه، "فحاز فقهاء المالكية بذلك تقدما عظيما ومترلة رفيعة عند الأمراء وغيرهم من أتباع هذه الدولة ... ودان أهل المغرب يومئذ بتكفير كل من ظهر عليه الخوض في شيء من علم الكلام"[4].

وقد اشتد تعلق أمراء هذه الدولة بعلماء الدين حتى كان بلاطهم لا يخلو من عالم أو فقيه أو أديب.

([1])- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 112- بتصرف.

([2])- ابن محمد، علي – ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر– 1989 – ص 22.

([3])- كنون ، عبد الله – النبوغ المغربي في الأدب العربي – مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان – ط 2 – 1975 - ج 1 – ص 89.

([4])- الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد – تاريخ الجزائر العام – دار الثقافة – بيروت – لبنان – ج 1 – ص311 -312.

" وكان لمنصب القاضي أهمية كبيرة في عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه، كان يعينهم من كبار العلماء دون الاستناد على العصبية القبلية – كما في تعيين الولاة – ... وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة منه في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام وقد منحهم رتبة عالية في الدولـــة ... وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحكام المحليين"[1]؛ وقد كان القضاة يشاركون في الحياة العامة وحتى في الجهاد، إذ شاركوا في معارك الأندلس، واستشهد بعضهم في هذه المعارك.

"وكانت للفقهاء دائما سلطة شعبية عظيمة، ولهذا كان في إمكانهم دائما أن يثيروا سخط الجماهير على من يحاول التهتك الساخر من الأدباء وكذلك ضد كل من يحاول أن يظهر أفكاره من الفلاسفة"[2].

وقد أجرى خلفاء وأمراء المرابطين الأرزاق على القضاة والفقهاء، وجالسوهم وقربوهم منهم، وكان القاضي في عهد المرابطين يحكم وفق الشرع، فلم يكن عليه سلطان لغير شريعة الله لا يخالفها ولا يخرج عليها.

"ومن هنا ارتفع شأن القضاة وزاد قدرهم، وعظم سلطانهم والتف الناس حولهم، بل إن القاضي كان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤون المدينة"[3].

كما كان لهم الأمر والنهي في القضايا العلمية والفكرية، فقد قرر الفقهاء والقضاة بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين تقبيح الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيهما وكراهية السلف لهما وهجروا كل من ظهر عليه شيء من ذلك.

"كما نجد الفقهاء أنفسهم أكثر تشبثا والتزاما وأحيانا تزمتا في الحياة الدينية من زملائهم في المشرق الذين كانوا أكثر تسامحا في الدين بوجه عام، وأقل سخطا على اللهو والمجون"[4].

([1])- نصر الله، سعدون عباس – دولة المرابطين في المغرب والأندلس – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ط 1 – 1405 هـ / 1985 م – ص 166.

([2])- شريط، عبد الله – تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ط3 – 1983 م – ص 148.

([3])- الغنيمي، عبد الفتاح مقلد – موسوعة تاريخ المغرب العربي – مكتبة مدبولي – القاهرة – مصر – ط1 – 1414 هـ / 1994 م – مجلد 2 - ج3- ص 183.

([4])- كرُّو، أبو القاسم محمد / عبد الله شريط – عصر القيروان – دار المغرب العربي تونس – ط 1 – 1973 – ص 58.

ومما تناقله الرواة أن القاضي عياض كان من بين الفقهاء الذين أمروا بإحراق كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي "وأنه ظفر بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها، وأنهم هددوا كل من وجدت عنده من الخاصة والعامة بسفك دمه ومصادرة أمواله"[1].

غير أن هذه الرواية يفندها ما أورده أبو عبد الله محمد بن عياض في "التعريف" إذ يقول: "وأخبرني ابن عمي أبو عبد الله الزاهد – رحمة الله عليه – قال لي: تذاكر يوما عمي – يريد أبي رضي الله عنه – مع شيخه أبي محمد ابن منصور (ت 513 هـ) كتاب الإحياء فقال أبي – رحمة الله عليه – : لو اختُصِر هذا الكتاب، واقتُصِر على مافيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا، فقال له أبو محمد بن منصور: فاختصره إذاً ..."[2].

وهذا فيه دحض واضح ورد كاف على الزعم القائم بأن القاضي عياض أمر بإحراق كتاب "الإحياء" لأبي حامد الغزالي، إذ أنه لو كان الأمر كذلك لما دعا إلى اختصاره حتى يكون أنفع وأفيد، والاختصار كما هو معلوم، ليس تنقيحا ولاتمحيصا ولا تصحيحا وإنما هو نقل من الطـــول إلى القِصــــر.

وقد كان القاضي عياض في علم الحديث الفذ في الحفظ والرواية والدراية، والعارف بطرقه، الحافظ لرجاله، البصير بحالهم، ولكي ينال هذه المكانة المرموقة كان سعيه الحثيث في سماع الحديث من رجاله المعروفين والرحلة في طلبه، حتى تحقق له من علوم الإسناد والضبط والإتقان ما لم يتحقق إلا للجهابذة من المحدثين، وكان منهجه في الرواية يقوم على التحقيق والتدقيق وتوثيق المتن، وهو يَعُدُّ النقل والرواية النقل والرواية الأصل في إثبات صحة الحديث، وتشدد في قضيـــة النقـــد لمتن الحديث و لفظه، وتأويل لفظه أو روايته بالمعنى، وما يجره ذلك من أبواب الخلاف.

" فقد كان من أكابر الحفاظ، ومن أقدر أئمة عصره على تمييز صحيح الأحاديث من منتحلها"[3].

---

(1)- الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد – تاريخ الجزائر العام – ج 1 – ص 312.

(2)- أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 106.

(3)- علام، عبد الله علي – الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي – دار المعارف – القاهرة – مصر– 1971– ص 301.

وطالب المحدِّثَ أن ينقل الحديث مثلما سمعه ورواه، وأنه إذا انتقد ما سمعه فإنه يجب عليه إيراد ماسمعه مع التنبيه على ما فيه، أي أنه يروي الحديث كما سمعه مع بيان ما يَعِنُّ له من تصويب فيه، دون قطع برأي يؤدي إلى الجرأة بالحديث، ويفتح بابا للتهجم قد يحمل صاحبه على التعبير والتصرف في الحديث بالرأي.

"وقد جمع من الحديث كثيرًا، وكان له عناية كثيرة به والاهتمام بجمعه وتقييده"[(1)].

كما درس القاضي عياض على شيوخه بسبتة "المدونة" لابن سحنون وهي مؤلَّف يدور عليه الفقه المالكي ويعد مرجعه الأول بلا منازع؟، وقد كُتبت عليه الشروح والمختصرات والحواشي غير أن المدونة لم تكن حسنة التبويب، فنهض إلى عمل عظيم فحرر رواياتها، وسمى رواتها، وشرح غامضها وضبط ألفاظها، وهذا العمل يعد خطوة مهمة في سبيل ضبط المذهب المالكي وازدهاره.

كما ولـــج القاضي عياض ميدان التاريخ من باب الفقه والحديث من خلال الترجمـــة لرجـــال المذهب المالكي، ورواة الموطأ وعلمائه، إضافة إلى شيوخه الذين تتلمذ عليهم وسمـــع منهـــم.

فقد كان حافظ عصره في علوم الدين وقاضي المغرب الأجل، ومرجعه الأكبر[(2)].

فهو كان إمام وقته في " الحديث وعلومه،عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم، وأشيائهم، كاتبا، شاعرا مجيدا، ريان من علم الأدب، خطيبا بليغا ..."[(3)].

وكانت النهضة الأدبية قد وصلت إلى أوج عظمتها وعزِّ مجدها في عهد دولة المرابطين، فقد استطاع الأدب في هذا العصر أن ينمو ويترعرع وينسلخ من التبعية الشرقية التي كانت تلاحقه على مر القرون السالفة.

([1])- ابن ابراهيم، العباس - الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام – تحقيق: عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية – الرباط – المغرب – 1400 هـ / 1980 م – ج 09 – ص 332.

([2])- الطباع، عبد الله أنيس – القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية – دار ابن زيدون – بيروت – لبنان – ط1- 1406 هـ / 1986 م – ص 208.

([3])- بونار، رابح – المغرب العربي تاريخه وثقافته – دار الهدى – عين مليلة – الجزائر – ط 3- 2000- ص 236.

وبِرُّ المرابطين بالأدب وأهله هو دليل واضح وبرهان ساطع لمدى التذوق الأدبي الذي كانوا يتمتعون به، وإحساسهم الفني الذي يقيّمون بواسطته عبقرية أدبائهم الأفذاذ.

وكانت الخلافة المرابطية مألف أهل الأدب ومعقد آمالهم المغاربة منهم والأندلسيون.

ويطول الأمر لو أردنا تتبع كل من أوى إلى ظل المرابطين من رجال الأدب فشملوه هم برعايتهم، وأحاطوه بعنايتهم، وكان في ذلك تشجيع للحركة الأدبية وضمان لازدهارها.

ولا يقتصر البر بالأدب وأهله في هذا العصر على المرابطين من ملوك وأمراء، بل إن غيرهم من الولاة كانوا كذلك يشجعون الأدب ويظهرون مزيد العناية بأهله، وكما يقال الناس على دين ملوكهم.

وقد عُرف القاضي عياض كعالم، ولم يعرف كأديب، فقد طغت شهرته العلمية على شهرته الأدبية فأصبحت نِسيا منسيا[1].

والمعروف عن القاضي عياض أن له ثقافة لغوية متمكنة وبصر بالعربية وفنونها، كما أنه كان "كبير الشأن، غزير البيان"[2].

ولم يكن ذلك غريبا عليه، فقد كان حريصا على دراسة كتب اللغة والأدب حرصه على تلقي الحديث والفقه، فقرأ أمهات كتب الأدب ورواها بالإسناد عن شيوخه مثلما فعل مع كتب الحديث والآثار، فدرس "الكامل" للمبرد، و"أدب الكاتب" لابن قتيبة، و"إصلاح المنطق" لابن السكِّيت، و"ديوان الحماسة" و"الأمالي" لأبي علي القالي ، وغيرها .

وكان لهذه الدراسة أثرها فيما كتب وأنشأ،وانطبعت في أسلوبه.

وكما تمت الإشارة إليه فإن شهرته الأدبية تكاد تنسى، إذ أن كلَّ ما "يذكره المترجمون له من أدبه أبياتا لاتتعدى العشرة تعاورها كثير ممن ترجم له، مع أننا نجد للقاضي من جيد المنثور والمنظوم مايجعله شخصية أدبية ذات طابع خاص تستحق الدراسة من هذه الناحية"[1].

([1])- الترابي، البشير علي حَمَد – القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية – دار ابن حزم – بيروت – لبنان – ط1 – 1418 هـ / 1997 م – ص 176.

([2])-الأصفهاني، أبو محمد صفي الدين عبد الله بن محمد العماد الكاتب – خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء المغرب والأندلس – تحقيق: أذرتاش أذرنوش – الدار التونسية للنشر – تونس – 1972 م - ج 3- ص 501.

وإن نثره كان من التنوع إذ شمل الخطب والرسائل والتراجم، إضافة إلى مقدمات كتبه التي تعتبر قطعا نثرية نفيسة تعبر عن روح أدب صاحبها.

5- مؤلفـــاتـــه:

للقاضي عياض التصانيف البديعة، فقد كان موسوعة في المعارف الإسلامية كلها، بل والعربية، فهو المحدث الراوي، وهو الفقيه القاضي، وهو المؤرخ، والشاعر، والناثر، والخطيب.

"وهذا كله لا يستغرب منه، فقد كانت هناك المؤهلات والظروف التي هيأها الله لتجعل من القاضي عياض شخصية فذة"[2].

وقد كانت أوقاته: "موزعة على ثلاثة أعمال رئيسيـــة: القضاء، والتأليف والإقراء لمـــا يؤلفـــه ..."[3].

غير أن الذي أذاع شهرته، وخلَّد ذكره هو مصنفاته التي بوأته مكانة رفيعة بين كبارالأئمة في التاريخ الإسلامي، فمؤلفاته تشهد على سعة العلم وإتقان الحفظ، وجودة الفكر، والتبحر في فنون مختلفة من العلم.

وفيمايلي جرد بمؤلفات القاضي عياض [*] المطبوع منها، والمخطوط، والمفقود الذي ذُكر في الآثار لكن لم يعثر عليه الباحثون والدراسون والمحققون:

أ-**المطبـــوع**:

1- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

2- الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

3- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.

([1])- الترابي، البشير علي محمد – القاضي عياض وجهودهفي علمي الحديث رواية ودراية – ص 176.

([2])- المرجع نفسه – ص 152 .

([3])- آل سلمان، أبو عبيدة مشهور بن حسن – عالم المغرب القاضي عياض وكتابه "مشارق الأنوار على صحاح الأثار" – مجلة الأصالة – مكتبة ابن تيمية – القاهرة – مصر- السنة الرابعة – العدد 19 - 15 ذو القعدة 1419 هـــ - ص 53.

([*]) - نقلا عن: مقدمة "كتاب الشفـــا بتعريف حقـــــوق المصطفـــى – صلى الله عليه وسلم – " للقاضي عياض اليحصبي – تحقيـــق: هيثم الطعيمي و نجيب ماجدي – دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء – المغـــرب – ط 1 – 1422 هـــ / 2001 م – ص 09 - 10 .

4- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.

5- مشارق الأنوار على صحاح الآثار.

6- الغنية (في شيوخه).

7- الشفا بتعريف حقوق المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

8- إكمال المعلم بفوائد مسلم(*).

ب- المخطــوط:

1- التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة (في ضبط المدونة).

2- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام (بدأه القاضي عياض وأكمله ولده محمد تأليفا وترتيبا).

3-المعجم في شيوخ ابن سكره.

4-الفنون الستة في أخبار سبتة.

ج- المفقــود:

1- خطب عياض(**).

2- الأجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة.

3- أجوبة القرطبيين.

4- أخبار القرطبيين.

5- جامع التاريخ.

6- جمهرة رواة مالك.

7- كتاب اختصار شرف المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

8- كتاب العقيدة.

(*)- ذكره المحققان في المخطوط إلا أنه في الواقع مطبوع ، إذ طبعته دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة – مصر - الطبعة الأولى – سنة 1419 هـــ / 1998 م - بتحقيق: د- يحيى إسماعيل في تسعة أجزاء.

(**)- قيده المحققان ضمن الآثار المخطوطة والمفقودة أيضا، غير أن الأصح أنه من آثار القاضي عياض المفقودة؛ يُنظر: عبد السلام شقور "القاضي عياض الأديب" – ص 112، البشير علي محمد الترابي – القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية – ص 167.

9- مطالع الأفهام في شرح الأحكام.

10- المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان.

11- مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور.

12- نظم البرهان على صحة جزم الأذان.

13- نوازل الحضانة.

14- غريب الشهاب.

15- غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل.

16- سؤالات وترسيل.

17- سر السراة في أدب القضاء.

18- السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم).

الفصـــل الأول

الـــخُـطـــــــب

I- تعريف الخطابة وأنواعها

II- الخطابة عند القاضي عياض

III- نماذج من خطب القاضي عياض

IV- البناء و التشكيل الفني

أولا : الهيكل العام

ثانيا : القضايا الفكرية

ثالثا : الخصائص الفنية

I- تعريف الخطابة وأنواعها:

1- تعريف الخطابة:

أ- لغة : ترجع الخطابة في اشتقاقها اللغوي إلى لفظة "خطب" وقد تمت الإشارة إليها في الفصل التمهيدي عند التعرض لمصطلح " الخطاب " ، وإن "الخطب"، هو الشأن والأمر، صغر أو عظم، وجمعه خطوب.

جاء في مختار الصحاح:" الخطب ": سبب الأمر، تقول: ما خطبك؟... أي ما أمرك؟ وتقول هذا خطب جليل، وخطب يسير وجمعه (خطوب)... وخاطبه بالكلام (مخاطبة) و(خطابا) و(خَطَب) على المنبر (خطبة بضم الخاء، و(خَطَابة))، و(خَطَب) المرأة في النكاح (خطبة)، بكسر الخاء...و(خَطُب) من باب ظَرُف صار خطيبا..." [1]

يقول ابن منظور: "والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب، يخطُب، خطابة، واسم الكلام الخُطبة...الخُطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب..." [2]

فمشتقات المادة تتناول التواصل بين القائل الذي هو الخطيب (المرسل) والسامع الذي هو الجماعة (المرسل إليه).

يقول الزمخشري "خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام ."[3]

ومن هنا يكون جوهر الخطبة يتمثل على حضور المرسل إليه لحظة إلقاء المرسل (الخطيب) خطبته.

ب- اصطلاحا: الخُطبة جمعها خُطب وفنها الخَطابة، وهي من الأجناس النثرية التي عرفها الإنسان منذ العصور القديمة باعتبارها فن "التأثير بالبيان"[4].

"ولذلك لم يـــخل من الخطابة سجل أمة وعيَ التأريخ ماضيها فقد حفظها خط آشور المسماري ، وقيدها خط الفراعنة الهيروغليفي ورواها تأريخ اليونان الأدبي و السياسي منذ القرن

---

[1]- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر- مختار الصحاح – ضبط وتخريج وتعليق : د، مصطفى ديب البُغـــا – دار الهدى للطباعة النشر- عـــين مليلة - الجزائر – ط4 - 1990- ص 123.

[2]- ابن منظور، لسان العرب- مجلد1- مادة "خطب"- ص361.

[3]- الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر-أساس البلاغة - ص 112.

[4]- التهانوي، محمد علي- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم- ترجمة :عبد لله الخالدي- تحقيق: علي دحروج- مكتبة لبنـــان ناشـــرون – بيروت - لبنان- ط1- 1996 -ج1- ص 750.

السابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه، بها أذاع الدينَ أنبياءُ بني إسرائيل، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام ، وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص"[1]

وقد كان للحضارة العربية نصيب وافر من هذا الفن النثري فالخطابة هي من "الفنون الأدبية التي عرفها المجتمع العربي في عهد مبكر من حياته كشعوب الدنيا وعرفت ازدهارا كبيرا في العهد الإسلامي لوجود أسباب وعوامل داعية إلى انتشارها وسيادتها ، وتعدد موضوعاتها ومواطنها"[2] بل هي "من أقدم الفنون النثرية عند العرب، وتدل على القدرة على الارتجال التي امتاز بها العرب، وتؤكد ما اشتهر به العرب من فصاحة وبلاغة".[3]

وعُرّفت الخطابة بتعاريف كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض كثيرا ، ولكن منها ما ليس جامعا مانعا كما يقول المنطقيون ، فبعضها ليس جامعا لكل أنواع الخطابة وجزئياتها، وبعضها الآخر ليس مانعا من دخول أشياء أخرى معها مثل الوصايا و الرسائل و الدروس .

وقد عرّف أرسطوا الخطابة بقوله: "فالريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[4]

" و الريطورية هي الخطابة باللاتينية (Ars Ortoria) و بالفرنسية (Art oratoire)"[5]

فالخطبة عنده هي الحديث المقنع، الذي يسعى لإثبات صحة الفكرة التي يدعو إليها بناء على جملة من الأدلة والحجج والبراهين.

وقد علق ابن رشد على تعريف أرسطو:"ويعني بـــ "القوة": الصناعة التي تفعل في المتقابلين، وليس يتبع غايتها فعلها ضرورة، ويعني بـــ"تتكلف": أن تبذل مجهودها في استقصاء فعل الإقناع الممكن، ويعني بـــ "الممكن": الإقناع الممكن في ذلك الشيء الذي فيه القول، وذلك يكون بغاية ما يمكن فيه"[6]

فأرسطو قد عرف الخطابة انطلاقا من العناصر والسمات والقواعد التي يجب على الخطيب أن يلتزمها أثناء إلقائه خطبته أمام الجمهور.

---

[1]- كارنيجي، ديل- فن الخطابة - الأهلية للنشر والتوزيع – عمان – الأردن - ط1-2001- ص07.

[2]- دحو، العربي- مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم - دار الشهاب- باتنة - الجزائر- 1406هـ - 1986 م- ص92.

[3]- ركيبي، عبد الله - تطور النثر الجزائري الحديث - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر- ط2-1983 م- ص13.

[4]- أرسطو، طاليس- الخطابة- الترجمة العربية القديمة- تحقيق: عبد الرحمن بدوي - دار القلم- بيروت- لبنان- 1979 – ص09.

[5]- سعد، فاروق- فن الإلقاء العربي- الخطابي والقضائي والتمثيلي- شركة الحلبي للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان- ط2-1999-ص46.

[6]- ابن رشد ، أبو الوليد محمد- تلخيص الخطابة - تحقيق: عبد الرحمن بدوي - دار القلم-بيروت-لبنان- ص15.

أما تعريفات النقاد العرب للخطابة فإنها تنوعت أيضا واختلفت، و أوضح وأدق تعريف عُرّفت به الخطابة هي أنها " فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة"[1]

في حين يرى أحمد الحوفي أنها: " فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته"[2] .

وهذان التعريفان يقومان على عناصر معينة هي:

– المشافهة وهذا ما اشترطه احمد الحوفي ، وإلا كانت كتابة.

– وجود جمهور يستمع ، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية أو رسالة ، فلا بد أن يكون الحديث مخاطبةً لـــجمهور من الناس، أما شرح المعنى ، أو الفكرة بصوت هادئ وطريقة مألوفة في كل الأحاديث لفرد أو اثنتين فإنه ليس بخطبة ولا يحتاج إلى أسلوب خطابي.

– أن يكون بطريقة إلقائية ، وهذا يعني استعمال لهجة وأسلوب خطابين و انفعال الخطيب مع المعاني التي تتضمنها الخطبة.

– ثم لابد من الإقناع، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده، ويكون الحديث مقنعا حين يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التي يدعوا إليها الحديث، فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة والحجج ، فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأي ، وهي تكون فاشلة لأنها لا تؤدي إلى الغرض الذي قيلت من أجله.

– وأخيرا لا بد من الاستمالة والتي تعني تأجيج عواطف المستمعين، وتوجيهها واستجابتها للرأي الذي تدعو إليه الخطبة، لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما، ولكن لا يعنيه أن ينفذها أو أن تتحقق من غيره، فلا يسعى لتحقيقها ، فإذا تعاطف معها وهاجت نفسه، فإن الخطيب يقبض على زمامها ويتصرف بها كيف يشاء، سارا أو محزنا، مضحكا أو مبكيا، داعيا إلى الثورة أو إلى السكينة. وهذا العنصر من أهم عناصر الخطبة لأنه هو الذي يحقق الغرض المطلوب منها.

" لذلك فالخطابة هي الفن الكلامي الذي يعد أقرب الفنون لقوة الإرادة وألصقها بها، لأن الإقناع والتأثير الذين يعتمد عليهما الخطيب يعملان عملهما في تفكير الجمهور وعواطفه، ويدفعان الإرادة إلى العمل الحاسم، ومن هذه الوجهة صارت الخطابة فنا عمليا".[3]

فالخطابة إذن فن من فنون القول النثرية تـــهدف إلى استمالة السامعين وإقناعهم برأي من الآراء أو فكرة من الأفكار اعتمادا على أدلة و براهين وحجج منطقية ، ولهذا اعتبر أرسطو " أن

---

[1]– شلبي، عبده عبد الجليل– الخطابة وإعداد الخطيب – دار الشروق – القاهرة– مصر/ بيروت– لبنان– ط2–1407هـــ/1986م–ص13.

[2]– الحوفي، أحمد محمد – فن الخطابة – دار نهضة مصر– القاهرة– مصر–2003م– ص05.

[3]– درويش، محمد طاهر– الخطابة في صدر الإسلام –دار المعارف –القاهرة– مصر – ط2 – 1968 م – ج1– ص01.

المنطق الأكاديـــمي الــمقنن هو الأساس الــمتين والصحيح لــخطابة مؤثرة وأمينة في الوقت نفسه".[1]

فالخطابة إذن من غير شك " رسالة نبيلة، ومهمة عظمى، وبخاصة في الجماعات التي تتأثر بــها، وتستجيب لها، وتقبل عليها، وتقدرها حق قدرها".[2]

وقد تطورت الخطابة العربية ونمت كبقية الفنون الأدبية المعروفة، لأنها " فن أصيل عند العرب أصالة الفصاحة والبيان عندهم، وهي صنو للمناظرات والــمنافرات، وكانت جزءا من حياتهم قبل الإسلام وبعده ".[3]

وظل للخطابة تاريخها الناصع وأسلوبــها الساحر ومنطقها الصادق، وميدانـــها العظيم.

غير أن ازدهار الخطابة العربية يردّه بعض النقاد بالدرجة الأولى إلى عوامل دينية، إذ أنه "وبعد ظهور الإسلام وتضييقه الخناق على الشعر والسجع ، برز فن الخطابة بوضوح".[4]

وهذا الرأي فيه كثير من الإجحاف، إذ أن جل الشعراء استمروا في قول الشعر بعد الإسلام ، فالإسلام كما هو معلوم لم يحرم الشعر و لم يحارب الشعراء و إنماهذب أشعارهم وقومها، فازدهار الخطابة بمجيء الإسلام مردّه إذن إلى عوامل عديدة ترجع أساسا لتعدد مناسباتـــها، وتنوع أغراضها وموضوعاتـــها في الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية.

2- أنواع الخطابة:

إذا كانت الخطبة تهدف إلى إقناع السامعين والتأثير في سلوكهم وعقولهم وعواطفهم، وتتعرض لموضوعات شتى يتناولها الخطيب حسب ما يمليه مقتضى الحال وما تتطلبه الظروف السياسية والاجتماعية والدينية.[5]

فإن الخطب تتنوع بحسب ضرورات الحياة ومجالاتها، ولهذا " لم يعرف الجاهليون من ضروب الخطابة إلا ما اقتضته بيئتهم وحياتهم العامة، فكل هذه الضروب تتصل بالحياة القبلية التي كانت سائدة إذ ذاك وتلائم حياة العرب العقلية والسياسية والاجتماعية في ذلك العصر".[6]

---

[1]- راغب، نبيل- دليل الناقد الأدبي- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة- مصر - 1998 م- ص78.

[2]- أبو الخشب، إبراهيم علي- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني- الهيئة المصرية العامة للكتاب- فرع الإسكندرية- مصر-ص390.

[3]- الشكعة ، مصطفى- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية - كتاب النثر- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- مصر- ط3-1426هـــ/2005م- ص41.

[4]- سلام ، محمد زغلول- النقد الأدبي الحديث - أصوله واتجاهات رواده - ص102.

[5]- زمري ، محمد- الأعلام المغاربية في مصنفات المشارقة - دار الغرب للنشر والتوزيع- وهران- الجزائر-2004 - ص157- بتصرف.

[6]- النص، إحسان - الخطابة العربية في عصرها الذهبي- دار المعارف- القاهرة- مصر- ط2- 1969م- ص09.

فكانت خطبهم في المنافرات والمفاخرات، وكذا الحض على القتال أو على الأخذ بالثأر، إضافة إلى خطب إصلاح ذات البين ، وخطب الإملاك والتزويج وخطب المحافل والوفود وغيرها من الأغراض التي توزعت عليها موضوعات الخطابة في الجاهلية.

وبالرغم من تعدد الأغراض والموضوعات، فلم تكن الخطبة تتناول منها إلا موضوعا واحدا، وهو في أغلب الأحوال موضوع اجتماعي يتصل اتصالا وثيقا بالحياة الاجتماعية للعرب.

فلما جاء الإسلام شهد عصره " زوالا لبعض ضروب الخطابة التي كانت سائدة في الجاهلية كالمنافرات والمفاخرات المتصلة بحياة العرب الجاهلين القائمة على العصبية والحمية والتفاخر بالأحساب والأنساب ، كما شهد صدر الإسلام ظهورا لأنواع جديدة اقتضتها البيئة الإسلامية ومستجداتها الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية". [1]

وقد جرت العادة في الخطب الإسلامية أن تشتمل على البسملة والحمدلة والثناء على الله تعالى بما هو أهله والصلاة و التسليم على النبي صلى الله عليه وسلم، وتكون في أول الخطبة ، وإن خلت من هذه الديباجة ، كانت خطبة ناقصة أو بتراء .

وقد تنوعت الخطبة حسب موضوعها إلى عدة أنواع يعالج كل منها ضربا من ضروب الحياة المختلفة وأهمها :

أ- الخطبة الدينية:

وقد كان ذيوع هذه الخطبة عند العرب بعد مجيء الإسلام وهي تعتمد على عرض تعاليم الدين ، أو تُلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطب المنبرية التي تلقى في الجمع والأعياد، ويوم الحج الأكبر، وعند صلاة الاستسقاء ، وهي الشعائر الدينية التي فيها خطب، كما تشمل المواعظ والخطب التي تلقى في التجمعات الدينية المختلفة كالعزاء وغيرها...حيث تلقى خطب تستند في معانيها وأغراضها إلى الدين ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف، فهذه كلها خطب دينية. [2]

وأهمها جميعا هي خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض إذ لا تصح الصلاة إلا بها، وأهم ما تتميز به الخطبة الدينية الوعظ الديني الذي " هو الأمر بالمعروف في الدين والنهي عن المنكر فيه، وقد أجمعت عليه الشرائع واتفقت على وجوبه الأديان فعليه قد قامت الدعوة إليها". [3]

---

[1]- معاليقي، منذر- دراسات نقدية في الأدب الإسلامي- المؤسسة الحديثة للكتاب- طرابلس- لبنان- ط1- 2000 - ص87.

[2]- شلبي ، عبد الجليل عبده - الخطابة وإعداد الخطيب- ص108.

[3]- أبو زهرة، محمد- الخطابة- أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب- دار الفكر العربي- القاهرة- مصر- ط1- ص152.

وأهم الخطباء في هذا المجال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه من بعده رضي الله عنهم أجمعين.

ب-الخطبة السياسية: وهي التي تدور حول الشؤون العامة للدولة والحكم فتشمل خطب التولية والعزل ، والخطب التي تلقى في البرلمان ، وفي المؤتمرات السياسية وغيرها، سواء تعلقت بأمور خارجية كالمعاهدات أو بأمور داخلية كالتشريع ونظام الحكم والاقتصاد.

ولعل أول خطبة من هذا النوع هي خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد بيعته. [1]

غير أنه يمكن اعتبار خطب التشاور منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على أنها خطب سياسية لأنها قامت حول الحكم والسياسة، وقد جعل الإسلام الشورى أساس نظام الحكم، فلم يكن هناك بد من استماع الحاكم والمحكوم لبعضهما ومناقشة الشؤون العامة بالحجة والبرهان.

فمشاورة النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه في كل الشؤون التي عرضت لهم تعد أحسن النماذج للخطابة السياسية الإسلامية في بداياتها.

وقد ازدهر هذا النوع من الخطابة ازدهارا كبيرا بعد ظهور الأحزاب، وتنافسها على الحكم بداية من العصر الأموي و إلى أيامنا هذه.

ج- الخطبة الجهادية (الحربية) :

لطالما استمد السيف إلى مضائه قوة من الخطابة تزيده مضاء، وكثيرا ما لجأ القادة إلى الكلمة يشعلون بها الجنود حماسة إلى الاستبسال، وكثيرا ما كان الخطباء يشدون أزر الجيش المقاتل بما يلقون من خطب ، ويوقدون حماسة الشعب ليجود بالدماء والأموال. [2]

وقد احتاج العرب في الجاهلية بسبب كثرة الحروب الدائرة بينهم إلى خطب تحض أفراد القبلية على الاستبسال في مقاتلة أعدائها، والثبات في ميادين القتال، والتحلي بالشجاعة والإقدام، وترك الجبن والخوف والفرار.

وبظهور الإسلام ظهرت الحاجة إلى خطباء يحضون المسلمين بخطبهم على الجهاد في سبيل الله ويحثونهم على الشجاعة والتضحية، ويرغبونهم في قتال الكفار والمشركين في مكة وغيرها من الأقطار، وقد كانت هذه الخطب ترافق الفتوحات داعية إلى المضي في نشر الدين الإسلامي والتشرف برفع لوائه.

---

[1]- الحوفي ، أحمد محمد- فن الخطابة- ص68 – بتصرف .

[2]- المرجع السابق- ص112.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول الخطباء في هذا الـــمضمار ثم سار على سنته خلفاؤه من بعده، وكان ذلك إيذانا لقادة المسلمين باستخدام الخطابة في مجاهدة أعداء الإسلام في كل فتوحاتـــهم ومعاركهم.

كما أن ظهور الأحزاب والفرق بعد الخلافة الراشدة وتناحرها كان من أسباب انتشار هذا النوع من الخطب وذيوعه من خلال قيام خطباء الأحزاب بتأليب أنصارهم وأشياعهم على قتال المخالفين لهم .

ولئن كان للخطب السابقة (الدينية والسياسية) مجالا للتحضير والتنقيح والتروّي، فإن الخطابة الحربية أو الجهادية كثيرا ما تُستهل لوقتها إذ يفجأ الزمنُ القائدَ، أو الخطيبَ، فينتزع من بديهته الـــمسعفة خطبة مرتجلة، على أنه أحيانا يعدها لظرف يتوقعه...ولأنه لا يستطيع أن يسمع الجيش كله فقد جرت العادة أحيانا أن تكتب الخطبة وتوزع على الجند... [1]

وإن أهم غرض من الخطبة الحربية، هو إذكاء حماس الجند، وبعث العزيمة والثقة في نفوسهم، و تبشيرهم بالنصر، وتهوين الموت.

د- أنواع أخرى: إضافة إلى الأنواع الثلاثة المذكورة للخطبة (الدينية، السياسية، الحربية)، فإن من الدارسين من يُـــخرج منها أنواعا أخرى يرى أنها مستقلة بذاتـــها وخصائصها كالـــخطبة القضائية وخطبته الإملاك و النكاح، وخطب المحافل والوفود والأحلاف، وخطب الصلح، وخطب التأبين والخطب الاجتماعية وغيرها.

كما أن بعض الدارسين يعد مقدمات الـــمؤلفات والكتب خطبا ويسميها بهذا الاسم "خطبة الكتاب".

"...ثم خطبة المنابر غير خطبة الدفاتر لأن خطبة المنابر تشتمل على الوصية بالتقوى والوعظ والتذكير ونحو ذلك... إعلم أن خطبة الكتب إن ألحقت بـــها بعد تصنيفها وتأليفها بأن ألف المؤلف كتابه أولا ثم ألحقه الخطبة تسمى خطبة إلحاقية، وإن كتب أولا ثم ألف الكتاب تسمى خطبة ابتدائية". [2]

فمن الواضح إذن أنه يصعب استيعاب كل الخطب في أنواع معينة محددة وذلك راجع لتعدد موضوعات الخطابة وتشعب أغراضها وتنوع دواعيها وأسبابـــها.

---

[1]- المرجع السابق، ص112. (بتصرف)

[2]- التهاوني، محمد علي- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم- ص752. (بتصرف).

II- الخطابة عند القاضي عياض:

لقد كانت الخطابة في العصر الـــمرابطي من الأهمية بمكان وذلك راجع لأسباب استدعت وجودها وازدهارها، نظرا للمعطيات الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، حيث كان بعض المتكلمين والفلاسفة يسعون جاهدين لبثّ أفكارهم في البلاد أندلسها ومغربـــها، كما كان النصارى في الأندلس يكرون حينا ويفرون أحيانا محاولين الاستيلاء على ما أمكنهم من بلاد الأندلس، إضافة إلى ظهور أمر الـــموحدين وسعيهم لتقويض أركان الدولة الـــمرابطية وتأليب الناس عليها عن طريق الطعن في عقيدتـــها واستقامتها، وأهليتها في الحكم والقيادة.

" فهذه الظروف اقتضت وجود خطابة تذكي روح الجهاد في الحروب وتطفئ لـــهيب العصبية في السلم". [1]

إضافة إلى الحث على قيام المسلم بـــما ينفعه في حياته وآخرته، ودعوته إلى الاستقامة في السلوك الفردي والتعامل الاجتماعي.

وقد كانت موهبة الخطابة تؤهل صاحبها لأن يكون له شأنا اجتماعيا كبيرا، إذ لم يكن في مقدور كل إنسان أن يكون خطيبا وبخاصة في الخطب الدينية المنبرية أو الخطب الجهادية، فلم يكن العلم والفصاحة والبلاغة لتكفي الخطيب ليرتفع صرحه ويذيع صيته بل لابد من الصلاح والتقوى فيكون هذا أدعى إلى التأثر به و الانقياد له ، والتسليم لـــما يعتقده، والاستجابة لدعوته.

وقد نـــمت الخطابة الدينية وكثر أعلامها في العصر المرابطي حتى أصبح عدد من الخطباء يتناوبون فيما بينهم على خطب الجمع في المساجد. [2]

" وظل للخطابة الدينية ازدهارها ورجالهـــا، بل إن بعض العوامل التي وجدت في هـــذا العصر وسعت من نطاقهـــا ، و زادت في نشـــاط رجالـــها ودفعتهم إلى الإخـــلاص و التفاني في الدعوة إلى التزام الدين و الخلق و التمسك بأسس الإســـلام ومبادئـــه الصافيـــة". [3]

وعرفت الدولة المرابطية جملة من الخطباء المبرزين والمفوهين الذين احتفظت بعض المصادر بذكرهم على الرغم من ضياع أكثر آثارهم.

---

[1]- الزباخ ، مصطفى- فنون النشر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- الدار العالمية للكتاب- الدار البيضـــاء – المغـــرب/ بـــيروت- لبنـــان- ط1- 1987- ص210.

[2]- المرجع نفسه - ص211.

[3]- الشيخ ، محمد عبد الغني- النثر الفني في العصر العباسي الأول-اتجاهاته وتطوره-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائـــر-1983 م-ج1-ص36- بتصرف.

وقد كان القاضي عياض أحد أبرز خطباء هذا العصر فكان خطيبا فصيحا بليغا، ومما يؤثر عنه أنه لم يكن يـــخطب مـــما يكتبه غيره، بل كان لا يخطب إلا من إنشائه، يقول عنه ابنه محمد في" التعريف": " من أكتب أهل زمانه ، خطيبا فصيحا، حسن الإيراد، لا يخطب إلا بما يصنع".[1] بل إن خطبه كان يخطب بها غيره، وهذا إنـــما يدل على مكانتها، يقول المقري في "أزهار الرياض في أخبار عياض": "حدّث الأستاذ الفقيه النبية، الخطيب، الأريب، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الخطيب المدرس أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوهراني (ت-1013هــ)، أن والده المعروف بـــ" شقرون" المذكور، كان يخطب بخطبة عياض أبي الفضل، قال: ومن لفظه حفظتها ، و كان حفظها الوالد المذكور من خطيب كان عندهم بوهران".[2] بل هناك من الخطباء عارض خطبه، وبخاصة خطبته المشهورة التي ضمنها أســـماء سور القرآن الكريم.

إذ كانوا يتفننون في الخطب فلا يكتفون بالكلام المسجع أو المرسل، بل كانوا يضيفون إلى ذلك بعض القيود ومحاولة التأثير بها على السامعين.[3]

وللقاضي عياض خطب كثيرة تم جمعها في حياته في كتاب سمي "خطب عياض" ذكره ابنه أبو عبد الله في" التعريف" ضمن مؤلفات والده ، يقول: " وكتاب خطبه سفر".[4]

وورد أن هذه الخطب قرئت عليه (القاضي عياض)، إلا أنه للأسف لا أثر لهذا السفر الذي يضم الخطب.[5]

يقول أبو عبد الله محمد بن عياض " وخطبه – وفقكم الله- كثيرة مدونة يشتمل عليها مجلد ، قرئت عليه ، وسمعها أكثر أصحابه، وانتسخت، في الطوال منها ، ما هو أغرب مما أثبتته هنا، وإنما قصدت إلى هاتين الخطبتين لقصرهـــما، مـــخافة التطويل، وفيهما من التنبيه على ما بقي كفاية، والله الـــموفق بفضله".[6]

فهو إذن لم يذكر لوالده إلا خطبتين اثنتين، وما وصلنا من خطب عياض لا يتجاوز العشر، جمعها الأستاذ عبد السلام شقور، وأشار إلى ذلك بقوله: " لقد تـــمكنت من الحصول على عشر

---

[1]- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 4-5.

[2]- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد- أزهار الرياض في أخبار عياض – ص 79 .

[3]- سعد الله، أبو القاسم- تاريخ الجزائر الثقافي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- لبنان- ط1-1998- ج02- ص 205.

[4]- أبو عبد الله ، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص117.

[5]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب – الأدب المغرب في ظل المرابطين- ص 179- بتصرف.

[6]- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض – ص87.

خطب لعياض، و قد اعتمدت في جمعها وتحقيقها على "التعريف" و"الإحاطة" و"أزهار الرياض "وأحد المجاميع بتطوان (رقم 102) وأخيرا على المجموع الهام الذي ظهر أخيرا بمراكش".[1]

و لم تخرج خطب القاضي عياض عن نوعين اثنين أولهما الخطابة الدينية التي تقوم على الوعظ والإرشاد من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و التحذير من المبالغة و الإفراط في متع الدنيا الزائلة و التهالك في طلبها والترغيب فيما عند الله، والترهيب بالـــموت، وما بعد الموت.وثانيهما الخطابة الجهادية والتي تسمى أيضا " التحريضية " ، وهي التي تقوم على الدعوة إلى الجهاد، والحث على القتال والمواجهة والترغيب في الشجاعة والإقدام، و التحذير من الجبن والإحجام، والتبشير بالنصر أو الشهادة، وفضل صاحبهما في الدنيا والآخرة وتهوين الـــموت والتقليل من شانه.

ويبدو أن اقتصار القاضي عياض على هذين النوعين من الخطب إنما يرجع لـــمتطلبات الحياة والـــمجتمع الذي يعيش فيه، وكذا الدور المنوط به أن يقوم بآدائه في هذا الـــمجتمع، فهو القاضي الفقيه، الذي يتصدى لـــمهمة آداء الحقوق لأصحابها و إقامة العدل بين الـــمتخاصمين، وإظهار العلم ونشره بين الناس، إضافة إلى كونه أحد أعيان مدينته " سبتة " ، و التي تعرضت للغزو من قبل الـــموحدين في بدايات دولتهم ،وقد أشرنا سابقا إلى أن سكان " سبتة " قد انتفضوا على الـــموحدين برأي القاضي عياض وهذا من دواعي ومتطلبات الخطبة الجهادية أو التحريضية، كما أن القضاة والفقهاء كانوا في الصفوف الأولى خلال معارك الجهاد ضد النصارى الذين كانوا يتربصون بالمسلمين غفلتهم حتى يـــميلوا عليهم ميلة واحدة.

[1]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- الأدب المغربي في ظل المرابطين- ص183.

III-نماذج من خطبه:

1-الخطبة الدينية:

الخطبة الأولى :

ذكرها ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف،[1] والمقري في أزهار الرياض[2] ،مع بعض الاختلافات اليسيرة.

يقول القاضي عياض :"الحمد لله الذي سبق كل شيء قدما ووسع كل شيء رحمة و علما ونعما، وهدى أولياءه طريقا نهجا أمَّــما ،و﴿ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [3] أحمده على مواهبه وهو أحق من حمد، وأسأله أن يجعلنا أجمع ممن حظي برضاه وسعده وأستعينه على طاعته وهو أعز من استعين واستنجد، واستهديه توفيقا، فإن﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [4] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فاتحة لأقفال قلوبنا راجحة بأثقال ذنوبنا، منــزهة له عن التشبيه والتمثيل بنا، ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [5]

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أنزل عليه الفرقان، وبعثه بالهدى والإيمان، وأخزى بدعوته دعوة أولياء الشياطين وأبعدهم عن مقاعد السمع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [6]، أيها السامع قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته، ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ،[7] أين الذين عتوا على الله وتعظموا، واستطالوا على

---

[1]- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 84-85.

[2]- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد- أزهار الرياض في أخبار عياض-ج4- ص 173-174.

[3]- سورة الكهف الآيات (3.2.1).

[4]- سورة الكهف الآية (17).

[5]- سورة الجن الآية (03).

[6]- سورة الجن الآية (09).

[7]- سورة الكهف الآية (27).

عباده وتحكموا، وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1] غرهم الأمل وكواذب الظنون، وذهلوا عن طوارق الغير وريب المنون ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾[3]

فهذبوا رحمكم الله سرائركم بتقوى الله وأخلصوا، واشكروا نعمته، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ... ﴿٣٤﴾ ﴾[4] واحذروا نقمته ولا تعتصوا واعتبروا بوعيده ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾[5]، وأنهضوا لطاعته هذه الهمم الهمم العاجزة، واركضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خصلة الفائزة، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجرة، وانتظروا قوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[6]، ذلك يوم تذهل فيه الألباب وترجف القلوب رجفا وتبدل الأرض وتنسف الجبال نسفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا صرفا، ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[7] ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾[8] ،إن أحسن الهدى، هدي محمد نبينا وأصحابه وأفضل الذكر، ذكر الله وتلاوة كتابه، جعلنا الله وأياكم ممن اهتدى بهديه، وتأدب بآدابه، ومن الذين قالوا: ﴿ سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾[9] اللهم انفعنا بالكتب والحكمة وارحمنا بالهداية

---

[1]- سورة الكهف الآية (59).

[2]- سورة القصص الآية (39)

[3]- سورة الجن الآية (24).

[4]- سورة إبراهيم، الآية (34).

[5]- سورة طه الآية (135).

[6]- سورة الكهف الآية (47).

[7]- سورة طه الآية (102).

[8]- سورة الكهف الآية (48).

[9]-سورة الجن (1-2) .

والعصمة، وأوزعنا شكر ما أوليت من نعمة ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾[1] .

الخطبة الثانية :

أوردها الأستاذ عبد السلام شقور في ملحق كتابه "القاضي عياض الأديب" ضمن مجموعة نصوص من أدب عياض "أشعار وخطب" أثبتها بعد تحقيقها من مجاميع لـمخطوطات متنوعة.[2]

يقول القاضي عياض:

"الحمد لله الذي خلق الأشياء كلها فقدرها تقديرا، وجعلها على عظمته ووحدانيته دليلا وبرهانا منيرا، وجعل الأرض مهادا، وفجر خلالها تفجيرا أنهارا، ورفع السبع الشداد بغير عماد، وجعل في سمائها أنوارا يهتدى بإشراقها ليلا نهارا وجعل القمر نورا، والشمس سراجا وأنزل من المعصرات ماءا ثجاحا فأخرج به من الأرض نباتا، وجعل فيها لخلقة أرزاقا، وقسّم بينهم بعدله أقواتا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دبر العالم وجعله دليلا على وجوده ، فدل كل شيء على عظمته وعزته، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء، و﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ ... ﴿٤١﴾ ﴾[3] و ﴿ مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ ...﴿١١٥﴾ ﴾[4] وأشهد أن محمدا عبده ورسولـه ، بعثـه بالحـق بشيرا ونذيـرا ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[5] أظهر الآيات بنبوته دليلا على صدقه وأرسله للناس كافة، وختم به الرسل، واصطفاه بالحكم والنبوة، والعلم والحكمة، والرفق والرحمة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، وبين الشريعة، حتى أتاه اليقين بعد كمال الدين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأنصار والمهاجرين الذين صبروا في العسر واليسر على الجهاد، والعبادة، والتقلل من الدنيا والزهادة. فلكم فيهم أسوة، فباتباع سبيلهم فاهتدوا، وبعملهم فاقتدوا، رضي الله عنهم أجمعين.

---

[1]- سورة الكهف الآية (10).

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص363 – 364 .

[3]-سورة الرعد الآية (41).

[4]-سورة الأنعام الآية (115).

[5]-سورة الأحزاب الآية (46).

عباد الله انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسكرته وعذاب القبر وظلمته، وهول الحشر وبغتته، والميزان وخفته، والصراط ودقته، والقصاص وجسرته، والجنة ونعيمها والنار وعذابها، فمن يطع الله ورسوله فله جنات عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ، ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾[2] ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[3] ، واذكروا الله واذكروه واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، و احفظوا ألسنتكم وأيديكم و أرجلكم قبل أن تشهد جوارحكم بما عملت و ﴿ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ ... ﴿١٧﴾ ﴾[4] ، ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[5] ، و ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[6] ، ﴿ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ... ﴿٧٨﴾ ﴾[7] .

-الخطبة الثالثة: أوردها المقري في "أزهار الرياض"[8] وفي "نفح الطيب"[9] مع بعض الاختلافات البسيطة بين الروايتين، وهي الخطبة التي ضمنها القاضي عياض سور القرآن الكريم، وقد

---

(1)-سورة البقرة الآية (24).

(2)-سورة الزمر الآية (54 – 55).

(3)-سورة النور الآية (31).

(4)-سورة غافر الآية (17).

(5)-سورة النور الآية (24).

(6)-سورة الأنفال الآية (27).

(7)-سورة الحج الآية (77 – 78).

(8)- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد-أزهار الرياض في أخبار عياض-ج4 - ص 79-80-81-82.

(9)-المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب-تحقيق إحسان عباس-دار صادر- بيروت-لبنان- 1408هـ/1988م- المجلد 07- ص 333-334.

أثبتها أحمد زكي صفوت في كتابه "جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة"[1] وشرح بعض ألفاظها وعلق عليها في بعض المواضع .

يقول القاضي عياض:

" الحمد لله الذي افتتح "بالحمد" كلامه، وبين في سورة" البقرة"، أحكامه، ومد في "آل عمران"، و"النساء" و"مائدة" "الأنعام" ليتم إنعامه، وجعل في "الأعراف-أنفال-توبة-يونس"، "وألر كتاب أحكمت آياته"، بمجاورة "يوسف"، الصديق في دار الكرامة، وسبح "الرعد" بحمده، وجعل النار بردا وسلاما على "إبراهيم"، ليوقن أهل "الحجر" أنه "إذا أتى أمر الله" سبحانه فلا "كهف" ولا ملجأ إلا إليه، ولا يظلمون قلامة، وجعل في حروف "كهيعص" سرا مكتوما قدم بسببه "طه" صلى الله عليه وسلم على سائر "الأنبياء"، ليظهر إجلاله وإعظامه، وأوضح الأمر حتى "حج"، "المؤمنون"، "بنور"، "الفرقان"، و"الشعراء" صاروا "كالنمل" ذلا وصغارا لعظمته، وظهر "قصص"، "العنكبوت"، فآمن به "الروم" وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم، نزل به الروح الأمين على زين من وافي "القيامة" وأفصح "لقمان" الحكمة بالأمر "بالسجود" لرب "الأحزاب"، "فسبأ"، "فاطر" السموات أهل الطاغوت، وأكسبهم ذلا وخزيا وحسرة وندامة، وأمد "ياسين" صلى الله عليه وسلم بتأييد "الصافات" "فصاد" "الزمر" يوم بدر وأوقع بهم لما أوقع صناديدهم في القليب بين مكدوس ومكبوب، شالت بهم النعامة، وغفر "غافر" الذنب وقابل التوب للبدريين –رضي الله عنهم- ما تقدم وما تأخر حين "فصلت" كلمات الله، فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامة، ذلك بأن أمرهم "شورى" بينهم، وشغلهم "زخرف" الآخرة عن "دخان" الدنيا "فجثوا" أمام "الأحقاف" لقتال أعداء "محمد" صلى الله عليه وسلم يمينه وشماله وخلفه وأمامه فأعطوا "الفتح" وبوئوا "حجرات" الجنان، حين تلوا "ق" والقرآن المجيد، وتدبروا جواب قسم "الذاريات" و"الطور" لاح لهم "نجم" الحقيقة، وانشق لهم "قمر" اليقين، فنافروا السآمة، ذلك بأنهم أمّنهم "الرحمن" "إذا وقعت الواقعة"، واعترف بالضعف لهم "الحديد" وهزم "المجادلون" وأخرجوا من ديارهم لأول "الحشر"، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة، أحمده حمد من "امتنحنته" "صفوف" الجموع في نفق "التغابن" "فطلق" "الحرمات" حين اعتبر "الملك" وعامه وقد سمع صريف "القلم" وكأنه "بالحاقة" و"المعارج" يمينه وشماله وخلفه وأمامه، وناح "نوح" "الجن" "فتزمل" و"تدثر"، فرقا من يوم القيامة، وأنس "بمرسلات" "النبأ" فترع "العبوس" من تحت كور العمامة، وظهر له "بالانفطار" "التطفيف"

---

[1]- صفوت، أحمد زكي- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - دار الحداثة – بيروت – لبنان - ط1- 1985 م- ج2 - ص 219-220-221.

"فانشقت" "بروج" "الطارق" بتسبيح الملك "الأعلى" "وغشيته" الشهامة، فورب "الفجر" و"البلد" و"الشمس" و"الليل" و"الضحى": قد "انشرحت صدور" المتقين"، حين تلوا سورة "التين" و"علق" الإيمان بقلوبهم فكل على "قدر" مقامه يبين، "ولم يكونوا بمنفكين" دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه، إذا ذكروا "الزلزلة" ركبوا "العاديات"، ليطفئوا نار "القارعة"، ولم يلههم "التكاثر حين تلوا سورة" العصر" و " الهمزة " و تمثلوا بأصحاب " الفيل" "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"، "أرأيتهم" كيف جعلوا على رؤوسهم من الكون عمامة "فالكوثر" مكتوب لهم "والكافرون" خذلوا وهم "نصروا" ، وعدل بهم عن " لهب " الطامة، وبسورة "الإخلاص" قروا وسعدوا، وبرب "الفلق" و " الناس" استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهم و غم و ندامـــة ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة تنال بها منازل الكرامة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما غردت في الأيك حمامة، وسلم تسليما ".

2- الخطبة الجهادية (التحريضية):

لم تورد المصادر التي تحدثت عن أدب القاضي عياض، من هذا النوع من الخطابة سوى ثلاث نصوص أثبتها الأستاذ عبد السلام شقور في ملحق كتابه "القاضي عياض الأديب" بعد تحقيقها، شأنها في ذلك شأن النموذج الثاني من الخطابة الدينية سأورد منها اثنتان:

الخطبة الأولى: [1]

وهي خطبة يحرض فيها على الاستعداد للقتال، والدفاع عن الأعراض والأموال.

يقول القاضي عياض:

" الحمد لله الذي هدانا برحمته، وشرح لنا صدورنا لمعرفته، وأكرمنا بالإسلام، وأنشأنا على فطرته، وأخرجنا إلى نور الهدى من ظلمة الشك والالتباس، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس أحمده وهو الذي لا يحمد بالحقيقة سواه، وأؤمن به إيمان من حقق أن كل شيء من مبداه وإليه منتهاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتره عن الأنداد والأشباه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ومجتباه ومصطفاه، شفيع يوم العرض، وصاحب اللواء والحوض، وأفضل من مشى على وجه الأرض، صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة تقضي عن الواجب والفرض.

أيها الناس: أنظرو لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أعد لكم، وتحفظوا قبل أن يحاط بكم فإنكم تستقبلون خطبا جسيما، وتنتظرون عن قريب أمرا عظيما،

---

[1]-شقور، عبد السلام-القاضي عياض الأديب - ص360-361-362.

فقد صار أعداؤكم عليكم إِلَبـــًا، وتحالفوا عليكم شرقا وغربا، واحتشروا إليكم برا وبحرا، وتعاقدوا عليكم سرا وجهرا، ومدوا لكم من كيدهم وشرهم أمرا إمرا، وأنتم عما يراودكم غافلون، وعما يحل بكم إن لم يدفع الله عنكم ذاهلون، كأنكم من مكرهم في أمان ولستم بأضدادهم في الدين والإيمان فقد جدت بكم الحرب فجدوا، وشمرت عن ساقيها فشدوا، وأعدت لكم مكايدها فاستعدوا.

ومدينتكم هذه التي رموا إليها أبصارهم وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، وهي عرضة للهلاك إن لم تشيد، وفرصة للعدو إن كم ترتب أمورها، وتسدد، جهاتها غير محصنة، وأعمال أمورها ظاهرة بينة، لا حماة، ولا رماة، ولا سلاح ولا آلات، ولا عدد ولا عدة، ولا أموال لصالحها معدة، فاقدروا رحمكم الله حق قدره أمرَكم، وخذوا-كما أمركم الله - حذركم، وقوموا في ذلك بجد وحزم، واصبروا صبر أولي العزم، وحوطوا أن يُعتَد عليكم من أنفسكم وأبنائكم ومن ورائكم، (من؟)، الحزم بالحد في أحوالكم والتعاون بأيديكم وأموالكم وأنفقوا الكريمة في مثل هذه الحال، وإنما يدخر المال لحاجات الرجال، واشتروا بالقليل وبادروا، وذروا التسويف والتعليل، واعملوا ما دام يمكنكم العمل في هذه الأيام، قبل أن يشغلكم العدو، فقبل الرمي تُراش السهام، ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ...﴿٦٠﴾ ﴾[1] وعدة للقتال واستكثروا من القسي والنبال، وبيض الصفاح، وسمر الرماح، فقد ألزمكم من له الأمر عليكم ذلك، كما ألزمكم الله وأمركم، وتوقعوا عرضا يكشف حالكم، ممن لا يسامحكم في ذلك ولا يقدّركم، وأخلصوا نياتكم، وأسرار ضمائركم، في جهاد عدو قد قصدكم في عقر داركم، وغيروا غيرة الرجال في حمى داركم، وشدوا حيازيمكم، وكونوا على عدوكم يدا، ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ ﴾[2] وتوكلوا على الله، واستعينوا بتقواه وطاعته، واضرعوا إليه في أن يؤيدكم بنصره، وكفايته، ويهلك عدوكم بلطفه الخفي، ويكفيكم، باسمه الجليل وقايته،﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ... ﴿١٠٣﴾ ﴾[3]،و ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[4]. ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.[5]

---

[1]-سورة الأنفال الآية (60).

[2]-سورة الكهف الآية (20).

[3]-سورة آل عمران الآية (103).

[4]-سورة البقرة الآية (153).

[5]-سورة البقرة الآية (195).

اللهم بك نجول وبك نصول، وفيك نحاكم، وبك نخاصم، وبك نستنجد و لك نستعد، ولا ملجأ لنا، ولا منجى منك، إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك، ولا ناصر لنا إلا أنت، وما مخذول إلا من خذلت، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا تخلنا من نظرك في الدارين، واكنفنا بعزك الذي لا يضام، واكنفنا في كنفك الذي لا يرام، وأحطنا عن أيماننا وشمائلنا، وأمامنا، وخلفنا، وفوقنا، وتحتنا، وحوّل عنا عدونا، واكفنا ما أهمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا، واكشف ما نزل بنا، وأنزل سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لقينا، والطف بنا بلطفك الخفي، المرتجى، واجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا.

يا من تجيب المضطر إذا دعاه، دعوناك مضطرين كما أمرتنا فأجبناكما وعدتنا ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [1] ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [2] "

الخطبة الثانية: [3] وله خطبة يخطب بها عند قتال العدو:

" الحمد لله الذي أظهر في مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام، عوالي رايات الكفر وبنوده، وكشف عن قلوب ما غشيها من روعة عدته وعديده، أحمده حق حمده، وأشكره شكرا موعودا. بمزيده، واسأله دوام نصر الإسلام وتأييده وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستهدف توحيد ذي العز والجلال، ويضمحل عندها دعوى الكفر والضلال، ويستقل بعصمة النفوس والأموال، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، نبي الملحمة والقتال، أرسله، والكفر قد مد أطنابه، وأمد عبابه، وجمع أحزابه، ورفع أنداده وأنصابه، فجد صلى الله عليه وسلم في قبض ما أمد، وفض ما جمع وخفض ما رفع، وحارب من دنا من الكفرة وصنع، حتى صدقه الله وعده، وهزم الأحزاب وحده وأظهر دينه على الدين كله وأورى زنده، صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة يزيدهم بها شرفا عنده.

أيها الناس: إن أحق النعيم بجميل الشكر، و جميع الذكر، نعمة عمت عوارفها وتمت مباديها وروادفها، وملأت القلوب مسرة عواطفها ولطائفها، وحسن مخبرها ومرآها، وطاب خبرها وذكراها، وأقرت عيون الدعوة الحنيفية وأهلها، واجتثت شجرة الطاغوت من أصلها، وتركت حريمه مباحا،

---

[1]-سورة آل عمران الآية 194.

[2]-سورة البقرة الآية (201).

[3]- شقور ، عبد السلام- القاضي عياض الأديب - ص 365-366-367.

وزعيمه مشاعا، قد حكمت أيدي المؤمنين فيه صفاحا ورماحا، حتى كبا لغيّه ، وانتقم الله منه لعلمه فيه، فكم أيتم من الولدان، وأيّم من النسوان، وغيّر من الأحوال واغتصب من الأموال، وقتل من الرجال والأطفال، وملأ القلوب رعبا وأخذ كل سفينة غصبا[1] واستخف بالعالم اغترارا وعيبا، وقد كان أوعد بجمعه، وأرعد بقوته وحوله، وأجلب بخيله ورجله، وأرهب له المخذول وهوّله، والقدر يملي له ليزداد إثما على إثمه وسيئاته، ومكر الله يستدرجه من حيث لا يعلم لميقاته، فلما شمخ بأنفه، وظن أن لن نقدر عليه بعُجبه وسخفه، أخذه الله بخفي لطفه، وساقه إلى حتفه، فأتاه الله من حيث لم يحتسب، فانقاد على تمنعه ، سار للحين إلى مصيره، ولما علم الله صدق نياتكم وخلوص طوياتكم، وشُحّكم بدينكم، وثباتكم وثقتكم ببارئكم في ملماتكم، أبلغكم في عدوكم غاية أمنياتكم، فأقر عيونكم بأشدهم على الرحمان عتيا[2] ، وأبعدهم صيتا وأقربهم للشيطان ليا، وصدق وعده، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾[3] ، فاقدروا- رحمكم الله- هذه النعمة حق قدرها، و وفوها جزاءها من الطاعات، وبذل الصدقات وشكرها، واستجزلوا من عند الله ثوابها وأجرها، واعتبروا بحال من أسرف في ذنبه، وحال من كفر نعمة ربه، وتغيير من غير نفسه، وبون ما بين حالين: يومه، وأمسه ، وانظروه عبرة لأولي الأبصار، راكبا مطية من عمل النجار، عاريا بالعراء تصهره الشمس، وتمزقه الرياح والأمطار، وكان قد أصبح بالأمس على سريره عاتيا مسرفا، وأصبح اليوم على جزعه عاليا مشرفا، قد تبرأت منه شياطينه و لم يجد عن قضاء الله مصرفا، فاخلصوا، رحمكم الله، الدعاء لمن كان هذا الفتح المبين بيمين نقيبته وشدة بطشه وقوة سريرته الأمير: أبو فلان أدام الله توفيقه ونصره، وقوى بطاعته وتقواه عضده، وآزره، وأجزل على صنعه الجميل ثوابه وأجره ، وقد جعل دون نحوركم نحره ، و أراحكم من تعدي العدو و كفاكم ضره، اللهم أوزعه وأوزعنا شكر هذه النعم،[4] واحجب عن حوزته وعنا الغير والغم، واجعل ثأره وثأرنا على من ظلم، واعصمنا برحمة منك، فإنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم[5]، وأشفع هذا الفتح الجليل بأمثاله، إنك أنت الأعز الأكرم ، إن

---

[1]- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة الكهف الآية (79).

[2]-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ سورة مريم، الآية (69).

[3]- سورة مريم، الآية (61).

[4]-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ...﴿١٩﴾ ﴾ سورة النمل الآية (19).

[5]-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة هود الآية (43) .

أفصح المقال وأوضح الأمثال كلام الله العزيز المتعال، ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ ﴾. [1]

(1)- سورة الأحزاب، الآية (25).

IV- الــبنـــاء و التشكيل الفنـــي:

إن خطب القاضي عياض تعتبر الانعكاس الصادق لأدبيته أكثر من غيرها من الفنون النثرية التي كتب فيها لأنها رغم التمايز الذي بينها في الغرض والأسلوب إلا أنـــها تلتقي في خط فكري عام "فهي تؤكد الروح الدينية عند صاحبها ، وتلتزم بمنهج الـــهداية الإسلامية، الذي أسست الدولة المرابطية و الـــموحدية خطابــــهما السياسي عليه".[1]

وكون القاضي عياض فقيها لا يطعن في أصالة إبداعه ، ولا يقدح في حسن آدائه، " و أدب الفقهاء مادة خصبة للدراسة ، و باب واسع يتضمن فنونا وأغراضا مختلفة ، بعضها مما يقل نظيره في أدب غيرهم ... أما الأخلاق والآداب شرعية وسياسية ، فأدب الفقهاء هو منبعها الذي لا ينضب، ومنجمها الذي يحتوي على ثروة طائلة لا نفاذ لها ".[2]

وكما تمت الإشارة إليه سابقا فإن خطب القاضي عياض كثيرة جمعت في كتاب عنوانه "خطب عياض" يحوي حوالي خمسين خطبة كما أشار إلى ذلك ولده عبد الله في كتابه "التعريف بالقاضي عياض " ، غير أن هذا الكتاب مفقود، ولم يصلنا من خطب القاضي عياض سوى عشر خطب، جمعها الأستاذ عبد السلام شقور في كتابه "القاضي عياض ض الأديب"، بعد تحقيقها، وستمر دراسة الخطبة عند القاضي على ـــــ المراحل التالية:

أولا: الهيكل العام.

ثانيا: القضايا الفكرية.

ثالثا: الخصائص الفنية.

---

[1]- الزباخ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص215 .

[2]- كنون، عبد الله — أدب الفقهاء - دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة- بيروت- لبنان- ط2- 1404هــ/1984 م- ص15.

أولا: الهيكل العام:

تتكون الخطبة من خطب القاضي عياض، من ثلاثة أقسام رئيسية، بل هي مراحل كبرى تتوالى وفقها الخطب، يقول الدكتور مصطفى الزباخ: "تمثل خطبه وعيا منهجيا متطورا، يتمثل في التماسك الأدائي والقدرة على استخلاص النتائج من المقدمات بفنية التخلص المعتمدة على دقة الإشارة، فهي تُؤسَّس في معظمها على هندسة معمارية تتوالى وفقها الخطب في ثلاث مراحل كبرى هي:

1- المقدمة.

2- الموضوع.

3- الخاتمة"[1].

1- **المقدمـــة:** وتسمى أيضا صدر الخطبة وهو كما جرت العادة للتحميد والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم- لأن المعروف عن الخطبة أنها ما استفتح أوله بالتحميد أعلم غفله بالتمجيد و تبتديء غاليا بحمد الله و الشهادة بوحدانيته، وبرسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبالصلاة عليه وعلى أصحابه من المهاجرين والأنصار.

"وهذا القسم يشغل حيزا كبيرا في خطب عياض، وينال منه اهتماما خاصا ويكون أحيانا ثلث الخطبة ، بل نصفها في بعض الأحيان، هو لا ينفصل عن الخطبة ففيه إشارة إلى مضمون الخطبة"[2]، ففي الخطبة الجهادية الثانية الواردة في النماذج يستهل الخطبة بقوله: "الحمد لله الذي أظهر في مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام عوالي رايات الكفر وبنوده " ، فكان كلامه متماشيا ومتوافقا مع ما ورد في صلب الخطبة، ومن ذلك قوله: "إن أحق النعيم بجزيل الشكر، وجميع الذكر، نعمة عمت عوارفها ، وتمت مباديها وروادفها...وأقرت عيون الحنيفية وأهلها ، واجتثت شجرة الطاغوت من أصلها ".

وقد تميزت مقدمات خطب القاضي عاض بسمتين أساسيتين هما:

أ- المدخل: وفيه يعمد إلى " إثارة إدراك السامعين العقلي والعاطفي إلى مشاهد من عظمة الخالق وصور نعمه، فيدعوهم إلى النظر العقلي في آيات الله، والاتعاظ بعجائب موجوداته، للإقرار بوحدانية واجدها،وللتدليل على عظمة خالقها وقدرته"[3]، ومن ذلك قوله في الخطبة الدينية الثانية: "الحمد لله الذي خلق الأشياء كلها فقدرها تقديرا، وجعلها على عظمته ووحدانيته دليلا وبرهانا

[1]- الزباخ، مصطفى- فنون النشر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص217.

[2]- شقور ، عبد السلام - القاضي عياض الأديب - ص187.

[3]- الزباخ، مصطفى- فنون النشر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص217.

منيرا، وجعل الأرض مهادا، وفجر خلالها تفجيرا أنهارا ورفع السبع الشداد بغير عماد، وجعل في سمائها أنوارا يهتدى بإشراقها ليلا ونهارا، وجعل القمر نورا والشمس سراجا، وأنزل من المعصرات ماءا ثجاجا، فأخرج به من لأرض نباتا...".

" وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية لأنها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى، وتعلو بهم عن الأرض إلى السماء، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة".[1]

وهذا ما جعل القاضي عاض لا يقف في خطبه دعوة السامعين إلى التدبر في آيات الله، وإنما يلجأ أيضا " إلى إثارة عواطف السامعين بما ينتظر الغافلين من العذاب الأخروي، وما سيلقاه الصالحون من نعيم الجنة بأدوات تعبيرية تنبيهية، كحروف النداء، والاستفهام ، لاستدعاء انتباههم".[2]

ومن ذلك قوله في الخطبة الدينية الأولى: "أيها السامع قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، و وعظك كتاب الله بزواجره وعظاته " ، وقوله: " أين الذين عتوا على الله وتعظموا؟ واستطالوا على عباده وتحكموا؟ وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا ".

ولأجل إقناع السامعين والتأثير فيهم كانت الخطبة تستهل مطالعها بمقدمة فكرية تدعو العقل البشري إلى التأمل في مبدأ العلة لهذه الموجودات، رابطة المخلوقات بواجدها وخالقها، مفصلة في آياته ومعجزاته...[3]

غير أن هذه السمة ليست مطردة في كل الخطب، إذ أن بعضها تطالعنا بمقدمات فيها تلميحات وإشارات جلية حينا وخفية أحيانا، إلى معاني آيات قرآنية دونما تفصيل ولا توضيح، فيكون بذلك مضمون ومحتوى الآية القرآنية هو المعبر عن أهداف الخطيب ومقاصده، منتقلا بذلك من مرحلة إلى مرحلة انتقالا سلسا لا يشعر به المستمع ولا يحس فيه خللا ولا تناقضا.

ب- التدرج في تناول القضية : وهو تدرج منطقي يجعل الخطبة لا تطالعنا بالنتائج قبل المقدمات ولا تطرح لنا الحقائق جاهزة ناضجة دونما تمهيد، فهي تستنتج النتائج من المقدمات وتنتهي إلى الموضوع من خلال المعالم التي تنير القضية أو الموضوع الذي تبتغي تحليله، وهذا ما يعطي لعناصر الخطبة وأقسامها تماسكا لا نشاز فيه.

---

[1]- الحوفي، أحمد محمد- فن الخطابة- ص99.

[2]- الزباخ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص218.

[3]- المرجع نفسه - ص218.

"فهي تتدرج من مبدأ الكل إلى الجزء...ومن مبدأ العلة إلى المعلول...فتبدأ بوصف آيات الخالق في مخلوقاته للتدليل على عظمته ووحدانيته، ثم تأتي للشهادة بوحدانية الله عز وجل وبرسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتعداد فضائله وأعماله".[1]

ومن الخطب ما تضيف الصلاة على الصحابة مهاجريهم وأنصارهم، الذين كانوا قدوة الأمة في الالتزام بشرع الله تعالى والثبات على دينه والمضي في النهج الذي ارتضاه لعباده الصالحين.

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الثانية ، بعد أن حمد الله، وأثنى عليه وذكر آياته، ودلائل قدرته و عدد صفاته : " و أشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بعثه بالحق بشيرا و نذيرا ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[2]، أظهر الآيات بنبوته دليلا على صدقه، وأرسله إلى للناس كافة وختم به الرسل...فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة وبني الشريعة، حتى أتاه اليقين بعد كمال الدين صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه الأنصار والمهاجرين الذي صبروا في العسر واليسر على الجهاد والعبادة و التقلل من الدنيا و الزهادة ".

واهتمام الخطبة بالإقناع والاستمالة يجعلها مناطا وموطنا للتدرج المنطقي الذي يسعى لإضفاء القابلية للآراء والأفكار والأحكام المشفوعة بالحجج والبراهين، والاستقراء والأمثال وغيرها.

ويتجلى هذا التدرج المنطقي "في مشاكلة اتجاه مطلع الخطبة الفكري لمضمونـــها، فيكون للتمهيد علاقة عضوية بالمضمون، ومن ثم تختلف المطالع باختلاف مضامين الخطبة"[3].

فإذا كانت الخطبة دينية بحتة كان التمهيد تذكيرا بآيات الله على الخلق ودعوة للاعتبار والإخلاص لدين الله، " لأن الموعظة هي الهدف الأول للخطيب الديني وهي المادة التي تقوم عليها خطبته أو هي على الأقل أهم ما فيها من المواد ".[4]

وهذا ما يلاحظ بوضوح في مطالع الخطب الدينية في النماذج.

أما إذا كانت الخطبة جهادية فهي تتدرج من التحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه إلى تبيان آية الله في انتصار الحق عاجلا أم آجلا والترغيب في بذل النفس والنفيس، وما أعده الله للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم في الدنيا والآخرة والتذكير بجهاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه " وبذلك تكون المقدمة عبارة عن مصباح يفتح عيون السامعين بضوء الحقيقة الربانية

---

[1]- المرجع السابق – ص219 –بتصرف.

[2]- سورة الأحزاب- الآية 46.

[3]- الزباخ مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص219.

[4]- شلبي، عبد الجليل عبده- الخطابة وإعداد الخطيب – ص 374 .

والتوجيهات الحكمية، وكثرة التحميدات الموزونة التي تقع على السمع والوجدان موقعا حسنا، و تهيء السامعين لتقبل الفكرة والعمل بها ".[1]

ففي الخطبة الجهادية الثانية يقول القاضي عياض: " وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بني الملحمة والقتال، أرسله والكفر قد مد أطنابه، وأمد عبابه، وجمع أحزابه، ورفع أنداده وأنصابه، فجد صلى الله عليه وسلم في قبض ما أمد ، وفض ما جمع، وخفض ما رفع، وحارب من دنا من الكفرة وصنع ، حتى صدقه الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، وأظهر دينه على الدين كله".

فهذه حال أسوتنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم في جهاده الكفارَ ودفعهم ورد كيدهم ومكرهم ، وإبطال قولهم وفعلهم .

2- الموضوع: وهو القسم الثاني من الخطبة ويسمى أيضا العرض ، " ولابد فيه من وحدة الموضوع، وتقسيمه إلى أجزاء تتسلسل تسلسلا منطقيا، بحيث يرتبط كل منها بما قبله، ويسلم إلى ما بعده، ويكون من الدقة والوضوح بحيث يحقق للسامعين مزية الفهم، ويهبهم لذة التتبع، ويؤدي إلى الغرض المنشود". [2]

و يكون هذا العرض مشفوعا بالأدلـــة و البراهين التي تدعم القضية عن طريق التأييـــد أو التفنيذ.

وإن موضوع الخطبة يحدده الهدف من إلقائها فإذا كانت الخطبة جهادية يكون موضوعها الحظ على القتال والحث على طلب الشهادة، والثناء على الشجاعة والإقدام، وإنكار الجبن والإحجام، والترغيب في الجنة ونعيمها، للشهداء، والنصر ولذته وأجره للمنتصرين، والترهيب من جهنم وعذابها، و من غلبة العدو ومآسيها للفارين المقصرين، حتى تشحذ الهمم، وتلتهب النفوس فيقدم المقاتلون غير مبالين ولا آبـــهين بالوغى ورحاها، ولا العدو ورهبته.

وإن كانت الخطبة دينية، فإن موضوعها سيكون الوعظ والإرشاد، والتهوين من شأن الدنيا، والترغيب عنها، والرفع من شأن الآخرة والترغيب فيها والحث على طلبها والعمل لها.

فموضوع الخطب الدينية هو الوعظ بشكل عام "وليس هناك ما يربط بين هذه الخطب، وبين العصر الذي قيلت فيه، فهذه الخطب مما يمكن أن يخطب في كل زمان ومكان، إذ لا لون لها ولا طعم

---

[1]- الزباخ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين – ص 220 .

[2]- درويش، محمد طاهر – الخطابة في صدر الإسلام – ج 1: العصر الديني – عصر البعثة الإسلامية- ص40 -41.

، و عياض يجمع بين الترغيب والترهيب، سالكا في ذلك مسلكا خاصا، إذ يتجه فيها إلى عقل المستمع وقلبه معا ". [1]

فهو يعتمد تارة على الجدال والمنطق، وتارة أخرى يلجأ إلى وجدان السامع فيثيره.

ومن مخاطبته للعقل يقول في الخطبة الدينية الأول بعد حديثه عند غـــفـــلـــة الإنسان: " ... و وعظك كتاب الله بزواجره و عظاته ، فتأمل حدوده ، وتدبر محكم آياته ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، أين الذين عتوا على الله وتعظموا، واستطالوا على عباده ، وتحكموا ؟ "، فهو يدعو الإنسان إلى أن يتأمل المواعظ التي في القرآن ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه، وكذا يتأمل في مصير الجبابرة والطواغيت، ليكون ذلك له حافزا على طاعة الله تعالى، والتواضع لخلقه وعباده ، وعدم التكبر عليهم.

أما مخاطبته للوجدان فيكون في سياق إثارة النفس حتى تلين وترق فتستجيب لداعي الحق و لا تتردد ، يقول في الخطبة الدينية الثانية: "انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم، وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون وإلى ربكم راجعون ".

والملاحظ أن الخطبة عند القاضي عياض في الموضوع تتجه إلى السامعين " متدرجة من معجزة الألوهية في الكون إلى فضائل النبوة المحمدية، وصلاح التابعين من السلف الصالح إلى الخلف من هذه الأمة، هادفة إلى وضع النموذج الأمثل للهداية وقاصدة إلى تنبيه الغافلين وهداية الضالين".[3]

وهذا ما جعل خطابه يجول في مستويات متعددة ويحمل أبعادا لها سمات خاصة هي:

أ-خطاب حصري: " يحصر مجال حديثه في الموضوع المستهدف كأن يدعو السامع إلى الطاعة والتقوى، والتدبر في كتاب الله لليقظة من سكرة الهوى، أو أن يدعو بالصلاح والبقاء للأمير وبالزوال للأعداء". [4]

فمن الدعوة للطاعة والتقوى يقول في الخطبة الدينية الأولى: " فهذبوا رحمكم الله سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ".

---

[1]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب - ص187.

[2]- سورة الكهف الآية (27).

[3]- الزباخ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص220.

[4]- المرجع نفسه - ص220.

ومن دعوته للتدبر في كتاب الله لليقظة من سكرة الهوى يقول أيضا في الخطبة نفسها: "أيها السامع قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته فتأمل حدوده ، وتدبر محكم آياته ".

ومن دعوته بالصلاح والبقاء للأمير وبالزوال للأعداء، يقول في الخطبة الجهادية الثانية: "فأخلصوا رحمكم الله الدعاء لمن كان هذا الفتح المبين بيمين نقيبته وشدة بطشه وقوة سريرته الأمير أبو فلان أدام الله توفيقه ونصره...اللهم أوزعه و أوزعنا شكر هذه النعم، وأحجب عن حوزته وعنا الغير والغم ، واجعل ثأره وثأرنا على من ظلم ".

ويعتمد القاضي عياض على النداء بمختلف صيغه مرشدا، واعظا، محذرا ، ومنبها لمخاطر الغفلة، وكثيرا ما استهل موضوعه بالنداء كقوله: " أيها السامع " في الخطبة الدينية الأول، و" عباد الله " في الخطبة الثانية و" أيها الناس " في الخطبة الجهادية الأولى.

" وقد يسبق النداء فعل يتوجه به للتوصية والإرشاد، مبينا حدود النداء كقوله: "أوصيكم عباد الله" ".[1]

وقد توحي صيغة النداء بالخطورة فينعت السامعين بالغفلة، والتهاون والذهول. كما في الخطبة الجهادية الأولى: " أيها الناس، انظروا لأنفسكم واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أعد لكم...فقد صار أعداؤكم عليكم إلبًا وتحالفوا عليكم شرقا وغربا...وأنتم عما يراد بكم غافلون ، وعما يحل بكم إن لم يدفع الله عنكم ذاهلون، كأنكم من مكرهم في أمان ، ولستم بأضدادهم في الدين والإيـــمان".

ب- خطاب مقارنة ومقابلة : وهو خطاب "يعتمد على عنصر المقابلة في تفصيل الحقيقة"[2] إذ يقابل بن مشهد ومشهد، ويقارن بين حال وحال.

ومن ذلك مقابلة جنة المؤمنين المخلصين وعذاب الكافرين ، يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الثانية: "...فاذكروا ألم الموت وسكرته، وعذاب القبر وظلمته...والجنة ونعيمها، والنار وعذابها ".

---

[1]- المرجع نفسه - ص220.

[2]- المرجع السابق ، ص221.

ثم يردف موازنا بين مشاهد من نعيم الجنة وصور من عذاب النار ، فيقول: "فمن يطع الله ورسوله فله جنات عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]."

كما أنه يضرب الأمثال لأخذ العبرة والاتعاظ بفناء الدنيا وهلاك الطغاة والجبابرة من الأمم السابقة، يقول في الخطبة الدينية الثانية: " ولا تغتروا بالدنيا فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون " ، ويذكر بمصير الجبابرة في الخطبة الأولى " أين الذين عتوا على الله و تعظموا ؟ و استطالوا على عباده وتحكّموا ؟ و ظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .[2]".

ج- خطاب حجاجي: وهو خطاب يعتمد الاستدلال بغية إقناع السامعين وقد بنى حججه وأدلته وبراهينه على القرآن الكريم بالدرجة الأولى ثم المنطق والمبادئ الخلقية السامية ، مما جعل الموضوع يميل نحو التفصيل من خلال إيراد الآيات القرآنية بشكل جعل الخطبة تبدو للوهلة الأولى كأنها آيات قرآنية مرصوفة جنبا إلى جنب ولا كلام للقاضي عياض بينها، غير أن هذا لا يقدح فيها وإنما ينم عن براعته في توظيف الآيات القرآنية التي تعتبر رأس الحجج ، وقمة البرهان إذ لا يرقى إليها الشك ولا الريب .

و هذا التفصيل يهدف إلى " تقرير الفكرة و تثبيتها في الأذهان مما يؤدي إلى كثرة الاقتباس من آي القرآن والإكثار من أدوات الاستفهام وصيغ الأمر والنهي ". [3]

وإن هذا النمط من الخطاب الذي هو الحجاج المعتمد على القرآن الكريم، واضح وجلي في خطب القاضي عياض ، وخير نموذج يمثله هو خطبه الدينية.

3- الخاتمة: بعد أن يفرغ من العرض والاستدلال لا يبقى سوى الختام الذي له أهمية خاصة لأنه تلخيص للموضوع، واستمرار للإثارة، وهو المجال الأخير لاجتذاب عواطف السامعين ، وإقناع عقولهم ، لهذا وجب أن يكون واضحا قويا موجزا، فالإيجاز يزيده قوة، ويهبه روعة.

و الخاتمة هي تقرير نهائي من الإشارات والتلميحات الدالة على جوهر القضية، لهذا فإنه لا مجال في الخاتمة للنقاش والجدال والاستدلال كما هو الشأن في الموضوع.

---

[1]- سورة البقرة الآية (24).

[2]- سورة الكهف الآية (59).

[3]- الزباخ مصطفى –فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين – ص 221 .

" فهي تعد السامع للتسليم بالآراء الواردة ، فتعمد إلى التلخيص، والتقرير، والتذكير، لتأكيد الحقيقة التي يقوم عليها موضوع الخطبة ". [1]

وقد كانت جل خطب القاضي عياض الموجودة بين أيدينا قد ختمت بالدعاء، وغالبا ما يكون هذا الدعاء في آية أو أكثر من القرآن الكريم، وتكون تلخيصا لما في الخطبة أو جامعة لمعانيها، ومنها الخطبة الدينية الأولى التي ختمها بقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾. [2]

والثانية التي ختمها أيضا بقوله عز وجل: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ... ﴿٧٨﴾ ﴾. [3]

والشيء نفسه كان في الخطبتين الجهاديتين إذ ختم الأولى بقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [4]، وختم الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾. [5]

كما أن القاضي عياض قد سخر خواتيم خطبه لتذكير السامعين بمآل الإنسان ونهايته، فيضعه بين اختيارين الجنة أو النار، " و رغم إلحاح الخطبة في التوجيه إلى مخاطبة أفعال البشر لتهذيبها وتوجيهها، وفق المنهج الإلهي، فإن الخطبة لا تغفل استمداد العون الرباني، فتنتهي بطلب الهداية الإلهية مؤكدة أن الهداية البشرية لا تتم إلا بهداية الله " [6]، يقول في خاتمة الخطبة الدينية الأولى، " اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة، وارحمنا بالهداية والعصمة " ، فلا هداية إلا لمن هدى الله عز وجل لا عصمة إلا لمن عصم سبحانه وتعالى.

---

(1)- المرجع نفسه - ص 221-222.

(2)- سورة الكهف، الآية (10).

(3)- سورة الحج، الآية (77 – 78).

(4)- سورة البقرة، الآية (201).

(5)- سورة الأحزاب، الآية (25).

(6)- الزباخ مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين – ص222.

" وخطب القاضي عياض تخضع لبناء داخلي دقيق يجعلها متميزة بذلك عن غيرها، وأعتقد أن عياضا تجاوز كل ما هو معروف في باب أسلوب الخطب ". [1]

و خير ما يوضح ذلك ما تم إيراده من نماذج خطبه.

كما أن خطبه لا تلتزم حجما معينا، فهي تتفاوت من حيث الطول والقصر، في حجمها الكلي، ومراحلها أو أقسامها، يقول ولده أبو عبد الله في كتابه: "التعريف بالقاضي عياض" : " وخطبه – وفقكم الله- كثيرة مدونة يشتمل عليها مجلد، قرئت عليها وسمعها أكثر أصحابه، و انتسخت ، في الطوال منها ما هو أغرب مما أثبته هنا، و إنما قصدت إلى هاتين الخطبتين لقصرهما ، مخافة التطويل، و فيهما من التنبيه على ما بقي كفاية ، والله المـوفق بفضله " [2] ، وتأتي مقدمات خطبه في الغالب موجزة مركزة غير أنها أحيانا تأتي طاغية على الموضوع فتستغرق نصف الخطبة، ولكنها تتميز بالتماسك في البناء التعبيري والسياق الفكري.

ثانيـا : القضايا الفكرية :

لقد كان القاضي عياض يعمد إلى موضوعه فيجول فيه جولة العارف الخبير الذي يتقن إتباع المعاني ويستقصي تفرعاتـها، وعلاقة بعضها ببعض، ثم يعمد إلى إقامة الحجج والبراهين والتي تقوم أساسا عنده على القرآن الكريم والشواهد النبوية، معتمدا في ذلك تسلسلا فكريا، يلح فيه بقوة على الأفكار الرئيسية التي عليها مناط الخطبة رغبة في الإقناع بـها ليطبقها السامع ويعمل بـها إيـمانا بـها، ورغبة فيها، وطلبا لثوابـها.

ويؤسس مضمون الخطاب في الخطابة العياضية على اتجاهين فكريين بارزين يشكلان الأساس الذي بنيت عليه خطبه هما:

1- اتجاه يتعلق الخطاب فيه بالمعتقدات.

2- اتجاه يتعلق الخطاب فيه بالعبادات والمعاملات. [3]

ولابد أن الخطاب في هذين الاتجاهين كان يهدف إلى التأثير على السامع من خلال دفعه إلى الاستسلام لقضاء الله عز وجل وحكمته استسلاما تاما تذوب فيه النفوس تقوى وانصياعا.

---

[1]- شقور ، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص188.

[2]- أبو عبد الله، محمد بن عياض –التعريف بالقاضي عياض– ص87.

[3]- الزباخ، مصطفى –فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين– ص225– بتصرف.

1- الخطاب المتعلق بالمعتقدات:

وقد دار هذا الخطاب حول محاور ثلاثة هي:

أ- الإيمان بالله وتوحيده.

ب- الإيمان بالنبوة والقرآن.

ج- الإيمان باليوم الآخر (البعث والنشور والحساب).

أ- الإيمان بالله وتوحيده:

دعا القاضي عياض إلى الإيمان بالله وتوحديه في كل خطبه الدينية منها والجهادية، وكان هذا هو الأصل الذي تتفرع منه بقية المواضيع .

إذ أنه " غني عن البيان أن الروح التي تسود هذه الخطب المنبرية هي الروح الدينية التي تتجلى في الحض على الإيمان الفطري والعقلي بمسألة الألوهية ... فكانت أشبه بوصايا إرشادية يمارس فيها الخطيب معتقداته الدينية ترتكز أساسا على مسألة الألوهية". [1]

وقد تناول القاضي عياض هذه المسألة من جانبين:

الأول: الاعتقاد والتصديق بربوبية الله عز وجل في السماوات والأرض، وأنه خالق الكون و الموجودات كلها و هو بارئها و مصورها و ذلك لأن الإيمان بالله تعالى و بربوبيته و ألوهيته هو جوهر الحياة " إذ حياة المسلم كلها تدور عليه، وتتكيف بحسبه، فهو أصل الأصول في النظام العام لحياة المسلم بكاملها ". [2]

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى: " الحمد لله الذي سبق كل شيء قدما "، ويقول في الثانية: " وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دبر العالم وجعله دليلا على وجوده، فدل كل شيء على عظمته وعزته، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء".

وفي حديثه عن إيمانه بالله عز وجل يقول في الخطبة الجهادية الأولى: "وأؤمن به إيمان من حقق أن كل شيء من مبداه ، وإليه منتهاه" ، كما يؤدي المعنى ذاته من خلال مطلع خطبته الجهادية الثانية، بقوله: " الحمد لله الذي أظهر في مصنوعاته دلائل وجوده ".

الثاني: الاعتقاد بوحدانية الله، وتدبيره لكل شؤون الوجود، وتنزهه عند الأنداد والشركاء، فيقول في الخطبة الدينية الثانية: "الحمد لله الذي خلق الأشياء كلها فقدرها تقديرا، وجعلها على

---

(1)- المرجع السابق - ص 225 - 226 .

(2)- الجزائري، أبو بكر جابر – منهاج المسلم- دار السلام – القاهرة مصر – ط 4 – 2004 – ص 07 .

عظمته ووحدانيته دليلا وبرهانا منيرا "، ثم يردف قائلا: "يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء".

ويؤكد تنــــزيه الله تعالى عن الأنداد والشركاء فيقول في الخطبة الجهادية الأولى: " وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الـــمنــــزه عن الأنداد والأشباه "، وهذا من تمام وكمال الربوبية و الألوهية و على هذا الأساس تقوم شخصية المسلم التي تجعل من السبيل القويم منهجها البين الجلي الواضح، وقد أوصى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: " إيمان بالله ورسوله ". [1]

ومن هنا كانت الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وتتريهه عن الند والشريك وإفراده بالعبودية والدعاء، وتخصيصه بالأمل والرجاء هي أساس كل دعوة ورأس كل فضيلة، وهذا ما جعل القاضي عياض يهتم بهذه المسألة اهتماما شديدا، إذ أن إعلانه للتوحيد والدعوة إليه كانت مطردة في كل خطبه، وهذا ليس خاصا به، لأنه يسير على نهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والسلف الصالح من بعدهم، الذين كانت خطبهم تأتي على هذا النحو فهي لا تخلو أبدا من التوحيد سواء بذكر الشهادة التي تعتبر من ألزم اللوازم في الخطبة الدينية أو بصيغ أخرى في معناها أو بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة تفي بالمطلوب من إعلان التوحيد.

وقد كان القاضي عياض كثيرا ما يورد الآيات القرآنية التي تعبر عن معنى التوحيـــد، أو تدعو إليه، أو تندد وتنكر على الذين يشركون بربـــهم ما لم يترل به سلطانا.

يقول في الخطبة الدينية الأولى: " وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة فاتحة لأقفال قلوبنا، راجحة بأثقال ذنوبنا، مترهة له عن التشبيه والتمثيل بنا، ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [2]".

ويقول في الخطبة الجهادية الأولى: " أحمده وهو الذي لا يحمد بالحقيقة سواه "، وهو هنا يحقق ألوهية الله عز وجل، إذ أن أهم معنى تدل عليه كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" هو أن لا معبود بحق إلا

---

[1]-البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل - الصحيح المسند - إشراف: أبو عبد الله محمود بن الجميل – مكتبة الصفا - القاهرة- مصـــر- ط1- 1423هـ/2003م-ج1- ص17.

[2]- سورة الجن الآية (03).

الله فكل معبود سواه باطل، وكل محمود سواه باطل، وكل مدعو سواه باطل، وكل مستعاذ سواه باطل أيضا.

ويضيف في الخطبة الجهادية الثانية: " وأشهد أن لا إله إلا الله حده لا شريك له، شهادة تستهدف توحيد ذي العز والجلال، ويضمحل عنده دعوى الكفر والضلال، ويستقل بعصمة النفوس والأموال ".

إن هذه المقاطع من خطب القاضي عياض تؤكد مدى حرصه على دعوة المسلم إلى الإيمان الجازم والاعتقاد القطعي بوحدانية الله تعالى وربوبيته و ألوهيته فالقاضي عياض يلجأ في كثير من مطالع خطبه إلى تأكيد وحدانية الله ومعجزات خلقه، وفيض نعمه على البشرية مستعينا بالأدلة النقلية من الآيات القرآنية ، والأدلة العقلية الداعية إلى إعمال النظر في عظمة مخلوقاته تعالى، ذلك أن أي قراءة متفحصة لهذه المخلوقات الكونية من جماد و نبات وحيوان وإنسان، تؤكد واجب وجوده، وتنـــزه هذا العالم عن العبث والصدفة العمياء وتضع الإنسان في موضع العبودية، والتميز[1].

تضعه في موضع العبودية ، لأنه مخلوق كغيره من المخلوقات ، ضعيف أمام قدرة الله عز و جل ، غير قادر على مضاهاة بديع صنعها ، و لا عظمة خلقها ، و آيات معجزاتها ، فهو من الانبهار إلى التسليم بالعجز ، إلى إعلان الطاعة و الانصياع ، يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى :

" فهذبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله و اخلصوا ، و اشكروا نعمته ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ... ﴿٣٤﴾ ﴾[2] واحذروا نقمته ولا تعتصوا...وأنهضوا لطاعته هذه الهمم العاجزة، واركضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خصلة الفائزة ".

وتضعه في موضع التميز لأنه مخلوق ميزته الحكمة الإلهية، و لم تجعله كبقية المخلوقات الأخرى، فالإنسان قد وهبه الله خلقة سوية ثم توّجه بالعقل الذي هو ميزان الحق ، ثم سخر له كل ما في الكون فهو يعجز عن عد وحصر نعم الله عليه ظاهرها وباطنها ، وقد استدل القاضي عياض في خطبته المذكورة آنفا بالآية من سورة إبراهيم و التي تعد أرقى درجات التعبير فقوله عز وجل " لَا تُحْصُوهَآ "، هو نفي قاطع يقيني لا يرقى إليه الشك و لا يساور سامعه الظن.

ثم إن هذه النعم والآلاء قد جعلها الله سبيلا للخلود في حياة أخرى هي حياة أبدية ، هي حياة الخلود في الجنة للمتقين، وفي النار للكافرين ، ومن هنا جاء التكليف، وهو ما يميز الإنسان أيضا

---

[1]- الزباخ ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص227 - بتصرف.

[2]- سورة إبراهيم، الآية (34).

عن غيره من كثير من الموجودات إذ أن الله أنزل له شريعة ومنهاجا، فإن وافقه فاز، وإلا فقد خاب وخسر خسرانا مبنيا.

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى: " الحمد لله الذي سبق كل شيء قدما، ووسع كل شيء رحمة وعلما ونعما، وهدى أولياءه طريقا نهجا أمما، و﴿ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [1] أحمده على مواهبه وهو أحق من حمد، وأسأله أن يجعلنا ممن حظي برضاه وسعد ".

أما في الخطبة الثانية فيعمد إلى استعراض مظاهر عظمة الربوبية في الكون للتذكير بوجود العالمين : عالم الألوهية وعالم البشرية، هذا الأخير الذي يستمد كينونته وبقاءه من الأول ، بل وإن مآله لإلى الأول كذلك ، فيقول: " الحمد لله الذي خلق الأشياء كلها ، فقدرها تقديرا وجعلها على عظمته ووحدانيته دليلا وبرهانا منيرا " ثم يذكر آيات الله في خلقه " وجعل الأرض مهادا، وفجر خلالها تفجيرا أنهارا، ورفع السبع الشداد بغير عماد...وأنزل من المعصرات ماء ثجاجا ، فأخرج به من الأرض نباتا ، وجعل فيها لخلقه أرزاقا ، وقسّم بينهم بعدله أقواتا "، وبعد ذلك ينبه السامعين ويحذرهم من الغفلة ويذكرهم بمصيرهم الذي هو مصير كل إنسان " عباد الله، انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم ، وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا ، فإنها كأحلام نائم ، وأنتم عنها عن قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون".

وهذا الرجوع إلى الخالق البارئ المصور لا يكون إلا عبر طريق واحدة ووحيدة ارتضاها لعباده جميعا مؤمنهم وكافرهم، برهم و فاجرهم وهي طريق الموت ، فيقول عياض: " فاذكروا الموت وسكرته ". ثم يكون الجزاء الذي هو نتيجة طبيعيه للتكليف فيقول "والجنة ونعيمها والنار وعذابها " فبعد دعوته لذكر الموت يدعو إلى ذكر الجنة ونعيمها والنار وعذابها.

ب- الإيمان بالنبوة والقرآن:

إن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم صنو للإيمان بالله ولهذا قرن الله عز وجل ذلك في الشهادتين ، إذ أن مفتاح الإسلام هو قول الإنسان : أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، وهذا الشرف العظيم لم يخص به أي نبي قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان من عادة

---

[1]- سورة الكهف، الآيات (1،2، 3).

الشعراء والأدباء المسلمين الإشادة بهذا الشرف ومنهم حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول في شرف تسمية النبي صلى الله عليه وسلم باسم "محمد"

و شق له من اسمه ليجلــه   فذوا العرش محمود وهذا محمـــد[1]

وكان قبل هذا قد بين وجوب إعلان الشهادة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مرتين في كل آذان لكل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة، فيقول :

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال في الخمس المؤذن أشهـــد[2]

و إن من أوجب واجبات المسلم الإيمان والتصديق بأن محمد محمدا صلى الله عليه وسلم هو نبي رسول جاء من عند الله هاديا ومبشرا لكافة الخلائق، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾.[3]

و الإيمان بالنبي صلى الله عليه سلم وبغيره من الأنبياء السابقين عليهم السلام هو ركن ركين ، و واجب أكيد ، إذ من دونه لا يُسمى المؤمن مؤمنا ، يقول تعالى : ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[4].

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس، فأتاه جل فقال: يا رسول الله: ما الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله وملائكته، وكتابه ولقائه ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر".[5]

---

[1]- ابن ثابت – أبو الوليد حسان بن المنذر الأنصاري- الديوان – شرح وتهميش: الأستاذ: عبد أ . مهنا – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنـــان – ط 4 – 1425هـ/ 2004 م – ص 54.

[2]- المرجع نفسه – الصفحة نفسها .

[3]- سورة الأحزاب الآيتين (45، 46).

[4]- سورة البقرة الآية (177).

[5]- المندري ، الحافظ زكي الدين عبد العظيم- مختصر صحيح مسلم- تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني – قصر الكتاب- البليـــدة- الجزائـــر- ط1- للطبعة الجديدة – ص07.

ولقد تدرجت خطب القاضي عياض من الحديث عن مسألة الألوهية، إلى مسألة النبوة، فكانت الدعوة إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ملازمة للدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل، إذ أنها صنوان لا ينفصلان يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الثانية "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دبر العالم وجعله دليلا على وجوده...وأشهد أن محمدا عبده و رسوله بعثه بالحق بشيرا و نذيرا ، ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1]، أظهر الآيات بنبوته دليلا على صدقه، وأرسله للناس كافة، وختم به الرسل، واصطفاه بالحكم والنبوة، والعلم والحكمة، والرفق والرحمة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وبين الشريعة حتى أتاه اليقين بعد كمال الدين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأنصار والمهاجرين ".

ويقول في الخطبة الدينية الثالثة: "...و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ".

وإن افتتاح الخطبة بتحميد الله عز وجل والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية والربوبية والألوهية، ثم الشهادة لنبيه بالرسالة لهي مما جرت عليه العادة، بل إن خلت الخطبة منه صارت ناقصة أو سميت " بتراء " لأن ما حذف هو زينة الكلام .

وأعظم آية من آيات إعجاز النبوة المحمدية هو كتاب الله عز وجل " القرآن الكريم " الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية وإخراجها من الضلال الذي كانت تقبع تحته إلى النور التام في حياتها الروحية والمادية، والمسلم يؤمن " بأن القرآن الكريم كتاب الله أنزله على خير خلقه، وأفضل أنبيائه ورسله، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنزل غيره من الكتب على من سبق من الرسل، وأنه نسخ بأحكامه سائر الأحكام في الكتب السماوية السابقة ، كما ختم برسالة صاحبه كل رسالة سالفة".[2]

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى: " وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أنزل عليه الفرقان، وبعثه بالهدى والإيمان، وأخزى بدعوته دعوة أولياء الشياطين ".

والفرقان هو كتاب الله المبين الذي فرق الله عز وجل به بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الظلمات والنور.

---

[1]- سورة الأحزاب الآية (46).

[2]- الجزائري ، أبو بكر جابر- منهاج المسلم - ص21.

وقد نُدب المسلم إلى التدبر في آيات هذا الكتاب المحكمة، وعظاته البالغة، والتأمل في إعجازه، وعدم الإعراض عنه، و اتباع الهوى وغوايته.

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى: " أيها السامع قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته، فتأمل حدوده، وتدبر محكم آياته، ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ .[1]

" ذلك أن التأمل في آياته ينير بصائر المسلمين ويكشف لهم السبل المثلى في مختلف مناهج حياتهم الاجتماعية والدينية والعلمية و يروي ظمأهم لمعرفة أخبار الغيب العديدة التي تعجز عقولنا عن إدراكها، مما يقوي إيمان الفرد بربه ويجعله يدرك بمظاهر إعجازه استحالة مصدره البشري ".[2]

و القرآن الكريم يتعبد المسلم ربَّه بتلاوته، ولا تصح صلاة ليست فيها فاتحة، كما أنه مدعو إلى تطبيق أحكام آياته في شتى جوانب الحياة ، وكذا إلى تأمل إعجازها والوقوف على أسرارها.

ج- الإيمان باليوم الآخر (البعث و النشور والحساب):

لقد حث الإسلام على التأمل العقلي في الكون والموجودات تأملا قائما على السببية والغائية ، وهذا الكون النسيج العجيب المتناسق المتناهي الدقة لا يمكن أبدا أن يكون مصدره العبث أو الصدفة، بل لا بد له من خالق قادر ومدبر حكيم، ولكل موجود ومخلوق حكمة بالغة من إيجاده وخلقه، وهدف التأمل الإنساني هو السعي وراء هذه الحكمة، ولذلك جعل الإسلام للدنيا غاية هي حياة الآخرة الخالدة، فكانت الدنيا سفر وامتحان، وكانت الآخرة دار قرار و جزاء ، وكان لزاما على المسلم أن يؤمن " بأنه لهذه الحياة الدنيا ساعة أخيرة تنتهي فيها ويوما آخرا ليس بعده من يوم ثم تأتي الحياة الثانية ، واليوم الآخر للدار الآخرة، فيبعث الله سبحانه الخلائق بعثا ، ويحشرهم إليه جميعا لحاسبهم ، فيجزي الأبرار بالنعيم المقيم في الجنة ويجزي الفجار بالعذاب المهين في النار ".[3]

يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[4]

---

[1]- سورة الكهف، الآية (27).

[2]- الزباخ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص229.

[3]- الجزائري ، أبو بكر جابر- منهاج المسلم - ص31-32.

[4]- سورة الرحمن الآيتين: (26-27)..

من هذه الرؤية الإسلامية للدار الفانية، هون القاضي عياض في خطبه من شأنها وزخرفهـــا، ومتعها وحذر من غرورها ودعا إلى اجتناب لهوها، والاعتبار بزوال الأقوام العتاة الـــذين ملكتـــهم الدنيا بغرورها وزينتها حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، يقول في الخطبة الدينية الأولى: " أين الذين عتوا على الله وتعظموا ؟واستطالوا على عباده وتحكموا ؟وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] ،غـــرهم الأمـــل و كواذب الظنـــون، وذهلوا عـــن طـــوارق الغـــير، وريـــب الـــــمنون ، ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [2]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [3] ".

ولما كانت الحياة الدنيا سفر نحو الآخرة، فقد دعى القاضي عياض إلى اليقضة مـــن ســـكرة الهوى، وعدم الالتفات لملذات الدنيا الفانية، وتأكيد عبودية الإنسان لربه، وإخراجـــه مـــن ســـهوه الموجب للعتاب والتقريع ودعوته للاعتبار والاتعاظ، يقول في الخطبة نفسها: " أيها الســـامع، قـــد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته، فتأمل حدوده، وتدبر محكـــم آياتـــه، ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ."[4]

"و إذا كان الكون السائر إلى الفناء يدعو إلى الدهشة بل إلى الخوف مـــن المـــوت في حيـــاة الإنسان الكافر فإن المعرفة الإسلامية تذهب بهذا الخوف وتجعل للإنسان حياة أبقى بعد هذه الـــدار، وبذلك تتحول معرفتنا من شعور بالفناء إلى اطمئنان بانتقال...و إيمان ببعث جديد "[5].

وهذا الإيمان جعل القاضي عياض في خطبه يعمد إلى استمداد صور من مشاهد يوم القيامة، تذكيرا للمسلم باليوم الموعود، يوم يجمع الله سبحانه وتعالى كل الخلائق ليوم الحشر، وهذا لإيقـــاظ المسلم من غفلته، وتنبيهه من سهوته، يقول في الخطبة الدينية الأولى: " وادخروا ما يخلصـــكم يـــوم

---

[1]- سورة الكهف الآية: (59).

[2]- سورة القصص الآية (39)

[3]- سورة الجن الآية (24).

[4]- سورة الكهف الآية (27).

[5]- الزباخ ، مصطفى- فنون النثر الأدبي الأندلس في ظل المرابطين- ص231.

المحاسبة، و المناجزة، وانتظروا قوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[1]، ذلك يوم تذهل فيه الألباب، وترجف القلوب، رجفا وتبدل الأرض، وتنسف الجبال نسفا، ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا صرفا ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]، ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾[3]" .

وفي الخطبة الدينية الثانية يحذر المؤمنين من الغفلة، وينبهم لمصيرهم الذي هو مصير كل حي، ويذكرهم بما هم عنه ساهون، ناسون أو متناسون، إنه الموت، والقبر، والحشر، والميزان، والصراط والحساب، فيقول: " عباد الله، انتبهوا من غفلتكم وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم قبل حلول آجالكم، وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسكرته، وعذاب القبر وظلمته، وهول الحشر و بغتته ، و الميزان وخفته و الصراط ودقته و القصاص و جسرته " .

ثم يعمد بعد ذلك إلى الترغيب في الجنة، والترهيب من النار بذكر صور من عذابها، ليكون الإنسان أمام مسؤولية الاختيار لأن جزاءه لن يكون إلا من جنس عمله الذي اختاره في الدنيا وآتاه في حياته، فهو سبب لما سيلقاه في الآخرة من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، يقول في الخطبة نفسها بعد تذكيره بالبعث والنشور: " ... والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فمن يطع الله ورسوله، فله جنات عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين، ﴿ فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4]" .

فالخطبة تعرض صورا من عالم القيامة على وجه المقارنة والمقابلة، واللبيب لا يعدم الصواب في هذا الاختيار فهو مناط الصلاح البشري، ومركب النجاة من العذاب الأخروي، " ولأجل ذلك تتجه الخطبة اتجاها وعظيا إرشاديا، تحث فيه على الالتزام بأحكام الإسلام واجتناب هوى النفس الأمارة

---

[1]- سورة الكهف الآية (47).
[2]- سورة طه الآية (102).
[3]- سورة الكهف الآية (48).
[4]- سورة البقرة الآية (24).

بالسوء والحذر من غفلة الدنيا والعمل للآخرة مستعينة بأدوات فنيـــة مـــؤثرة، كحـــروف النـــداء والاستفهام داعية ومنبهة ".[1]

يقول القاضي عياض في الخطبة الدينية الأولى: " أيها السامع: قد أيقظك صرف القدر مـــن سنة الهوى وسكراته " ويضيف قائلا:" أين الذين عتوا على الله وتعظموا؟ واستطالوا علـــى عبـــاده وتحكموا؟ " ويقول في الثانية: " عباد الله: انتبهوا من غفلتكم وانظروا لأنفسكم ".

ويقول في الخطبة الجهادية الأولى: " أيها الناس: أنظروا لأنفسكم واستيقظوا مـــن غفلـــتكم وتأملوا ما يراد بكم " ويردف في الثانية قائلا: " أيها الناس: إن أحق النعيم بجزيل الشـــكر، وجميـــع الذكر نعمة عمت عوارفها، و تمت مباديها و روادفها، وملأت القلوب مسرة عواطفها ولطائفها ".

ففي هذه الوصايا دعوة للتدبر والاعتبار، وإلى إعمال الفكر والوجدان في تأمل مسألة البعث والنشور بهدف نيل السعادة في الدارين، فالإسلام يرغّب في الإيمان المبني علـــى الـــوعي والاعتقـــاد المؤسس على اليقين ، وقد استقى القاضي عياض هذه المفاهيم من مصادرها الشرعية التي تتمثل أولا في الخطاب الإلهي المجسد في القرآن الكريم، وكذا السنة النبوية اللذان يعتبران منبع كل معرفة عقليـــة وروحية، يقول تعالى في حق نبيه محمد صلى الله عليه وســـلم:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.[2]

كما استقى أيضا مفاهيمه من مصادرها العقلية والفكرية إذ أن التأمل في الكون، وتركيبـــه وعجائب مخلوقات الله فيه، والنظر بتدبر فيها، يقود حتما حسب مبدأ الســـببية والغائيـــة إلى إدراك وجود الله عز وجل ووحدانيته وربوبيته و ألوهيته، وكذا بنبوة النبي محمد صلى الله عليـــه وســـلم، وبالبعث والنشور التي هي أساس العقيدة الإسلامية، ولب الشريعة، " وبـــذلك كانـــت الخطابـــة العياضية تتدرج من الاعتقاد النقلي القائم على الإيمان بوحدانية الله وكتبه ورسله إلى الاعتقاد العقلي المبني على الملاحظة والمشاهدة لإدراك أسباب وغايات الظواهر، ثم إلى الاعتقاد العملي نحو بناء سلوك إسلامي في شخصية المجتمع البشري ".[3]

---

[1]- الزباخ ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص232.

[2]- سورة النجم: الآيتين (03-04).

[3]- الزباخ ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص 233-234 - بتصرف.

2-الخطاب المتعلق بالعبادات والمعاملات:

يتوجه هذا الخطاب اتجاها إرشاديا إذ يحث المسلم على الالتـــزام بالمثـــل الإســـلامية العليـــا والأخلاق السامية، والانصياع و الانقياد لأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، فالحض علـــى التقـــوى والطاعة، والصبر، والرحمة والجهاد إنما هي دعوة إلى " ترويض السلوك البشري على أخلاق الإسلام، الفاضلة وتحرير الشخصية الإسلامية من سجن الشهوات الحيوانية ، والمعتقدات الجاهلية ، وفي مقدمة هذه القيم الأخلاقية السامية الحث على تقوى الله وطاعته، لأن التقوى والطاعة هي جوهر الوصـــايا الإسلامية التي تناقلها المسلمون خلفا عن سلف "[1] يقول الله عز وجل ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾[2]

وأوصى القاضي عياض العباد بتقوى الله لتهذيب سرائرهم، وجعل التقـــوى مـــن أســـباب الإخلاص، ثم توجه بالدعوة إلى شكر نعم الله على عباده التي لا تعد ولا تحصى، يقـــول في الخطبـــة الدينية الأولى:

" فهذبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله، وأخلصوا، واشكروا نعمته، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ... ﴿٣٤﴾ ﴾[3]".

ثم يتجه نحو الإلحاح في مطالبة العباد بالصلاح، وفعل الخيرات، والإقدام على وجـــوه الـــبر، والنهوض من هذا الكسل، والخروج من هذه الغفلة فيقول: " وأنهضوا لطاعته هذه الهمم العـــاجزة، واركضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خصلة الفائزة، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة و المناجزة "، وهو لا يغفل ما لتوفيق الله عز وجل للعمل الصالح، و هدايته التي لا تتم للعباد هداية دونها، فيسأل الله عز وجل أن يرحمهم بهدايته، و أن يوفقهم بتوفيقه إلى طاعتـــه و شكر نعمه فيقول في الخطبـــة نفسها : " جعلنا الله و أياكم ممن اهتدى بهديه ، و تأدب بآدابه ، و من الـــذين قـــالوا ﴿ سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾[4] ، اللهم انفعنا بالكتـــاب

---

[1]- المرجع نفسه – ص234 – بتصرف .

[2]- سورة الشعراء-الآية (126).

[3]- سورة إبراهيم-الآية (34).

[4]- سورة الجن الآيتين (1-2).

والحكمة وارحمنا بالهداية والعصمة، و أوزعنا شكر ما أوليت من نعمـــه، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ ". [1]

وقد كانت ظاهرة السيادة الدينية في العصر المرابطي سمة بارزة أثرت في المضمون الفكـــري للخطاب الأدبي في هذه الفترة، إذ " عرفت الدولة المرابطية لونين من الصراع العقائدي في تاريخهـــا الديني والحضاري، كان الأول بقيادة حروب الاسترداد المهددة للوجود الإسلامي بالأندلس والـــتي دعمها رجال الكنيسة والصليبيون وكان الثاني بقيادة الدولة الموحدية المتشككة في مبـــادئ الدولـــة المرابطية الدينية والمتهمة المرابطين بالتجسيم والكفر فاستوجب هذا الصراع خطابات دينية." [2]

وقد دعا الخطاب الديني الذي تبناه القاضي عياض في خطبه خلال هذه الفترة للاستجابة إلى:

أ- الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وتثبيت ذلك في نفوس الناس وتحقيقه في حيـــاتهم من خلال مخاطبتهم فكرا ووجدانا، عقلا وعاطفة، لترسيخ الإيمان وتقويته.

ب- تأكيد اهتمام واحتفاء الدولة المرابطية بالدين وعلمائه واعتبارهم المرجعية الأولى لكـــل قراراتها وتصوراتها للسياسة والحياة وهذا ما تمت الإشارة إليه سابقا من أن الدولة المرابطية كانت دولة الفقهاء، إذ أنها قامت على أسس دينية بحتة، قوامها قواعد الإسلام وفضائله الأخلاقية والروحية التي هي أهم ركائز المنهج الإسلامي.

ثم إن القاضي عياض كان من أشد المدافعين عن الدولة المرابطية بل كان آخر حصونها، إذ أنه لما حاصر الموحدون مدينة "سبتة" وكان القاضي عياض قاضيها، أشار على أهلـــها بالـــدفاع عـــن مدينتهم، والذود عن أعراضهم وأموالهم، يقول في الخطبة الجهادية الأولى: " ومدينتكم هذه التي رموا إليها أبصارهم، وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، وهي عرضة للهلاك إن لم تشيد، وفرصة للعدو إن ترتب أمورها وتسدد "، كما أنه جعل طاعة ولي الأمر المرابطي والي" سبتة " من طاعة الله، وهـــذا من صميم العقيدة الإسلامية، فيضيف في الخطبة نفســـها: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ ...﴿٦٠﴾ ﴾ [3]، وعدة للقتال، واستكثروا من القسي و النبال، وبيض الصفاح، وسمر الرماح، فقـــد ألزمكم من لـــه الأمر عليكم ذلك، كما ألزمكم الله وأمركـــم ".

---

(1)- سورة الكهف الآية (10).

(2)- الزباخ مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص 236.

(3)- سورة الأنفال، الآية (60).

غير أن غلبة الموحدين وقهرهم للمرابطين وقضائهم عليهم، جعل دولة الموحدين تقوم، وسياستهم تعم وتتم، فما كان على القاضي عياض بعد هذه الغلبة غير التسليم لهم حقنا لدماء المسلمين، وتوحيدا لصفهم وجمعا لكلمتهم وقد ذكر الأستاذ عبد السلام شقور خطبةً للقاضي عياض في كتابه : "القاضي عياض الأديب" يدعو فيها للموحدين، وهي تمثل خطا فكريا جديدا في خطب القاضي عياض، حيث قال في ختامها: " اللهم انصر الموحدين نصرا عزيزا، وافتح لهم فتحا مبينا، وكفى بك نصيرا[1]، اللهم بدد شمل المجسمين، وحرّق جمع المفسدين، وكف عنا أيدي المعتدين، اللهم استعملنا بطاعتك، وثبتنا على دينك، وأعنا على شكرك وحسن عبادتك.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .[2]

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾[3]. "[4]

ففي هذه الخطبة يدعو القاضي عياض الله عز وجل بنصر الموحدين وبتبديد وتفريق شمل المجسمين أي المرابطين.

" وإذا كان القاضي عياض يتحاشى التصريح باسم المرابطيين الذين ألصق بهم الموحدون صفة التجسيم والكفر، فإنه يكتفي بإيراد بعض هذه النعوت التي تحفظ للعهد القديم مكانته في نفسه، وتظهر للعهد الجديد بعض مظاهر الولاء، مما يجعلنا نميل أكثر إلى أن القاضي عياض والى الموحدين سياسة وعلى مضاضة ".[5]

وقد جاءت خاتمة هذه الخطبة آيات قرآنية ، و هو المعهود في خطب القاضي عياض ، التي يختتمها عادة بأدعية من القرآن الكريم.

---

[1]-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ سورة النساء الآية (45).

[2]- سورة البقرة، الآية (127- 128).

[3]- سورة البقرة، الآية (286).

[4]- شقور، عبد السلام –القاضي عياض الأديب – ص375- 376.

[5]- الزباخ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص238.

ثالثـــا: الخصائص الفنية

لقد اعتمد القاضي عياض اعتمادا كبيرا على الخطبة في التعبير عن ثقافته الدينيـــة ومواقفـــه الأخلاقية لأن: " عياضا لم يفصل الأدب عن العلوم الإسلامية، بل إن ثقافته يتجلى فيهـــا النضـــج الطبيعي للعالم المسلم الذي يؤدي رسالته العلمية بأسلوب الأديب المتمكن، وبذلك فقد سخر الأدب لتلك العلوم "[1]

فهو جعل هذا الشكل من التعبير معرضا لمحفوظاته القرآنية وعقيدته الإسلاميـــة ،

إذ أنه "تقوم للعمل الأدبي شخصيته، ويتحدد ما فيه من طاقة وقوة بمقدار ما يســـتمد مـــن الحياة، وما يوصله إلى نفوس الآخرين من خبرة جديدة وفهم عميق للحياة ".[2]

وجاءت خطب القاضي عياض في خطين فنيتين متميزين يتسم الخط الأول بإحكام الصـــناعة وإيثار التأنق واستعمال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية استعمالا دقيقا ، في حين يتميز الخط الثاني بمظهرين الأول فني حيث تنـــزع نحو السهولة التعبيرية والعفوية في الأداء، والثاني فكري يمثل المنعطف الحياتي الجديد عند القاضي عياض الموالي لسياسة الموحدين طوعـــا أو كرها. [3]

فالقاضي عياض يلتزم أحيانا أساليب المتأنقين الحافلة بضروب المحسنات اللفظية والمعنويـــة، وأحيانا أخرى يرسل الكلام على السجية الأدبية دون إفراط في الصناعة، ولعل هذا هذا هو الصنف الغالب في خطبة، وهو ما عبر عنه ولده، في "التعريف" بقوله: " مليح القلم، من أكتب أهل زمانـــه، خطيبا فصيحا، حسن الإيراد، لا يخطب إلا بما يصنع ، خطبته فصيحة ذات رونق، عذبة الألفـــاظ، سهلة المأخذ ".[4]

وقد كانت الخطابة العياضية باعتبارها شكلا من أشكال التعبير معتمدة على جوانب التكوين الثقافي والعلمي للقاضي عياض التي كان لها بالغ الأثر في وسم خطبه بســـمات ميـــزات خاصـــة، وتجسدت هذه الجوانب في المؤثرات التالية:

1- الأثر الديني.

2- الأثر الخطابي.

---

[1]-الهراس ، عبد السلام – مجلة المناهل- العدد 19 السنة (07)- 1980- وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية – المغرب- ص614 .

[2]-اسماعيل، عز الدين – الأدب وفنونه – دراسة ونقد – ص23.

[3]-الزباخ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص214- بتصرف.

[4]-أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض- ص04-05.

3- الأثر البلاغي. [1]

وكانت هذه المؤثرات لبنات بُنيت عليها خطب القاضي عياض فأكسبتها طابعا خاصا جعلها متميزة شكلا ومضمونا.

1- الأثر الديني:

لقد كانت الآثار الأدبية للقاضي عياض معرضا واضحا وجليا لشخصيته الدينية وثقافته الإسلامية، " كالخطابة التي عبرت عن رتبته العالية في علوم الشريعة، وخاصة في القرآن الكريم الذي بسط ظلاله الفنية في خطبه فأكسبها رونقا جماليا، ومظهرا بلاغيا راقيا، فقد كان عياض -كما يبدو- مشدودا بظمإ لاهب إلى توظيف الآيات القرآنية واستخدام حقائقها وبلاغتها في التعبير عن أرائه ". [2]

ففي الخطبة الدينية الأولى مثلا لا تخلو فقرة منها من آية قرآنية، ومن سور مختلفة فقد وظف آيات من سورة "الكهف" وسورة "الجن" وسورة "القصص"، وسورة "إبراهيم" وسورة "طه".

وتوظيف الآيات القرآنية ومعانيها يعد ظاهرة بارزة في خطب القاضي عياض فهي وسيلة إقناع يستدل بها و يبرهن بواسطتها على الحقائق التي يريد إثباتها و الدعوة إليها . كما أنها من جانب ثان تعد وسيلة استمالة لوجدان المؤمن الذي إذا سمع قوله تعالى فإنه يقول رأسا : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾** ﴾. [3]

ومن جانب ثالث فإن آيات القرآن الكريم تعد غاية في روعة البيان، وقمة في البلاغة، وهذا البيان والبلاغة هما أداة فنية جمالية من أدوات بناء التعبير في الخطابة، فالقاضي عياض لم يشذ عن فطاحل البلاغة والبيان الذين كانوا "يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن الكريم، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع ". [4]

وخطب القاضي عياض جاءت معرضا للآيات القرآنية، فهي عمودها الذي تقوم عليه، وهي العبارة التي تؤدي المعنى المراد، بأيسر تعبير وأقصره، كما أنه خصص إحدى خطبه وهي الخطبة الدينية الثالثة لعرض أسماء الصور القرآنية في تسلسل موافق لترتيبها في المصحف، في سرد بديع ضمن فيه

---

[1]- الزباخ مصطفى، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص240-243.

[2]- المرجع نفسه - ص240.

[3]- سورة البقرة الآية (285).

[4]- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر -البيان والتبيين- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة- مصر- ط7- 1418هـ/1998م- ص118.

أسماء السور و ربط بينها بكلام موافق لهذه الأسماء أو للمعاني التي جاءت بها هذه السور، يقـــول في مطلعها: "الحمد لله الذي افتتح "بالحمد" كلامه ، وبين في ســـورة "البقرة" أحكامه، ومد في "آل عمران" و"النساء" و"مائدة" "الأنعام" ليتم إنعامه، وجعل في "الأعراف، أنفال- توبة- يونس" و"الـــر كتاب أحكمت آياته" بمجاورة "يوسف" الصديق في دار الكرامة، و سبح" الرعد" بحمده ، وجعـــل النار بردا وسلاما على " ابراهيم" ." و واصل في هذا الأسلوب وبهذه الصـــياغة، إلى أن وصـــل في ختامها إلى قوله: " "فالكوثر" مكتوب لهم، و"الكافرون" خذلوا، وهم "نصروا" وعدل بهم عن "لهب" الطامة، وبسورة "الإخلاص " قـــروا و سعدوا ،و برب" الفلق" و " الناس" استعاذوا فأعيذوا مـــن كل حزن وهم وغم وندامة...".

فهو قد اهتم اهتماما كبيرا وحرص حرصا شديدا على أن يكون تضمينه لأسماء سور القرآن وفق معنى مفيد ، و دلالة مقصودة حقيقية، وليس رصفا للأسماء فقط.

وقد لا حظ المقري هذا الاهتمام من القاضي عياض بتضمين آيات القرآن الكريم في خطبـــه، فقال عنها: " خطبه التي سارت بفصاحتها الركبان، ولهج ببلاغتها الشيب والشبان، وكان منها مـــا نسجه على بعض سور القرآن، بطريق الاقتباس الذي لا يلحق سامعه شك في تبريـــزه ولا التبـــاس "[1].

وقد عارض خطبة القاضي عياض المتضمنة أسماء سور القرآن الكريم الكثير من الخطباء ومنهم ، الخطيب سعيد بن احمد المقري (ت 1010 هـــ) ، عم المقري صاحب " النفـــح" ، و " أزهار الرياض". يقول المقري في " أزهار الرياض": " وقد وقفت على نظيرتها، منسوبة لغيره بتلمسان بخط مولانا الإمام المفتي الخطيب العلامة شيخ الشيوخ عمنا سيدي سعيد بن أحمد المقري – صب الله عليه شآبيب رضوانه "[2].

ومن الدارسين من أعاب على القاضي عياض هذه المبالغة في التضمين، يقول الدكتور عبد العزيز عتيق:" ومنذ عصر المرابطين بدأت تظهر في الأدب الأندلسي القصائد والخطب التي تتضمن التورية بأسماء سور القرآن وهذا لون من النظم والنثر تفرد به الأندلسيون في عصورهم المتأخرة، ومن ذلك خطبة للقاضي عياض المتوفي سنة 544هـــ وهي خطبة بادية التكلف، التزم فيها القاضي عياض التورية والسجع، والمبالغة غير المقبولة في طول الجمل "[3].

---

[1] – المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني- أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 170 .

[2] – المصدر السابق – ص 82 .

[3] – عتيق عبد العزيز- الأدب العربي في الأندلس – دار النهضة العربية- بيروت- لبنان – ص 444 - 445 .

ثم أورد مقاطع من الخطبة المتضمنة أسماء السور القرآنية وأضاف معلقا: " وعلى هذا النحو من التكلف والتعسف مضى القاضي عياض في التورية بأسماء سور القرآن إلى النهاية"[1]. وبعدها يعتب على الخطباء الذين انبهروا بـــها وعارضوها فيقول: " ويبدو أن هذا النوع من الخطب قد راق بعض خطباء الأندلس فاخذوا في محاكاته ومعارضته، وممن فعل ذلك الخطيب سعيد بن أحمد المقري في خطبه له "[2].

وعلى الرغم من التكلف البادي على هذه الخطبة والصناعة التي تخضع لها فإن ذلك لا ينقص من قيمة خطب القاضي عياض، التي كانت مرصعة بآيات القرآن ترصيعا، وهذا إنما يدل على أن الخطبة عنده، إنما تخدم بأشكالها التعبيرية رسالته الدينية والأخلاقية، فهو الخطيب القاضي الفقيه الواعظ المرشد ، كما أنه يدل على حسه الجمالي الذي جعله يتعلق بأسمى نماذج الجمال الفني والإبداع البلاغي وهي آيات القرآن الكريم، فمن سمو ذوقه الأدبي كان لا يخطب إلا بخطب موشحة بالبلاغة القرآنية يقول قدامة ابن جعفر: " كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله في أولها البتراء، وكل خطبة لا توشح بالقرآن و الأمثال الشوهاء "[3].

وربما تفسير تكلف عياض في تضمينه لأسماء سور القرآن في خطبة واحدة يرجع لكونه:" من أهل الصناعة، الذين تغلب عليهم الحرفة في بعض الأوقات فيجعلون كلامهم خاضعا لقيود تدل أوضح الدلالة على أن أصحابها يستطيعون مالا يستطيعه سواهم ممن يسيرون في الطريق، أو يجتازون ذلك المضمار"[4].

فتكون بذلك الآيات القرآنية عمود البناء الخطابي في خطب القاضي عياض، تستمد منها روعة البيان وجودة التعبير وجمال البلاغة .

2- الأثر الخطابي:

إن التعبير الخطابي الذي يقوم عليه البناء الفني للخطبة له خصائص مميزة له عن التعبير المعتمد في فنون النثر الأخرى ، ذلك لأن هدف الخطبة هو التأثير في العقل والوجدان عن طريق البرهنة والاستدلال واستمالة الأسماع والأرواح ، ومن خصائص التعبير الخطابي عند القاضي عياض اعتماده على المقارنة والمقابلة بين الحقائـــق المختلفة ، يقول في الخطبة الجهادية الثانية : " الحمد لله الذي

---

[1] - المرجع نفسه - ص 445.

[2]- المرجع نفسه - ص 445.

[3] - ابن جعفر، قدامة - نقد النثر- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان - 1402 هـ / 1980 م - ص 95 .

[4] - أبو الخشب ، ابراهيم علي- تاريخ الأدب العربي في الأندلس- دار الفكر العربي- القاهرة- مصر - 1970 - ص 108.

أظهر في مصنوعاته دلائل وجوده ، و أظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام، عوالي رايات الكفر وبنوده، وكشف عن قلوب ما غشيها من روعة عدته وعديده " ، كما يعتمد على التمثيل بالأقوام السالفة، ويحذر من اتباع سبيلهم وانتهاج نهجهم خوف لقاء مصيرهم فيقول في الخطبة الدينية الأولى: " أين الذين عتوا على الله وتعظموا، واستطالوا على عباده وتحكموا ؟ وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا " فهو يوظف الأساليب بنوعيها، الخبري والإنشائي، ويخاطب العقول حينا، والعواطف أحيانا، غير أن أسلوب الإنشاء الطلبي من أمر ونهي و استفهام ونداء كان الأظهر في خطبه لأنه يقف غالبا موقف الواعظ المرشد في خطبه:" ففي الأمر نجد صيغ الخطاب تتنوع بين الطلب والالتماس والتحذير بألفاظ منها:" هذبوا، اشكروا، احذروا، ادخروا،... " طالبة الصلاح من أفعال العباد" [1].

يقول في الخطبة الدينية الأولى:" فهذبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله، وأخلصوا، واشكروا نعمته...واحذروا نقمته... واعتبروا بوعيده ... وأنـــهضوا لطاعته هذه الهمم العاجزة ، و اركضوا في ميدان التقوى...وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة..."و في النهي يحذر ويخوف ويرهب الإنسان من غياهب المعصية والضلال ،كما يرغبه في نور الطاعة والهدى كقوله في الخطبة الدينية الأولى: " ولا تعتصوا" وقوله في الثانية : " ولا تغتروا بالدنيا فإنها كاحلام نائم ".

أما الاستفهام فقد وظفه القاضي عياض توظيفا تقريريا، بغية تنبيه الغافلين إلى الحقائق التي يدركونها تمام الإدراك غير أنهم يتجاهلونها وهذا من صميم دور المرشد الواعظ إذ أنه يذكر بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [2]. فالناس على علم بموتهم وفناء الدنيا غير أنهم يعملون لها عمل الخالدين ويتجبرون فيها و يطغون و يعتون على أمر ربهم ويستطيلون على عباده ، يقول في الخطبة الدينية الأولى: " أين الذين عتوا على الله وتعظموا ؟ واستطالوا على عباده وتحكموا؟ وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا ".

ولكي يشعر القاضي عياض مستمعيه بمدى بعدهم عن صراط الله القويم، ومنهجه السليم، فإنه يأتي بالنداء، للمفرد حينا، وللجمع أحيانا، وذلك للفت الانتباه وجلب الاهتمام واستمالة الأسماع لعل الأرواح تعي ما يلقى إليها وتلبي النداء وتستجيب لداعي الهدى، يقول في الخطبة الدينية الأولى : " أيها السامع، قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته

---

(1)- الزباخ ، مصطفى – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين – ص 242 .

(2) – سورة الذاريات الآية (55).

" ويقول في الثانية: " عباد الله، انتبهوا من غفلتكم وانظروا لأنفسكم واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم وانقطاع آمالكم " ، بينما ينادي الجمع في الخطبة الجهادية الأولى منبها لخطر العدو ومحذرا من سطوته وبطشه على حين غفلة : " أيها الناس انظروا لأنفسكم واستيقظوا من غفلتكم وتأملوا ما يراد بكم واستعدوا لما أعد لكم وتحفظوا قبل أن يحاط بكم " ، والقاضي عياض في كل هذا يجعل الله عز وجل ملاذه الأول والأخير، إذ انه لا يغفل رحمته ورأفته بعباده، فكثيرا ما يتضرع بدعائه سبحانه طلبا للهداية والرحمة ، كقوله في ختام الخطبة الدينية الأولى: " اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة وارحمنا بالهداية والعصمة و أوزعنا شكر ما أوليت من نعمة ".

" ونلمس من ذلك الطابع الوعظي الذي يتدرج بالسامعين من حالة إلى أخرى بألوان فنية متباينة تتخذ أسلوب الوصية حينا وشكل الأدعية أخرى "[1].

وذلك من خلال حرصة على وعظ السامعين مقدما لهم النصائح والإرشادات التي تواصى بها السابقون فنالوا بـــها الصلاح والقبول وينقلها هو بدوره لعلها تقع موقعا ينفع به الله من شـــاء من عبـــاده.

3- الأثر البلاغي:

لقد كان القاضي عياض شديد الاحتفال بالبلاغة وفنونها وهذا ما جعل خطبه معرضا لبراعته في هذا الجانب، فالبيان والبديع جليان في خطبه إذ أن أسلوبه ينم عن ثقافة بلاغية واسعة انطلاقا من اختيار الألفاظ الموحية وصولا إلى الصور الرائعة مروا بالتراكيب المتينة الدقيقة : " فهو - كما يبدو - فنان بارع في صناعته الإنشائية يبرع في عملية التلوين الفني فيحسن رصف الكلمات وتنويعها بدقة الصانع في عملية التلوين الفكري، ويحسن توظيف الآيات بثقة العالم ، فجاءت خطبه تعبيرا عن الوثبة الأدبية والثقافة التي عرفها النثر الفني لهذه الفترة "[2].

وأوضح ظاهرة بلاغية وأكثرها جلاء في خطبه هي كثرة اقتباسه من القرآن الكريم حيث لا تخلوا أية خطبة من خطبه من الاقتباس من آيات الكتاب المبين و على كثرة توظيفه للآيات القرآنية -كما مر سابقا - فهو كذلك يكثر بل ويفرط من الاقتباس منه وهذا إنما يدل على مدى ولعة بالقرآن وشدة تعلقه به واعتباره المثل الأعلى في الشكل والمضمون ، إذ يحاول دائما محاكاته ، ففي الخطبة الدينية الأولى مثلا يقول: " الحمد لله الذي سبق كل شيء قدما، ووسع كل شيء رحمة

---

[1]- الزباخ ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص 243

[2]- المرجع السابق - ص 243 .

وعلما ونعما " وهو اقتباس من قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾[1]. كما يقول في الخطبة الدينية الثانية :" الحمد لله الذي خلق الأشياء كلها فقدرها تقديرا، وجعلها على عظمته ووحدانية دليلا وبرهانا منيرا وجعل الأرض مهادا وفجر خلالها تفجيرا أنهارا ورفع السبع الشداد بغير عماد وأنزل من المعصرات ماء ثجاجا فأخرج به من الأرض نباتا وجعل فيها لخلقه أرزاقا " فمطلع هذه الخطبة كله اقتباس من آيات مطلع سورة النبأ من قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾[2]. كمـــا خلّلها باقتباس من قولـــه تعالى في سورة الإســـراء : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾[3]. أما حديثه عن نور القمر وضوء الشمس التي هي سراج الدنيا فمقتبس من قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾[4].

وغير هذه الأمثلة كثير إذا أنها فاقت المألوف في خطب السابقين للقاضي عياض فخطبته الدينية الثالثة التي ضمن فيها أسماء سور القرآن زاخرة بالمعاني القرآنية البديعة التي اقتبسها من الآيات التي تناسب المعنى المراد وهذا الحكم لم تشذ عنه أيضا خطبه الجهادية مع تفاوت في الكثرة والقلة.

و لم يقتصر اقتباس القاضي عياض في خطبه على آيات القرآن الكريم وإنما تعداها إلى الموروث الثقافي والأدبي الزاخر للغة العربية ومن ذلك تضمينه الحكم والأمثال في خطبه ، كقوله في الخطبة الجهادية الأولى: " فقبل الرمي تراش السهام" ، وهو دعوة إلى عدم التباطؤ والتخاذل وإنما السعي إلى اتخاذ الأسباب والاستعداد للملمّات والخطوب.

والاقتباس والتضمين من مقومات الفن الخطابي إذ درج الخطباء على التفنن في الاقتباس من التراث العربي والإسلامي فيتمثلون بالأبيات الشعرية المشهورة ويستشهدون بأحاديث النبي صلى الله

---

[1] – سورة غافر الآية (07) .

[2] – سورة النبأ الآيات من (06) إلى (16)

[3] – سورة الإسراء الآية (91)

[4] – سورة الفرقان الآية (61)

عليه وسلم، أما القاضي عياض فجل اهتمامه إن لم يكن كله كان منصبا على الاقتباس من القرآن الكريم سواء عن طريق توظيف الآيات كاملة بنصوصها أو أجزاء منهـــا أو معانيها وبعض ألفاظها ، وقد كانت خطبه شديدة الاتصال بالدين سواء الدينية الشرعية منها أو الجهادية التحريضية .

كما أنه كان أحيانا لا يبتكر الصور من عنده وإنما يأتي بصور من التراث الثقافي العربي الإسلامي والذي يعيه حق الوعي، كقوله في الخطبة الجهادية الأولى: " فقد جدت بكم الحرب فجدوا وشمرت عند ساقيها فشدوا " فقوله :" شمرت الحرب عن ساقها " : " من الصور المكررة في الأدب العربي ويظهر أن قدرة عياض الأدبية لا تتجلى في التوليد ولا في التشخيص و التخييل ولكن في التقسيم والتلوين الموسيقي وإن شئت قلت إن عقلية عياض تبدو لي عقلية رياضية ، ولعله كان يشعر بذلك فتراه يغطي ضعفه هذا في مجال الأدب بمجموعة من التقنيات التي هي وليدة الجهد العقلي وكد الفكر تلك هي الصورة العامة لأدبه "[1].

كما أن القاضي عياض قد التزام بأنواع البديع أحيانا على نحو جعله يخرج إلى الصنعة والتكلف " ففي التلوين الفني يلقانا لونان من ألوان التعبير، لون نحا فيه منحى المتصنعين الذين تكلفوا في إظهار براعتهم اللغوية و محفوظاتهم الثقافية حين بناه على الاسلوب المسجع المعقد ....أما اللون الثاني فيرسل فيه الخطاب إرسالا تأتي فيه الأسجاع عفوية مولدة إيقاعا نغميا على شكل الأسلوب المتوزان الذي تحرر من الأسجاع المتكلفة ، فيأتي الأسلوب ذا مسحة من الجمال الفطري والإيقاع الأدبي المعتمد على تعادل الفقرات وحروف العطف "[2].

وهذا ما يجعل ظاهرة الصنعة يخف ثقلها ولا تأتي طاغية رغم بروز بعض المحسنات البديعية كالطباق و الجناس .

وفي الخطبة الدينية الأولى خير مثال على التزام القاضي عياض بالأسلوب المسجع وكأنه في معرض المبارزة اللغوية ، فهو يبني خطبته بكاملها على فقرات تختتم كل منها بكلمة تنتهي بحرف " الدال" ، فالخطبة تتكون من فقر تكاد تكون متساوية بل أنها متساوية من حيث الايقاع وكل فقرة مختومة بآية قرآنية ،والكلمات الأخيرة من كل آية متفقة في الحرف الأخير وهذا الحرف هو " الدال " في هذه الخطبة وقد التزمه الخطيب في الخطبة كلها فجاء كالقافية بالنسبة للقصيدة الشعرية [3].

---

[1]- شقور ،عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 200-201

[2]- الزباخ ، مصطفى– فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين – ص 243-244 – بتصرف .

[3] – شقور ، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 190 .

ولم يكتف القاضي عياض بذلك وإنما أردفه بعمل آخر أكثر تعقيدا وأشد صعوبة جعل من خطبته غاية في البراعة وقمة في التفنن ، إذ أنه إلى جانب ذلك " فقد جعل الخطيب كل فقرة مكونة من أربع فواصل والتزم ذلك أيضا في الخطبة كلها والتزم حرفا واحدا في كل فقرة، ومعنى كل ذلك أن الخطبة بنيت على حرف واحد يختم به كل فقرة وهنا حرف " الدال" في هذه الخطبة بالإضافة إلى الحرف الذي بنيت عليه الفقرة"[1].

ومن أمثلة الفقر الواردة في هذه الخطبة (الخطبة الدينية الأولى) هذه الفقرة التي تختتم بحرف " الهاء" ثم في النهاية بحرف " الدال" لتوافق نهايتها نهاية بقية الفقر يقول:

أيها السامع، قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته

ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته

فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾[2]

ثم يقول في الفقرة الموالية:

أين الذين عتوا على الله وتعظموا؟

واستطالوا على عباده وتحكموا ؟

وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾[3].

وهذا هو بناء الفقر كلها فجمل الفقرة تنتهي بحرف واحد ثم تنتهي الجملة الأخيرة منها بحرف " الدال" لتكون موافقة لبقية الفقر.

" وقد تطلب هذا العمل من عياض أن تكون الآية التي يختم بها كل فقرة ذات فاصلتين الأولى توافق الفواصل الداخلية لكل فقرة والثانية توافق أواخر كل فقرة"[4].

---

[1] المرجع السابق – ص 190 - بتصرف .

[2]- سورة الكهف الآية (27)

[3]- سورة الكهف الآية (59)

[4] -شقور ، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 191.

والصعوبة تكمن هنا فيما قيد القاضي عياض نفسه به إذ عليه الإتيان بآية ذات فاصلتين الأولى تساير الفواصل الداخلية والثانية توافق فواصل الفقر.

" وكان عياض يلجأ في بعض الأحيان إلى الإتيان بآيتين من سورتين مختلفتين ليتم له ما يريد ، هذا ومن الطبيعي أن تكون الآية أو الآيتان في خدمة المعنى العام للخطبة ،وعمل بمثل هذا التعقيد يوقع عادة في التكلف الممقوت إلا أن خطبة أديبنا بريئة من ذلك والدليل على ذلك هو أن القارئ لا بد أن يقرأها مرات متعددة قبل أن يفطن إلى هذه الهندسة العجيبة التي بنيت عليها " [1]. وذلك راجع إلى عدم تكلفه في الألفاظ ، وعدم استعماله للمفردات الغريبة أو الثقيلة على النطق والسمع إلا ما جاء منها عفويا في ثنايا الكلام ، إضافة إلى أسلوبه المباشر الذي لا ليّ فيه ولا التواء ، لأن التكلف عادة ما يقود صاحبه إلى الصنعة الممقوتة ويوقعه في كل مكروه من الكلام.

والأمر ليس كذلك بالنسبة للقاضي عياض إذ أن خطبته هذه (الخطبة الدينية الأولى) تعد نموذجا رائعا للأسلوب الوعظي الذي يتخذ القرآن الكريم المثال الأول والمصدر الأسمى لكل توجيهاته ، إذ أنه اتكأ على القرآن الكريم اتكاء كليا .

كما أن ولع القاضي عياض وشغفه بالصنعة " لا يعني ولعه بالتكلف المقيت والآية على ذلك أنه لم يمل كل الميل إلى ما ابتدعه الآخرون و اتبعوه من قواعد بديعية لا تتلاءم مع الطبع الصافي و الذوق السليم"[2].

وهذا على الرغم من أنه قد اعتنى اعتناء كبيرا بفنون البديع من سجع وطباق وجناس وغيرها، فالطباق يجعل السامع يقف موقف المقابلة بين الصور، و من أمثلته في الخطبة الدينية الأولى:

يهد/ يضلل، أيقظ/ سنة ، نعمته/ نقمته .

ومن أمثلة الجناس:

فاتحة: راجحة، آياته: كلماته، تعظموا: تحكموا، الظنون: المنون .

وهذه الأمثلة من الجناس الناقص وغيرها قد جعلت لخطبه نغما داخليا تأنس له الأذن ويطرب له السمع.

هذه أهم المظاهر البلاغية في خطب القاضي عياض التي يـــمكن القول من خلالـــها أن خطب عياض كانت معرضا أيضا لثقافته اللغوية والأدبية الواسعة " وأنها كانت سجلا لمعارفه المتباينة

---

[1]- المرجع السابق – ص 191 .

[2] – مرتاض ، محمد – النقد الأدبي القديم في المغرب العربي – نشأته وتطوره – (دراسة و تطبيق) – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – سوريا – 2000 – ص 132 – بتصرف .

في العلوم الدينية واللغوية والنحوية وكلام العرب، مؤكدا بها طابع المرحلة الانتقالية التي عمقت الأسلوب التوفيقي بين القيم الفطرية والقيم الحضارية الجديدة بين الأسلوب البدوي المؤثر للعفوية و الأسلوب الحضاري المغرم بالإصباغ والمحسنات "[1].

وهذه الثقافة تجسدت في الاقتباس والتضمين وتوظيف المحسنات من سجع وطباق وجناس التي ولدت أوزانا متناسبة كان لها أثرها في الأسماع .

---

[1]- الزباخ ، مصطفى - فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص 244- 245 .

الفصـــل الثـــاني

الـــرســـائـــــــل

I- تعريف الرسالة وأنواعها

II- **فن الرسالة عند القاضي عياض**

III- نماذج من رسائله

IV- البناء و التشكيل الفني

أولا : الهيكل العام

ثانيا : الخصائص الفنية

I- تعريف الرسالة وأنواعها:

1- تعريف الرسالة:

أ- لغة: الرسالة في اللغة مشتقة من مادة "رَسَلَ" والرَسَلُ القطيع من كل شيء.

والجمع: أرسال، والرَسل: الإبل.[1]

يقال: جاء وأرَسْلة رَسْلة، أي جماعة جماعة.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، دخل الناس أرسالا يصلون عليه، أي أفواجا وفرقا متقطعة يتلوا بعضهم بعضا. والرِسْلُ والرِسْلةُ: الرِفْقُ والتُؤدة.[2]

ومن المجاز: أرسل الله عليهم العذاب، وأرسله الله عند يده: خذله، وأنا أسترسل إلى فلان: أَنْبَسِطُ إليه. والسهام رُسُلُ المنايا.[3]

ويقال أرسَل القوم إذا كان لهم رَسْلٌ، وهو اللبن، ورسِيل الرَجُلِ: الذي يقف معه في نضال أو غيره،كأنه سمي بذلك لأن إرساله سهمَهُ يكون مع إرسال الآخر ... وإبل مراسيلٌ أي سِراع، المرأة الـــمُراسِل التي مات بعلها، فالخطاب يراسلونها، وتقول على رِسْلِكَ أي على هينتك ... والرّسل الرخاء ... المرسَلات: الرياح.[4] والتَرسُل كالرِسْلِ، والترسل في القراءة والترسيل واحد: وهي التحقيق بِلاَ عَجَلة، وقيل: بعضه على أثر بعض، وتَرَسَل في القراءة اتأد فيها ... يقال: ترسل الرجل في كلامه ومشيه إذا لم يعجل، وهو والرَسُلُ سواء ... والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والإسم الرسالة، والرَسَالة، والرسُول، والرَسل ... والرسول: بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر.[5]

وتراسل القوم: إذا أرسل بعضهم إلى بعض.

وراسَلَهُ مُرَاسَلة، فهو مُرَاسِلُ ورَسِيل، وأَرسَلَه في رِسَالَة، فهو مُرْسَل ورَسُول، والجمع رُسْل ورُسُل.[6]

قال تعالى: ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[7].

وقال جل شأنه: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴿٧٩﴾ ﴾.[1]

---

(1) - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - لسان العرب- جزء 11 - مادة (ر. س. ل) - ص 281 .

(2) - المصدر نفسه- ص 281.

(3) - الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر - اساس البلاغة - ص 159.

(4) - ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا - معجم مقاييس اللغة - مجلد 02 - ص 392.

(5) - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم- لسان العرب-ج11- ص 282- 283.

(6) - الرازي، محمد ابن ابي بكر- مختار الصحاح- ص 162.

(1) - الشعراء آية (16).

يقول قدامة بن جعفر: "الترسُلُ من تَرَسَلْتُ أترسل، تَرَسُلا وأنا مُتَرَسِلُ... ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسَائل قد تكرر... ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أَرْسَلَ يُرْسِلُ إِرْسَالا وهو مُرْسِل، والاسم الرسالة، أو رَاسَلَ يُرَاسِل مُرَاسَلة فهو مُراسِل، وذلك إذا كان هو ومن يُرَاسِلُهُ قد اشتركا في المرُاسَلَة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يُرَاسَلُ بـــه من بعـــد أو غاب ، فاشتق له اسم الرُسل، والرِسَالة من ذلك.[2]

ومن هنا يتضح أن الرسالة في مفهومها الأصلي تدور حول التبليغ، والتواصل سواء كان ذلك بطريقة شفوية أو كتابية، وهذا يستدعي وجود مرسل، ومرسل إليه، وكذا وجود رسالة يتم انتقالها بينهما، فإن كان هناك ناقل للرسالة سمي رسول.

ب- اصطلاحا:

الرسالة في الاصطلاح هي كلام مكتوب يوجه إلى شخص أو أكثر، يتم فيه التعبير عن فكرة، أو شعور أو عاطفة، كما أنها قد تحمل أمرا، أو نهيا أو تعيينا أو عـــزلا، أو قبولا بأمـــر أو رفضا له.

يقول أحمد الهاشمي: "المكاتَبَةُ، وتعرف أيضا بالمراسَلَةُ، هي مخاطبة الغائب بلسان القلم، وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث إنها تُرْجُمَان الجنان، ونائب الغائب في قضاء أوطاره ورِبَاطُ الوِدَادِ مع تباعد البلاد، وطريقة المكاتبة هي طريقة المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنسبة بينهما".[3]

وهو هنا يشترط مراعاة أحوال المرسل، والمرسل إليه، وكذا العلاقة بينهما، فرسالة الأمير للرعية غير رسالته لعماله و ولاته، ورسالة الوالي لقاضية، غير رسالته لأميره، ورسالة الأديب لزميله وصديقه غير رسالته لشيخه وغيرها.

يقول القلقشندى: "الرسائل هي جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب، من حكاية حال من عدو أو صديق، أو مدح أو تقريض، أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى وسميت رسائل من حيث أن الأديب المنشئ لها، ربما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال".[4]

---

[2] - الأعراف الآية (79).

[3]- ابن جعفر، أبو الفرج قدامة الكاتب البغدادي - كتاب نقد النثر - ص 95.

[4] - الهاشمي، السيد أحمد - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب - ص41.

[1] - القلقشندى، أبو العباس احمد بن علي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية - القاهرة - مصر- 1338هـ / 1919م - ج14 - ص 138.

والرسالة: " قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعا لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه، وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سببا، وقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يستشهد به من شعر غيره، وتكون كتابتها بعبارة بليغة، وأسلوب حسن رشيق، وألفاظ منتقاة، ومعان طريفة". [1]

فهي ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة، إذ تمثل تواصلا مع الآخر وتعبيرا عن الذات الكاتبة متجاوزة للبعد و الغياب .

وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدى سطورا محدودة، وينطق فيها الكاتب عادة على سجيته بلا تصنع أو تأنق، فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع وغالبا مايكون غرضها شخصي محض، إلا أن الرسائل الأدبية لم تنحصر يوما في حيز هذا المفهوم الضيق، فهي مهمة يتمرس بها الأديب من خلال الآثار التي يبدعها في شتى الموضوعات. [2]

فالرسالة إذا فن نثري يتردد بين الإبداعي والوجداني والوظيفي الرسمي، فهي كفن أدبي أخذت طريقها بين الفنون النثرية، وأصبحت لها قيمتها الفنية وبنيتها الخاصة، حيث تبرز شخصية الكاتب وقدرته على نقل الشعور وتوصيل الفكرة إلى المتلقى، أما من حيث بنيتها فلها ثلاثة محاور: الأول المقدمة وتتميز بحسن الافتتاح المعتمد على جودة الصياغة ووضوح المعنى والإيجاز، والثاني العرض حيث تفصل فيه القضية وتتضح ملامح شخصية الكاتب وميولاته، والثالث الخاتمة التي يصوغ فيها الكاتب خلاصة قوله بإيجاز، وقد يستغنى أحيانا عن الخاتمة.

والرسالة تشبه الخطبة إلى حد كبير، والفرق بينهما أن الخطبة تكون مرتجلة في أصلها، وهذا ما جعل جل النقاد بخاصة الأقدمين يتساهلون كثيرا مع الخطيب المرتجل، ويغفرون له هنات لا يغفرونها للكاتب، لأن الكتابة مضنة التدقيق والتمحيص والتروي والمراجعة، في حين يخلو الارتجال في الخطبة من ذلك، كما أن الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي لا يختلفان كثيرا.

فهذا أبو هلال العسكري يقول: " واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان على أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة ... إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها، والرسالة تُجعل خطبة

---

[2] - عتيق، عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس - ص 448.

[3] - جبور، عبد النور - المعجم الأدبي - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - ط1 - 1979 - ص 122 - بتصرف.

والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة... ومما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنهما مختصان بأمر الدين والسلطان".[1]

"ويشرك الترسل الخطابة في كثير من موضوعاتها، ويضيف إلى ذلك أنه يستخدم في الاحتجاج على المخالفين من أهل البلدان، وفي ذكر الفتوح التي تتم على أيدي القادة والجيوش، وفي المعاتبات، والاعتذارات".[2]

كما أنهما يتفقان أحيانا في الغرض والهدف فإذا كان هدف الخطبة هو الإقناع فإن بعض الرسائل قد تهدف إلى الإقناع أيضا، وبعض الخطب يكون غرضها هو الإبلاغ بأمر من أمور الدين أو الدنيا في مجمع من المجامع، وهذا ما يجعل بعض الخطباء يختم خطبته بإشهاد الله والناس على أنه بلغ ما حمل من رسالة وأدى ما عليه من أمانة، والرسائل تكون سياسة، ودينية واجتماعية وتربوية ولخطر شأنها في تنظيم البلاد أنشئ لها بدءا من العصر الأموي ديوان خاص يعرف بـــ "ديوان الرسائل" وقد تكون الرسالة ابتداء، كما تكون جوابا أو مراجعة لرسالة سابقة.

2 – أنواع الرسائل:

لقد قسم المنشئون والنقاد الرسائل العربية بحسب أغراضها إلى رسائل ديوانية ورسائل إخوانية وتتفرع عنها أنواع أخرى، يرى بعض النقاد أنها مستقلة بموضوعاتها وأغراضها، غير أن الرسالة الديوانية، والرسالة الإخوانية تعتبران المحوران الأساسيان اللذان تدور حولهما جل موضوعات وأغراض الرسائل المعروفة وقد اتسعت أغراض الكتابة وتشعبت ميادينها، وتنوعت موضوعاتها، وتعددت أساليبها، واتسع أفق الكتاب، وخصبت قرائحهم، وعمقت أفكارهم، ورحبت خيالاتهم[3]

مما أدى إلى ظهور بعض الرسائل التي ليست ديوانية ولا إخوانية إنما تتناول موضوعا أدبيا أو علميا أو فلسفيا وسميت بالرسائل الموضوعية.

---

(1) – العسكري، أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل – كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر – تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم– المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – لبنان – 1406هـ/ 1986م – ص 136 .

(2) – العاكوب، عيسى، وآخرون– أساليب التعبير الأدبي – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ط1 – الإصدار 3 -2000 – ص 108.

(1) – الشكعة ، مصطفى – الأدب في موكب الحضارة الإسلامية : كتاب النثر – ص 465.

أ- الرسالة الديوانية:

وتسمى الرسمية، والسلطانية والإدارية أيضا وتتناول الشؤون الإدارية والسياسية للدولة وما تتبادله الدول من علاقات، فهي تختص بتصريف شؤون الدولة، وما يصدر عن دواوينها، ووزاراتها ومصالحها، أو يرد إليها متعلقا بأمور الإدارة والسياسة والقانون والوظائف والاقتصاد.

وكانت في القديم تمثل كل ما يصدر عن ديوان الخليفة أو الملك موجها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، بل وإلى أعدائه أحيانا منذرا متوعدا.

"وقد كان لكل خليفة أو ملك كاتبه الذي يتولى الكتابة عنه في كل مهام الدولة وشؤونها من رسائل ومنشورات وعهود ومبايعات، و لم يكن يرقى إلى منصب الكتابة لدى الخلفاء والملوك إلا كبار الأدباء والشعراء في عصرهم".[1]

ولا يتولى هذا العمل الكتابي المهم إلا من كان أعلم أهل زمانه، وأكثرهم نبوغا وأدبا، ومن المشهود له بالتميز والفضل والأناة وحسن التصرف فضلا عن حذقه في العلوم وبراعته في الكتابة التي يعبر بها بوضوح عن رغائب أميره وأغراضه.

وتصدر الرسالة الديوانية عن ديوان خاص يطلق عليه: "ديوان الرسائل" وسميت بالديوانية نسبة إليه، وهي تتضمن إضافة إلى ما سبق البيعة وتولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، والعهود، والتلقيب، والتنويه، والدعوة إلى الطاعة، والحث على الجهاد، وكل ما يتعلق بأمور الرعية.

يقول الجاحظ في وصف كُتاب ديوان الرسائل: "إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتغيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى المخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور غمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني".[2]

"ولا يتأتى هذا إلا لمن كان على مقدرة بلاغية ومعرفية بعلوم اللسان العربي، فضلا عن ثقافة العصر، ولهذا اتخذ منهم الساسة كَتَبة، وكذلك بعض القضاة والعلماء لأن تدبير الأموال والنفقات والضياع وشؤون الخراج وما يؤديه أهل الذمة من أموال يحتاج إلى من يتقن صناعة الكتابة".[3]

---

[2] - عتيق، عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس - ص 449.

[1] - الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر - البيان والتبيين- ج4- ص 24 .

[2] - العوبي، رابح - مضامين الرسائل السياسية في القرن الثاني والثالث للهجرة - مطبعة المعارف- عنابة- الجزائر- ط1 - 2003 - ص 06.

وقد كان الخليفة أو الأمير – في أول الأمر- هو الذي يملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة.

كما كان كُتاب الديوان حريصين على تدوين رسائلهم بأسلوب مختصر بليغ قبل اعتمادها وختمها بخاتم الخلافة، ويتناول المنشئون فيها على ألسنة حكامهم مسائل ومضامين مختلفة من صوالح الدولة.[1]

ويغلب على هذا النوع الدقة والسهولة في التعبير، والتقيد بالمصطلحات الرسمية والفنية، والمساواة في العبارة والبعد عن التهويل والتخييل، ولذا يحرص فيها على دقة المعلومات ومراعاة القواعد والمعايير المتعارف عليها في المكاتبات ذات الصبغة الرسمية.[2]

ومع ذلك فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ في إجادته الفنية، فإنه لا يخرج عن كونه متصلا بحادث أو أمر عارض، وقلما تكون له صفة الدوام التي تهم الناس في كل زمان ومكان.[3]

وكثيرا ما تكتسي الرسالة الديوانية صبغة سياسية، وهذا ما نجده في قول أبي هلال العسكري: "أما الكتابة، فعليها مدار السلطان ..."[4].

والرسائل الرسمية لها شقان: موضوعي عام تنظيمي إداري يعتني بالشؤون العامة والخاصة للدولة، وأدبي خالص يتمثل في توظيف الأساليب وانتقاء فصيح الألفاظ، وصوغها في عبارات بليغة،وذلك ليتحقق منها الوضوح التام،وموافقتها لمقتضى الحال الذي تحدث عنه النقاد."[5] وهذان الشقان مردهما لكون الرسائل الديوانية تختص بمصالح الأمة وقوام الرعية وتصريف شؤون الدولة من جهة، وكونها تمتاز بالوضوح والجمال الفني والبراعة البلاغية من جهة ثانية.

ب- الرسالة الإخوانية:

تدعى الأهلية والشخصية وتسمى كذلك الرسائل الوجدانية، ويقصد بها ما يدور "بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء"[6] ، وما يدبجه المبدعون إلى أهلهم، أو من يماثلهم في المترلة من

---

[3] - جبران، محمد مسعود - فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب: (المضامين والخصائص الأسلوبية) - دار المدارالإسلامي- بيروت – لبنان - ط1 – 2004 -ج1 - ص 103.

[4] - عبد العال، محمد يونس - في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص - ص 162 - بتصرف.

[5] - عتيق، عبد العزيز - الأدب في الأندلس - ص 449.

[6] - العسكري، ابو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل - كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر - ص 136.

[1] - توات، الطاهر محمد - أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر -1993- ص 165.

[2] - عتيق، عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس - ص 454.

الإخوان والنظراء في غرض من الأغراض الاجتماعية أو الثقافية في صياغة فنية متميزة تتجلى من خلالها عواطفهم وأحاسيسهم.

ويكتبها الأدباء عامة من غير العاملين في دواوين الدولة، وهي غير محددة بموضوعات معينة، وإنما تكتب في مناسبات خاصة أو علاقات اجتماعية وإنسانية.

" ومنها أيضا الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته أو يلتمس منه أمرا من الأمور، وهذا النوع من الرسائل ميدان فسيح للإبداع يتبارى فيه الكتاب والأدباء، ويتيح لأقلامهم وقرائحهم أن تنطلق على سجيتها، وأن يعبر أصحابها عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة، وأساليب قوية موشاة ".[1]

وذلك راجع لكون هذا النوع من الرسائل غير مقيد بتقاليد فنية صارمة، كتلك التي تخضع لها الرسائل الديوانية، التي توجب على الكتاب إتباعها وتلزمهم بالنسج على منوالها، بل هي مجال رحب للتعبير عن العواطف والأحاسيس.

يقول أحمد الهاشمي: "الرسائل الأهلية وتعرف برسائل الأشواق، وهي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء، وأسفرت عن مكنون الوداد، وسرائر الفؤاد، ولا حرج على الكاتب إذا بسط الكلام على أحواله وأخفى السؤال في أحوال أصحابه، وتتفرد هذه الرسائل بأن يطلق الكاتب فيها العنان للأقلام، ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض، وقد قيل: "الأُنْس يُذْهِبُ المهابة، والانقباضُ يضيعُ المودةَ"، هذا ولابد من مراعاة مقتضى الحال والاعتصام بركن الفطنة".[2]

وقد اعترف النقاد بقيمة الرسائل الإخوانية، لاشتراك الكافة في الحاجة إليها، وإذا كان الكاتب ماهرا، متمرسا بالكتابة، تسهّل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها رسوم وصيغ لا تتغير.[3]

وتتوزع مضامين هذه الرسائل "على ثلاثة محاور كبرى هي كما يلي:

- التودد والاستعطاف.
- التكسب والاستجداء.
- العناية والاستشفاع".[4]

---

(3) - المرجع نفسه - ص 454.

(1) - الهاشمي، السيد أحمد - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب - ص 42.

(2) - عتيق، عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس - ص 454.

(3) - بن محمد، علي - النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - ط1 - 1990 - ج 1- ص 273.

وتمثل هذه الرسائل أيضا مبادلات اجتماعية ومجالات إخوانية " يمكن حصر المضامين التي تتناولها في المحاور التالية: الصداقة و الأصدقاء- الهدايا- التهاني- التعازي- العتاب والهجاء."[1]

إضافة إلى: الاعتذار والشكوى، والشكر، والشوق، والمداعبة، والاستزارة، والسؤال عن المريض، والأخبار، وخطبة النساء، وغيرها من الموضوعات والمضامين. وتعد الرسالة الإخوانية أقرب إلى الأدب وإيحاءاته اللفظية والأسلوبية من الرسالة الديوانية.[2]

فالرسالة الإخوانية أو الشخصية أو الخاصة هي تلك التي تعبر عن مشاعر المرسل في تعزية أو تهنئة أو توصية أو عتاب أو تحذير ووعيد ونحو ذلك، مما يصور العواطف والصلات الخاصة بين الأفراد، وهي غالبا لا تكون إلا بين من تربطهم صلة دموية كالآباء والأبناء والإخوة، أو صلة اجتماعية إنسانية كالصداقة والزمالة الصحبة والتتلمذ.

ج- الرسالة الموضوعية:

وهذا اللون من الرسائل هو ضرب لم يقصد به التراسل، بل الإفضاء بما يدور في خلد الكاتب من فكر حول موضوع بعينه فهو من الرسائل التي تدور في موضوعات الأدب والعلم والفلسفة وغيرها ، وربما أطلق عليها اسم الرسالة لكونها في حجمها ولا تبلغ شـأو الكتاب ، و هي أشبه بالمقال.[3]

فهي تخصص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريـخية أو الفلسفية، فالأدبية منها تتناول فكرة معينة أو قضية إنسانية تعبر عن شعور الكاتب تجاهها وموقفه منها، أو تتخذ موضوعها من القيم الإنسانية، والأخلاقيات والأدبيات، وتقديم وجهة النظر في هذه الموضوعات، ومن النقاد من يعتبرها مرحلة تطور للرسائل الإخوانية، فبينما كان كاتب الرسالة الإخوانية يعبر عن وداده لصديق معين ، مال كاتب الرسالة الأدبية إلى التجديد، فأصبح يكتب عن الود والأخوة بصفة عامة.

وبعض النقاد يرى أن هذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف و لا يدخل في باب الترسل، ومن أمثلته رسائل أبي العلاء المعري، كرسالة الغفران ورسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي وغيرهما.

---

[4]- المرجع نفسه - ص 334 - بتصرف.

[5]- عبد العال، محمد يونس - في النثر العربي: قضايا وفنون ونصوص - ص 162 - بتصرف.

[1]- سلام ، محمد زغلول - الأدب في العصر الفاطمي : الكتابة والكتاب - منشأة المعارف - الإسكندرية - مصر - 1995 - ص 258- بتصرف.

د- أنواع أخرى:

من الدارسين من قسم الرسائل إلى أنواع وأقسام غير المذكورة سابقا، انطلاقا من مرجعيات مختلفة في حين يرى آخرون أنها تندرج تحت الأنواع الثلاثة المذكورة ، و من هذه الأنواع:

1- القسم الفكري والقسم البياني:

وهذا التقسيم يعتمده إحسان عباس إذ يقول: "الرسالة من حيث غايتها قسمان: قسم فكري، أي غايته محاكمة الأشياء أو التأمل في بعض المشكلات دون التفات كبير إلى أسلوب بياني معين ومن هذا النوع رسائل ابن باجة الفلسفية ...وقسم بياني المترع أي أن الغاية الأولى منه إظهار البراعة الأسلوبية، أو قل أن الاستقلال بالأسلوب فيه واضح المعالم وقد يجتمع القسمان معا".[1]

2- رسائل تنتحل شكل المناضرة:

وهي رسائل أدبية يكون بناؤها كالمناضرة، وتكون بين شخصين أو شيئين، وأشهرها ما كان بين "القلم والسيف" لابن برد الأصغر (ت 414هـ) إذ أجرى الكاتب بينهما حوارا شديدا قاسيا يدخل في باب التساب والتهجي، وهناك من أجرى المناضرة بين العلم والجهل، وغيرهما.

3- رسائل وعظية:

وتسمى الدينية أيضا ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والأمراء والسلاطين يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة والرفق بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

وقد كانت تلعب دورا هاما في حياة الناس الاجتماعية فكان الكاتب "يعتمد فيها على الأسلوب السهل الذي يخاطب الوجدان ويغوص إلى أعماق النفس فيهزها هزا بضرب الأمثلة والعمد إلى السجع حينا والترادف حينا آخر مع الاقتباس من آيات القرآن الكريم والحديث الشريف في بعض الأحيان".[2]

ومن أمثلتها رسالة الحسن البصري التي كتبها للخليفة عمر ابن عبد العزيز يصف له فيها الإمام العادل.

4- رسائل الإستجازة والإجازة:

ومن الرسائل المتبادلة الإستجازة وهي طلب الإجازة برواية ديوان أو كتاب من صاحبه[3].

---

[2] - عباس ، إحسان - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) - دار الثقافة - بيروت – لبنان - ط 2 - 1971 - ص 287- 288.

[1] - الشكعة، مصطفى - الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: كتاب النثر – ص 212.

[2] - سلام، محمد زغلول - الأدب في العصر المملوكي - منشأة المعارف – الإسكندرية – مصر – 1995 - ج2 - ص 50.

وقد تكون الرسالة إجازة عندما يرسلهـــا صاحـــب الكتاب يجيز فيها أحدا برواية كتابـــه ، أو بالتحديث والرواية عنه.

5- التوقيعات:

وهي نوع من الرسائل وسمي بالتوقيعات نسبة على ما يوقعه الخليفة أو عماله على الرقاع التي ترد حاضرة الخلافة، بطلب أو شكوى أو مظلمة. وهي عبارات موجزة يكتبها أصحاب القرار في أسفل الرقاع المرفوعة إليهم بما يتضمن الرأي فيها.

ومن النقاد من يلحقها بفن الرسائل الديوانية، فيعرفها على أنها: "نوع من أنواع الرسائل الديوانية تصدر عن السلطان بتعيين فلان في وظيفة بعينها من وظائف الدولة"[1]، وتعتبر التوقيعات أقل الفنون الأدبية النثرية شهرة.

6- السجلات:

ويعالج فيها الخلفاء والأمراء بعض الأمور الإدارية الخاصة بالدولة عامة أو رجالها كتقليد ولاية أو حسبة وما إلى ذلك، ومن الدارسين من يدرجها ضمن الرسائل الديوانية، غير أن السجلات لا تقتضي الإجابة كالرسائل المألوفة ، إضافة إلى أنها تحفظ كأزمّة رسمية يُرجع إليها عند الحاجة.

هذه بعض الأنواع التي تبدو منفردة نسبيا ببعض الخصائص عن الرسائل الديوانية، والإخوانية والموضوعية لكن في الواقع يمكن إدراجها ضمنها نظرا لتقاربها في الأغراض والموضوعات أو في الأهداف والغايات.

[1] - المرجع السابق - ص 29.

II- فن الرسالة عند القاضي عياض:

لقد كان للرسائل شأن كبير في الميدان الأدبي وكذا السياسي والرسمي، ومما ساعد على قيامها وتعزيزها هو احتفاء الأدباء والكتاب بها، وتنافسهم في تدبيجها، وكذا اهتمام الخلفاء والأمراء والوزراء بها، وتقديمهم للبارعين فيها وتقريبهم منهم ومن مجالسهم، أما موضوعاتها فقد تنوعت بشكل ينأى بها عن الحصر، إذ كانت كل ما يدور بين الأمراء والعمال وأولي الأمر من توصيات وأوامر، وإسناد عمل من الأعمال وحتى التهنئات والتعازي، وما إلى ذلك، و"كل ما يدور بين الأصدقاء والإخوان من أمور، وما يحصل من أحوال وما يجول من خواطر وما ينشأ من عواطف".[1]

وقد كان عصر المرابطين عصر تطور ملحوظ لكل جوانب الحياة الأدبية فنمت الرسالة في ظل هذا التطور الحضاري الذي حققته الدولة المرابطية، وذلك بحكم الاستقرار السياسي الذي عاشته، "مما يجعلنا نذهب إلى القول بأن الرسالة كانت أكثر الفنون الأدبية تعبيرا عن الوجه السياسي والحضاري للدولة المرابطية".[2]

وقد نبغت أسماء لامعة في هذا المجال تعبر عن مدى التطور الذي أصاب هذا الفن الأدبي خلال هذه المرحلة.

وكان القاضي عياض أحد رواد هذا الفن والمبدعين فيه، يقول الفتح ابن خاقان عند حديثه عما أورده في قلائده من نصوص أدبية للقاضي عياض: "وقد أثبتت من كلامه البديع الألفاظ، والأغراض، ماهو أسحر من العيون النجل والجفون المراض".[3] ثم إن آثار القاضي عياض الأدبية بصفة عامة والنثرية بصفة خاصة، فالرسائل منها شأنها شأن الخطب لا يضمها كتاب واحد، بل هي موزعة بين كتب الأدب وكتب التاريخ وكتب الفقه، والمجاميع والفهارس، وأهم المصادر في هذا الباب: كتاب "قلائد العقيان" للفتح ابن خاقان، وكتاب "التعريف بالقاضي عياض" لولده أبي عبد الله بن محمد بن عياض، وقد جمع فيه مقتطفات من آثار والده.

أما المقري في "أزهار الرياض" فقد اعتمد فيما أثبته من نثر للقاضي عياض على هذين المصدرين، مضيفا إلى ذلك ما وجده في بعض المجاميع بفاس حيث أثبت منه رسالة القاضي عياض للحضرة النبوية.[4]

---

[1] - الفاخوري، حنا - الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب في الأندلس والمغرب، أدب الانحطاط)- دار الجيل – بيروت – لبنان –ط2 - 1411هـ/ 1991م - ج3 - ص 107.

[2] - الزباخ، مصطفى - فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص 165.

[3] - ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي - قلائد العقيان - ص 540.

[1] - شقور، عبد السلام - القاضي عياض الأديب - ص 155.

و يتحدث أبو عبد الله في "التعريف" عن ترسيل والده فيقـــول : " كتبْتُ من ترسيلِه – رحمة الله عليه– هذه الفصول، لتنبئ عن مكانته من الآداب، و اكتفيت بما أثبته مخافة التطويل والإسهاب ، وإني لأروم جمع ترسله في ديوان يشتمل من كلامه على العجب العجاب، الذي اعترف له بالسبق فيه زعماء الأدباء والكتاب".[1]

"ولست أدري هل وفى أبو عبد الله بالوعد الذي قطعه على نفسه هنا أم لا، ذلك أنه لا أثر لكتاب يضم رسائل عياض، ولعله ضاع كما ضاع الكتاب الذي يضم خطبه".[2]

وإن كلام أبي عبد الله في "التعريف" يدل دلالة واضحة على أن ما أثبته من نصوص لا يمثل إلا نماذج فقط من رسائل والده، وهو أثبت له أربع رسائل كلها إخوانية ، أما الفتح بن خاقان فقد أثبت للقاضي عياض مجموعة رسائل إخوانية في قلائده منها ماهو ابتداء وماهو جواب ورد تبادلها مع بعض الإخوان الذي كان يجمعهم بالقاضي عياض تعاطي كأس الأدب. وقد جمع المقري كل ما ورد "في القلائد" و"التعريف" من رسائل، وزاد عليها رسالة القاضي عياض للحضرة النبوية، التي عثر عليها بأحد المجاميع بفاس.

ولابد أن المكانة السامية للقاضي عياض التي بوأه إياها علمه ومواقفه، قد جعلت الكثير من الأصدقاء والعلماء والفقهاء يراسلونه، ويكاتبونه من مختلف الأنحاء فكانت الرسائل هي صلة الوصل بينهم.

وإلى جانب ذلك فإن القاضي عياض لابد أنه كان يراسل شيوخه وتلامذته، فقد وقف الأستاذ عبد السلام شقور على عشر رسائل في مسائل ابن رشد الجد (ت 520هـــ) – شيخ القاضي عياض– كان قد بعثها إلى شيخه هذا مستفتيا إياه في بعض ما كان يستعصى عليه من قضايا.

يقول الأستاذ عبد السلام شقور: "ومن الأعمال النثرية التي اعتقد أنها هامة مجموعة من الرسائل العلمية التي بعث بها عياض إلى ابن رشد ومجموعها عشر رسائل، اثنتان منها تامتان والباقية حذفت منها الحمدلة، والتقديم ... وقد اطلعت عليها في دار الحديث الحسنية في نسخة مكتوبة بالآلة الراقنة".[3]

[2] – أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 95.

[3] – شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص:– 156.

[1] – المرجع السابق – ص 157.

والمقصود بالرسائل العلمية هي تلك الرسائل التي كانت تكتب في مسألة من مسائل العلم ورسائل عياض العلمية كان موضوعها العلم الشرعي، لأنه كان يستفتي فيها شيخه ابن رشد الجد فيما كان يغلق عليه من قضايا ومسائل.

ثم إن هناك قضية لم أقف لها على تفسير ولا تأويل، وهي عدم ذكر أي مصدر من المصادر السابقة للرسائل الديوانية عند القاضي عياض، ووجه الغرابة فيها هو أن القاضي عياض كان متقلدا لمنصب رسمي وهو القضاء، وهذا لابد فيه من بعث للرسائل واستقبال لها من الجهات الإدارية للدولة من والي وأمير وغيرها، إلا أن هذا لم تذكره المصادر المتوفرة، والتفسير الوحيد لهذه المسألة هو ضياعها، إذ أنه من غير المعقول ألا يرسل القاضي عياض رسالة واحدة للجهة الإدارية التابع لها، أو يستقبل منها تعيينا، أو عزلا، أو أمرا ما.

"أقول هذا للتأكيد على أنه كان لعياض مشاركة قوية في ميدان النثر، إلا أن ما تبقى لدينا من ذلك لا يشمل إلا قسما صغيرا من ذلك".[1]

وذلك لأن دواعي كتابة الرسائل عند القاضي عياض كانت كثيرة بحكم مكانته العلمية، وشهرته التي بلغت إلى أقصى العالم الإسلامي، وهو أيضا أديب يشارك الأدباء مبارياتهم الأدبية ومراجعاتهم ، إضافة إلى توليه القضاء لفترة طويلة سواء في غرناطـــة بالأندلس أو في بلده سبته.

---

[2] - المرجع نفسه - ص 157.

III – نماذج من رسائله:

1- رسالته للحضرة النبوية:

وهي رسالة ذكرها المقري في "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"[1]، وقدم لها المقري بقوله:

"ومن نثره –رحمه الله- رسالة بديعة، كتب بها إلى روضة سيد المرسلين وعمدة الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وعلى آله وأصحابه المهتدين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين".[2]

وهذا نص الرسالة:

"إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير، السراج المنير، الرسول الكريم، الرءوف الرحيم، ذي الخلق العظيم، والفضل الباهر الجسيم، ودعوة أبيه إبراهيم، وبشرى المسيح، وابن الذبيح ابن الذبيح، المنبأ – وآدم بين الجسد والروح – ، الصادق الأمين، الحق المبين، المطاع عند ذي العرش المكين، نبي الرحمة، وهادي الأمة، والعروة الوثقى والعصمة، وقدم الصدق ودار العلم والحكمة، وسيلة الوسائل، وثمال اليتامى والأرامل، حبيب الله وخليله، ومصطفاه ورسوله، المجتبى المنتخب من خيار الأخيار، وصميم الحسب النضار، الطاهر المطهر المختار، أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، منتهى الشرف ومنقطع الفخار، من الشائق إلى زيارته، الراجي في دعوته المدخرة في شفاعته، المؤمن بنبوءته ورسالته، المعترف بتقصيره في طاعة الله وطاعته، عياض بن موسى.

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، وأكرم الآخرين والأولين، ورسول رب العالمين، ووسيلتهم إليه أجمعين، النور الساطع، والشفيع المشفع الشافع، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم المحشر، المرسل إلى الأسود والأحمر، الآتي بالآيات والنذر، المتحدي بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم، منير الأفئدة بأنوار الحكم ، الذي شرح صدره، فمليء إيمانا وحكمة، من لم يجعل الله به علينا في الدين من حرج، وأسرى به من الفرش إلى العرش وعرج، واستسقى الغمام بوجهه فهمع، وانشق القمر لتصديقه نصفين ثم اجتمع، وعاد نور الشمس بدعائه لشروقه بعد الأفول ورجع،

---

[1] - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4- ص 11- 20.

[2] - المصدر نفسه – ص 11.

وانفجر الماء من بين أصابعه ونبع، وسجد البعير لهيبته وخضع، وسكن ثبير لركضته حين تزعزع، وحن الجذع حنين العشار لفرقته وخشع، المؤيد بروح القدس جبريل، المبشر به في التوراة والإنجيل، المترل إليه محكم الكتاب والتنـــزيل، الصادع بالحق كما أمر، المصدق في جميع ما أخبر، المظلل بالغمام، الممدود بالملائكة الكرام، المنصور بالرعب، المطلع على الغيب، ومن أقسم الله بعمره، ورفع ذكره مع ذكره، عليك من صلوات الله وسلامه، وزلف بركاته وتحف إكرامه، كفء محلك الشريف لديه وقدره، وعداد نجوم الأفق وقطره، وجزاء ما كابدت، وقاسيت في إظهار دين الله ونصره، وثواب ما دعوت إلى صراط الله وامتثال أمره.

وبعد: فإني كتبت إليك، صلى الله عليك يا خاتم الرسل، وهادي أوضح السبل، ورحمة العالمين، ونعمة الله على المؤمنين، وشارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور، فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهاجك وشرعتك، والملتزمين للحنيفية ملة أبيك إبراهيم، المؤملين النجاة بالدعوة، دعوتك التي خبأتها شفاعة لأمتك، ممن أشرق فؤاده بشعاع أنوارك، واهتدى قلبه بعلم منارك، وتاه عقله بحسرة فوات رؤيتك وإبصارك، وهام قلبه في حبك وتوقير عظيم مقدارك، وعدته العوادي عن التشفي بقصد قبرك ومزارك، وقطعت به القواطع عن التشرف بمشاهدة مشاهدك الشريفة وآثارك، مصافح بالإيمان بك وتصديقك، شاهد الجوارح بالتقصير عن أداء حقوق الله وحقوقك فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات وخل آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه، وانقطعت في التمني مع العادين لياليه وأيامه، وقصرت به عن جد المخلصين أوزاره وأجرامه، فلا رجاء له إلا في عفو الله واستشفاعك، ولا خلاص له إلا بالتعلق بحقوك، يوم يكون آدم ومن ولد تحت لوائك ومن أتباعك، فيا محمداه، طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه، ما كان أسعدني لو متع المسلمون ببقائك، ويا نبياه، عليك مني أفضل الصلوات والبركات والتسليم، ويا حبيباه، اذكرني عند ربك، في مقامك المحمود الكريم، ويا شفيعاه، اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم، اللهم إني أسألك بحقه عليك الذي آتيته، وبقسمك بعمره الذي شرفته به وفضلته، وبمكانه منك الذي اختصصته واصطفيته، أن تجازيه عنا بأفضل ما جازيت به نبيا عن أمته، وتوتيه منا الفضيلة والوسيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيته، وتعظم عن يمين العرش نوره، بما يوريه من قلوب عبيدك، وتضاعف في حضرة القدس حبوره، بما قاسى من الشدائد في الدعاء إلى توحيدك، وان تجدد عليه من شرائف صلواتك، ولطائف بركاتك، وعوارف تسليمك وكراماتك، ما تزيده به في عرصات القيامة إكراما، وتعليه به في عليين مستقرا ومقاما، اللهم وأطلق لساني بأبلغ الصلاة عليه وأسبغ التسليم، وأملأ جناني من حبه وتوفيه حقه العظيم، واستعمل أركاني بأوامره ونواهيه في النهار الواضح والليل البهيم،

وارزقني من ذلك ما يبؤني جنة النعيم، ويشعرني رحماك وفضلك العميم، ويقربني إليك زلفى في ظل عرشك الكريم، ويحلني دار المقامة من فضلك، ويزحزحني عن نار الجحيم، ويقضي لي بشفاعته يوم العرض ويوردني مع زمرته على الحوض، ويؤمنني يوم الفزع الأكبر، يوم تبدل الأرض غير الأرض، وارفعني معه في الرفيق الأعلى، واجمعني معه في الفردوس وجنة المأوى، واقسم لي أوفر حظ من كماله الأوفى، وعيشه المهنى الأصفى، واجعلني ممن شفى غليله بزيارة قبره وتشفى، وأناخ ركابه بعرصات حرمك وحرمه قبل أن يتوفى، ثم السلام الأحفل الأكمل مرددا، عدد القطر والحصى كثرة وعددا، عليك يا نبي الهدى، المنقذ من الردى، وعلى ضريحك المقدس سرمدا، ويصعد إلى عليين مع روحك صعدا، ويمده رضوان الله ورحماه مددا، ما تطارد الجديدان وتطاول المدى، ورحمة الله وبركاته أبدا، تحية ادخرها عهدا عندك وموعدا، وأجدها –إنشاء الله تعالى- لعقبات الصراط معتمدا، وفي عرصات الفردوس معهدا، واخص بأثرها الخليفتين ضجيعيك في تربك، وأخص الناس في محياك ومماتك بقربك، وكافة المهاجرين والأنصار وعامة صحبك، الذين عزروك ونصروك، وآووك ووقروك، وكان بعضهم لبعض ظهيرا، والطيبين ذريتك، والطاهرات أمهات المؤمنين وأهل بيتك، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

2- الرسائل الإخوانية:

الرسالة الأولى:

أوردها ابنه أبو عبد الله في "التعريف"[1] والمقري في "أزهار الرياض"[2] نقلا عن "التعريف" مع بعض الاختلافات البسيطة وقد مهد لها أبو عبد الله بقوله: "تذاكر رحمة الله عليه مَعَ جِلَةٍ زُعماء، وقادة علماء وسادة أدباء، تعاطوا بينهم كأس الأدب، حتى ذهبتْ بهم في التغلغل فيه كل مذهب، فتسابقوا في ميدانه، وجَرَى كُل مِلْءَ عِنَانِهِ، إلى أن قصدوا التعجيز، وسدوا باب الْمُسَامَحة والتجويز، وقالوا: الغاية القصوى، المعربة عن كل مُدَع في الأدب دعوى، أن نكتب رسالة مُعْرَبَة المعاني، رائقة ، ذات الأصول ثابتة وفروع سامقة، فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها، ولا تُحل من مبانيها، فتطاول لها رحمة الله عليه، وأزهار آدابه تَنِمُ، وقال: "أنالها، ولِكُل أَمْر مُهِمٌ"، وعُيِنَتْ له الرسالة، وكتب ما تقف عليه بعد إنشاء الله وقدم بين يديها هذه القطعة، وهي:

"قُلْ للأَمَاجِدِ و الحديث شجُون ... ماَ ضَرَ إنْ شابَ الوقَار مُجُونُ

---

[1] - أبو عبد الله محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض – ص 88- 89- 90.

[2] - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض - ج4 – ص 06- 07- 08.

وَلَئِنْ غَدوتُ مِنَ العلومِ بِموضِعٍ ... تُومِــي إلِيَ أصَابِعٌ وعيــــونُ

فلـــــدَيَ للآدابِ عيْن صَبـــةٌ ... فِيهَا إلى مُلَحِ الظرُوف ركُـــون

كُنا افترقنَا عِندَ دعـــوىَ خطة ... ساءت بها فيما فهمتُ ظنـــونُ

فأتيتُ بالبرهـــان فيها نيـــــرا ... وعدت عَوَادٍ بَعد ذا وشُـــؤُون

و بعثْتُ الآن بها لِيُعْلَمَ أننـــــي ... عَيْنُ الزمانِ وسرُه المكنُـــــون

فارقتُ السادة الجِلَة أدام الله عِزَهم بثبات قدم عميدهم، وأبقى عليهم ظِلَهُ عند مجاراتنا إلحاق الكتاب ، فكأنها كانت مني دعوى تُوجِبُ الارتياب، وكان الفقيه أبو فلان صديقنا أعرف بالقصد إلى الزيادة في رسالة الوزير أبي القاسم بن الجد (ت 515هـــ)، على إيجاز ألفاظها واندماج أَغْرَاضِهَا وجلالة قائلها، واعتدال أواخرها، وأوائلها، فلم أقدم تلك العشية شيئا على تسويدها وتذييل بُرودها، وإن كان المتحكِكُ لذلك الطوْدِ العظيم، كمرقع الوشْيِ بالأديم، ولكن بحكم الاضطرار ، وقصد الاختيار للاختبار ، و طرقني لصباحها من الحادث الكارث ما شغل عن صَقْل وجوهها، وأذهل عن تَوْجيهها، وحين وجدت الآن فجوة، وأنست العشية وإن لم تكن سلوة، وجهت بها بشريطة رفع الدعوى، و امتحان البلوى، وصرف عين الانتقاد، وتحسين الظن والاعتقاد، وقد أعلمت على الزيادة بالحمرة لتكون فصلا بين الكلامين وعبرة، و لم يمكني مفارقة المنـــزل، مراعاة لحق من يقصد وينـــزل، وحذرا أن ينتقِد من لا يجد، فليكن الكل عندكم بالأمانة حتى نجتمع، والسلام عليكم يطول إعْظَامًا لجلالكم، ويتسع ورحمة الله تعالى وبركاته".

الرسالة الثانية:

وهي الرسالة التي كان قد مهد لها القاضي عياض برسالته السابقة، وهي مركبة على رسالة "أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري (ت 515 هـــ)، وقد كتبت الزيادة التي كتبها القاضي عياض بالغليظ بين قوسين، وهذه الرسالة أوردها أبو عبد الله ابن عياض في "التعريف"[1] والمقري في "أزهار الرياض"[2]، نقلا عن "التعريف" مع بعض الاختلافات يسيرة، و نصها:

"قَرَن الله يا سيدي مطالبك بالنجاح، ومآربك بالأسماح وأجرى أحوالك على حكم الاختيار، (**وأَورَى زندك في مساعي الأبرار ولازلت سعيد الإيراد والإصدار مُعَلَى القِدَاح، مؤتى**

---

[1] – أبو عبد الله محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 91- 92- 93.

[2] – المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 08- 09- 10- 11.

الأماني والاقتراح)، ورَدَني يَسَرَ الله أمَلَكَ، وسددَ قولكَ وعملكَ، كتاب خطير، بل روض من الشرف مطير، (**وخطاب أثير، بل مسك من الثناء نثير، فوقه زهر الحسن، لا زهر الحزن، وهَب عليه نسِيمُ الشرقِ، لا نسيم الجَوْف**) جَادَهُ صيب العقل، لا مُنْتَن البقل، فرتعت في حديقة جِدِهِ وهزله، وتمنعت برقيق لفظه وجَزَلِهِ، (**ونَزهت ناظري في رائق ألفاظه، ووجهت خاطري لقبلة معانيه وأغراضه، ونزهت قولي وعملي عن رده واعتراضه**) لا جرم أنه انفك لي منه مَعْجون، حَشْوُه مجون، وطبيخ، حشوه توبيخ إلا أن حقي من تركيبه، (**وذوقي لمعسول طيبه، اعترضت دونه علل، ولم يتجه منه وِرْدُ ولا عَلَل**) وأجدر أن يكون لي وله نبأ عجيب، لو ساعده من طبيعتي مجيب، لكن مَجّه مزاجي، ولم تحتمله أمشاجي، ولا غَرْوَ أن يزل طبيب (**ولا يساعد حبيب، أن كُلِفَ هذا ما ليس في وسعه، وطولب بما يعلم عنه ضيق ذرعه، وتعاطى ذلك الآخر لرقيه لما يجيب**) إذ لم يصف له العلة لبيب، وإن عذرك بالجهل بصفة حالي بين، كما أن شكرك في مداخلتي ومواصلتي متعين، (**فلئن لم تجدني في حاجتك رفيقاً، فقد اتخذتني أخًا شقيقًا، وإن لم أكن لك بحكم الحال مسعدا، فقد قمت بألحان شكرك مُغَرِدًا**)، ولئن كان ضنك سهما أشوى، ونجما أخوى، لقد أصاب موضع شكوى، ومكان بلوى، (**وبودي لو كان أربكَ عندي حتى أبادر به إليك وأسقط به سقوط الندى عليك، وأسلم أَعنة رغباتك في يديك أجل**) ولو كنت ممن ينبسط في مقر ذلك الجلال، بحكم الإدلال، لاستعملت في الموعد، (**طاقة المجد المجهد، ولم أصل العود، والعود أحمد، وما كنت أريم، إلا بلبانتك عن ذاك الحريم، وتخلقت في مطلبك**) الكريم، أخلاق الغريم، ولكني من التبسط بمعزل، وفي أبعد منـــزل، وعلى حالي فلسائلي في ذلك، (**ما سينتهي إلى حضرة جلالك، مبادرة إلى واجب حقك وكمالك، ومساعدة لمنـــزعك، ومرمى آمالك، حتى أبلغ نفسي هنالك**) عذرا، واقضي نذرا، وأرى لك صرف وجه المعوّل، على الشفيع الأول، فتخاطبه في الغرض موجزا، (**وتلاطفه مقصِدًا، ومرتجزا، وتريه من بديع بيانك مُعْجِزًا، يكون لمتقدم خطابك معزّزًا**)، وللعدة الجميلة مستنجِزًا، والله يسني أوطارك، ويحمي أقطارك، والسلام عليك عميما جزيلا، يصحبك رَسيلاً ونزيلاً ".

الرسالة الثالثة:

أوردها ابنه عبد الله في "التعريف"[1]، وقد أرسلها إلى صديقين له يعاتبهما فيها على طول الجفاء فيقول:

---

[1] - أبو عبد الله محمد بن عياض - التعريف بالقاضي عياض - ص 94.

"ليت شعري أَأَعتِبُ أَمْ أُعتبُ؟ وأعترفُ بالذَنْبِ أَمْ أُذْنِبْ؟ لا جَرَمَ لَوْ عَلِمْتُ لنفسِي جُرْمًا، لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حرامًا، ولسلبتها لذيذ المنام عَزْمًا، حتى يفيء إليها، من وجد عليها ويرضى عنها المتظلمُ منها، بِعلائكماَ ما هذا الجفاء، وأين ما تدعيانه من الوفاء، أَحين جدَت بنا الحال، وشُدّت للنوى الرحال، ودعا بِنا داعي الزماع، وخَجلَتْ عَيْن ويَد للوَداَعِ اتخذتماني ظهريا، وصِرْت عندكما نسِيا مَنْسِيا، لا أَعْلَمُ لكما علما، ولا أَلْقاكُما إلا حُلما، كان شَمْلُنا لم يَزَل متصدعا، وَكَأَنا لطول افتراق لم نَبِتْ لَيْلَة معا، ماذا يريب الغريب، من إغْبَابِ الأحباب، أمجالسة السلطان؟ وموانسة الأوطان؟ أبى المجدُ من ذلك وأبيت، ولنا يا بيت بالعلياء بَيْت، أم صدود وملال، ينافيه ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غِلظ تلك الخلال، وقيتما من الذي يُعْطَى الكمال؟ أم ثم ذنب يوجب الصدود، ويودي بود الوَدودِ؟ أسْمِعَاهُ لأرجع، إلى المَتاب، عن العتاب، وأُبادِر بنفسي عوض الكتاب، فَأعذر ولا أعذل، وأُنصِف من نفسي وأعدل، والسلام".

الرسالة الرابعة:

أوردها ابنه أبو عبد الله في "التعريف"[1] وفيها يجيب القاضي عياض أحد الكتاب، ويمتدح بيانه ، يقول فيها: "مالي ولك أيها الماجد، وقَاكَ اللهُ شر كل حاسد، تَسُح عليَ سُحُبُ بَيَانِكَ، وتجري قِبَلِي طلقا ملء عنانك وتكلفني من مباراتك ما ليس في وسعي ، و تحملني من مجاراتك ما يعجز عنه قلمي وطبعي، فمهلاً قليلاً لعلي أَشْفى من مراجعتك غليلاً، وأُعْمِلُ في محاورتك ذِهْنًا كليلاً، وإلا فاطو في ذاك بساطَ العتابِ، واقنع مني بما يرفع حَرَجَ الكتاب، وأكتفِ بأطال الله بقاءك، وَوَصَلَ علاءك، ووقفت على كتبك، وما تضمنه من آدابك، وأنا شديدُ الشوقِ إليك، والسلام الجزيل عليك، وإلا فَمَتَى تخطيتُ إلى أكثر من ذلك، لم تَجِدْني هنالك، لازالت التحيات متوالية لديك، مترادفةً بالأماني عليك، والسلام الأحفل عليك ورحمة الله".

الرسالة الخامسة:

وهي رسالة راجع بها صديقين له في موضوع البيان والإبداع، وقد ذكرها الفتح ابن خاقان في "قلائد العقبان"[2]، كما ذكرها أيضا العماد الأصفهاني في "خريدة القصر وجريدة العصر"[3].

وقد راجع صديقيه بقوله:

---

(1) – المصدر السابق – ص 95.

(2) – ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد عبيد الله القيسي – قلائد العقبان – ص 312- 313.

(3) – الأصفهاني ، أبو محمد صفي الدين عبد الله بن محمد العماد الكاتب – خريدة القصر وجريدة العصر– القسم الرابع – الجزء الثاني– تحقيق: عمر الدسوقي و علي عبد العظيم – دار نهضة مصر للطبع والنشر– القاهرة– مصر– 1969 – ص 391- 392- 393.

" قد وقفت أعزكما الله على بدائعكما الغريبة، ومنازعكما البعيدة القريبة، ورأيت ترقيكما من الزَهرِ إلى الزهرِ، وتنقلكما إلى الدراري بعد الدُرِ، فأبحتما حِمَى النجوم، وقذفتماها من ثواقب أفهامكما بالرجوم، وتركتماها بعد الطلاقة ذات وجوم، فحللتما بسيطها غارة شعواء، لها ما عَوَت أكلُبُ العوَاء، هناك افترست الفوارس، و لم تغن عن السماك الداعِس، وغودرت النثرة نثارا، وأُغشِيَ لألاؤها نقعا مثارًا، كأن لكما قِبَلَهَا ثارًا، وأشعرت الشعريان ذعرا، قطعت له إحداهما أواصر الأخرى، فأخذت بالحزم منها العَبور، وبدرت خيلكما وسيلكما بالعبور، وحذرت اللحاق عن أن تعوق، عن منحى العَيُوق، فخلفت أختها تندب عهد الوفاء، وتجهد جهدها في الاختفاء، وكأن الثريا حين ثُرْتُم بِقَطِينِها، اتقتكم بيمينها، فجذذتم بنانها، وبذلتم للخصيب أمانها، فعندها استسهل سُهَيْلُ الفرار، فأبعد بيمينه القرار، وولى الدبران أثره مدبرا، وذكر البعاد فوقف متحيرا، وعادت العوائد بشامها، وألقت الجوزاء بالأماني بنطاقها ونظامها، فمهلا أعزكما الله سَكّنَا الدهْمَاء، فد ذعرتما حتى نجوم السماء، فغادر تماها بين برق وفرق، وغرق أو حرق، فتزحزحا في مجدكما قليلا، واجعلا بعدكما للناس إلى البيان سبيلا، فقد أخذتما بآفاق المعالي والبدائع، لَكُمَا قمرَاها والنجومُ الطوالع".

الرسالة السادسة:

و قد كتبها للفتح ابن خاقان ، و حمله فيها تحية لأبي عبد الرحمان محمد ابن طاهــر (ت 507 هــ)، وذكرها الفتح في "قلائد العقيان"[1] والمقري في "أزهار الرياض في أخبار عياض"[2]، ونصها:

"عمادي أبا نصر مثَنى الوزارة، ووحيد العصر، هل لك في منة تفوت العصر، تَخِفُ محملا، وتُبلِغ أملا، وتُشْكَر قولا وعملا، شكرًا تَتَرنم به الحداه ثقيلا ورملا، إذا بلغت الحضرة العلية مسلما، ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مُسَلِمًا، وحللت من فنائه الأرحب حرمًا، ولمست بمصافحته ركن المجد يَنْدَى كرما، فَقِفْ شوقي بعرفات تلك المعارف، وانسك شكري بمشاعر تلك العوارف، وأَطِفْ إكباري بكعبة ذاك الجلال سَبعًا، وبوِئْ لودادي في مقر ذلك الكمال ربعا، وأبلغ عني تلك الفضائل سلامًا، يلتئم بصريح الحب التئامًا، ويُحْسِنُ عني بظهر الغيب مقاما، ويسير عني بأرج الحَمْدِ إنجادًا واتهاماً".

الرسالة السابعة:

---

(1) – ابن خاقان، ابو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي – قلائد العقيان – ص 540- 541.

(2) – المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 1.

كتبها للفتح ابن خاقان، ذكر الفتح فصلا منها في "قلائد العقيان"[1] والمقري في "أزهار الرياض في اخبار عياض"[2]، يقول فيها القاضي عياض:

" في علمك سدد الله علاء حكمك، ما جمعه فلان من جلائل تشذ عن الحصر، وفضائل يعترف له بها نبهاء العصر، يقول فيختلس العقول، ويعن فيذهل الألباب ويُحن، إنْ نَظَمَ فَعُبَيْدُ، أو لبيد، أو نَثَرَ فعبد الحميد، أو ابن العميد، أو صَال فأبو نَعامة، أو أنال فكعب ابن مَامة، أو فاخر فشجرة سيادة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا ذاكر، فبحر معارف لا تكدره الدلاء، إلى همّة، تصفع هامة الثريا، وعزة تمتهن الفضل بين يحي، ولهجة، تخرس العجاج، وبهجة تزري بنصر بن حجاج، ولو كنت ابن أبي هالة، لما بلغت المنتهى له، على أني لم أنبه لشأنه ذا جهالة، لكنه الكلام يطرد، والبداية حسب ما ترد، واللسان ينطق ملء فيه، والجنان يرشح بما فيه ".

الرسالة الثامنة:

وهي رسالة راجع بها الفتح ابن خاقان وذكرها في "قلائد العقيان"[3] كما ذكرها المقري في "أزهار الرياض في أخبار عياض"[4]، ونصها:

"وصلت لمعظمي قرب الجلال، وزهيت به رتب الكمال، وحامت على مشرع مجده العذب طيور الآمال، وغصت أفنية جنابه الرحب بوفود الآمال، ولا غرو أعزك الله أن من لاحظ من آثار فضلك الرائقة لحظة، أو حظي من سماع محاسنك الرائعة ولو بلفظة، أن تصير به همته في لقائك واحدا، ويعتسف الطرق إلى ورد جلالك وافدا، حتى يشاهد الكمال لم يحوج إلى نقص، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في شخص".

الرسالة التاسعة:

أرسلها إلى الفتح ابن خاقان، وهي أيضا لم ترد كاملة، إنما ذكر الفتح فصلا منها في "قلائد العقيان"[5] وذكرها أيضا المقري في "أزهار الرياض في أخبار عياض"[6] نقلا أيضا عن القلائد، ونصها:

---

(3) - ابن خاقان، ابو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي – قلائد العقيان – ص 541- 542.

(4) – المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 2.

(1) – ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد عبيد الله القيسي – قلائد العقيان – ص 543- 544.

(2) – المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 03.

(3) – ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي – قلائد العقيان – ص 545.

(4) – المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني – أزهار الرياض في أخبار عياض – ج4 – ص 04.

"لابد أعزك الله لكل حين، من بنين، يُحلون عاطله، ويَجْلون فضائله، ولكل مجال، من رجال، يقومون بأعبائه، ويهيمون في كل واد بأنبائه، ولئن كانت جمرة الأب خامدة، وجُذْوَته هامدة، ولسانه حصير، وإنسانه حسير، فلن يُخليه الله من هلال يطلُع، فيشرق بسمائه بدرا،وزلال ينبع، فيغدق بفضائه بحرا، وشبل يشدو، فَيَزْأَرُ من غابه ليثا، وطل يبدو، فيمطر من رَبابه غيثا".

الرسالة العاشرة:

وهي رسالة راجع بها الفتح ابن خاقان ردًا على معاتبته إياه لتأخر إصلاح غفارته، وقد ذكرها في "قلائد العقيان"[1]، ومهد لها بقوله: "وخرجنا لنـــزهة، فلما انصرفنا أصاب غفارتي شوك شقها فلما وصلتُ موضعي أمر أن أبعثها إليه، مع أحد عبيده المتصرفين بين يديه، فلما كان من الغد تأَخَرَ صرفها، وحضرت الجمعة، فكتبتُ إليه معاتبا في توقفها فراجعني".[2]

"أدَام الله يا ولي جلالك، وأبقى حليا في جيد الدهر خلالك، الغفارة عند من ينظر فيها، وقد بلغت غير مضيع تلافيها، ويرجى تمامها قبل الصلاة وإدراكها، وتصل مع رسولي كـــأنما قُدَ شراكها، وإن عاق عائق، فليس مع صحة الود مضائق، والعوض رائق لائق، وهو واصل، وأنت بقبوله مواصل، والسلام عليك ما ذَرَ شارق، وومض بارق".

وقد ذكرها أيضا المقري في "أزهار الرياض في أخبار عياض".[3]

3- الرسالة العلمية:

ونموذجها هي رسالة بعث بها القاضي عياض إلى شيخه "أبي الوليد ابن رشد الجد" (ت520هـــ) يستفتيه فيها عن نوازل في المياه والسقي، وقد ذكرها عبد السلام شقور في كتابه "القاضي عياض الأديب"[4] محققا إياها مع جملة من آثار القاضي عياض النثرية، من مخطوطات ومجاميع، كما ذكر الونشريسي في كتابه "المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية

---

[1] - ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي - قلائد العقيان – ص 546.

[2] - المصدر نفسه – ص 546.

[3] - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني- أزهار الرياض في أخبار عياض - ج4 – ص 05.

[4] - شقور، عبد السلام - القاضي عياض الأديب – ص 379- 380.

والأندلس والمغرب"[1] معناها دون نصها كاملا، في سياق حديثه عن فتاوى القاضي عياض في النوازل الفقهية.

يقول القاضي عياض:

"أدام الله توفيق الفقيه الأجل، معظمي، وأبقاه، وختم له بحسناه، وجمع له خير دنياه وأخراه. ضمنت مدرجتي هذه، أسولة، رغبتي جوابه عنها مأجورا مشكورا إنشاء الله، وهو أعزه الله: أن جماعة أصحاب جنات، خاصموا رجلا من أهل الأرحاء في قطع الماء عن جناهم، وهم محتاجون إلى السقي والانتفاع بالماء المذكور، فزعم صاحب الأرحاء أن لا حق لهم فيه، وان أرحاءه سبقت إلى حوز الماء المذكور، وعليه بناها وطحنت به عدة سنين كثيرة، فأثبت القوم شهادات من قبلته أنهم كانوا يسقون من الماء المذكور جناهم قبل إنشاء الأرحاء وبعدها، وطالب صاحب الأرحاء النظـــر في هذه الشهـــادات، والمدافع ، فأوقفت الماء عن الأرحـــاء و الجنات المذكورات عاى مجرى آخر ، و أجلت صاحب الأرحاء في البينات.

فما رأيك إن انقضى أمد السقي، والمنفعة التي طلبها أصحاب الجنات قبل انقضاء أجل المدفع، فقام صاحب الأرحاء يسأل حل العقلة، ويحتج بأن خصامهم معه إنما هو زمن السقي والعصير، وما عدا ذلك يجري الماء على مناصب أرحائه، ولا مطالب لهم فيه، ولا حاجة تلك المدة، وإنما ينازعهم في زمن آخر، هل يسمع قوله و توجيه هذه الحجة حل العقلة، ويبقون في مطلب حججهم، فإن انقضى خصامهم قبل سنة أخرى، وإلا فيعتقل الماء إذا حان زمن السقي من السنة الأخرى؟ أم ترى العقلة باقية حتى يتم خصامهم، إذ من حجة الآخرين أن يقولوا: هذا شيء متنازع فيه، يدعي فيه حقا، فلا نبقيه بيد خصمنا حتى ينقضي الخصام؟

وتأمل أعزك الله بطاعته، أن دفع صاحب الأرحاء في جملة الشهود سوى واحد، فادعى الآخر أن لهم شهودا أخر يقومون بها، أو ادعى صاحب الأرحاء ألا مدفع في ذلك الشاهد الباقي، وسأل حل العقلة على مذهب من يرى العقلة بالشاهد الواحد، هل يقضي له بذلك أم لا تنحل العقلة على مقتضى القولين إلا بالدفع في الجميع؟ أو هو حكم منفذ فلا يحكم بغيره إلا بسقوط جملة شهوده بخلاف ابتداء الحكم بالعقلة؟".

---

[5] – الونشريسي، أحمد ابن يحي – المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف: د. محمد حجي – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان- 1401هـ/ 1981م - ج8 – ص 385- 386.

IV – البنـــاء و التشكيل الفنـــــي:

إن دراسة فن الرسالة عند القاضي عياض تتطلب التمييز بين بعض أنواع الرسالة وقد شارك القاضي عياض في ثلاثة أنواع، كل نوع قائم بذاته، وله سماته الخاصة من حيث البناء والأسلوب، وهذه الأنواع الثلاثة هي:

1- مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم.
2- مكاتبة الأدباء والخلان في مواضيع شخصية وهي الرسالة الإخوانية.
3- مكاتبة العلماء في قضايا علمية وتخصصت رسائله في العلوم الشرعية في الفقه والفتيا.[1]

وسيتم التعرض لهذه الأنواع وفق محورين اثنين، يتعلق الأول بالهيكل العام لكل نوع، أما الثاني فيتعلق بالخصائص الفنية والمميزات التي يتسم بها كل نوع، إذ أن الملاحظ من الوهلة الأولى أن لكل نوع بناء خاص وأسلوب خاص.

أولا: الهيكل العام:

1- رسالته للحضرة النبوية:

شاع لدى الأندلسيين والمغاربة لون أدبي، وهو كتابة الرسائل إلى الروضة النبوية الشريفة، والنصوص الأولى لهذا الفن تعود إلى هذا العصر، أعني إلى العصر المرابطي، وإن كان من غير الممكن القطع بأن هذا اللون الأدبي لم يظهر إلا فيه.[2]

وقد ذكر القلقشندى تعليلا يبدو معقولا لشيوع هذا اللون الأدبي في المغرب، فقال: "وأكثر الناس تعاطيا لذلك أهل المغرب لبعد بلادهم ونزوح أقطارهم".[3]

وهو لا يورد أي نموذج من هذا اللون من الأدب لغير المغاربة، ورسالة القاضي عياض للحضرة النبوية تقوم على بناء خاص فيه بعض الخلاف لما هو معهود من الرسائل الديوانية و الإخوانية التي كانت مألوفة في الأدب العربي خلال عصر القاضي عياض وقبله.

وفيما يلي بيان بناء هذه الرسالة:

---

[1]– شقور ، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 158 – بتصرف .

[2]– المرجع نفسه – ص 159.

[3]– القلقشندى، أبو العباس أحمد بن علي صبح الأعشى في صناعة الإنشا – المطبعة الأميرية – القاهرة – مصر – 1333هـ/ 1915م–ج6 – ص 469.

أ- الاستهلال:

استهل القاضي عياض رسالته للروضة النبوية الشريفة بقوله: "إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير، السراج المنير، الرسول الكريم، ...".

ثم أنهى استهلاله بقوله: "من الشائق إلى زيارته، الراجي في دعوته المدخرة في شفاعته، المؤمن بنبوءته ورسالته، المعترف بتقصيره في طاعة الله وطاعته، عياض ابن موسى".

فالرسالة من حيث الفكرة مرتبة ترتيبا متناسبا، فقد قدم لها القاضي عياض بديباجة حسنة، أقامها مقام ما يسمى بالعنوان الذي يكتب على مظروف الخطاب بلغة العصر، وقد أطنب فيها في وصف الجناب النبوي، وذكره أولا قبل نفسه، فلم يقل "من عياض بن موسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"، بل قال: "إلى سيد ولد آدم وشفيع جميع العالم، البشير النذير ... من الشائق لزيارته، الراجي دعوته ... عياض بن موسى" وهكذا فهو يقدم اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسمه تأدبا معه، وتوقيرا له واحتراما، وهذا منتهى الأدب والتقدير الذي يجب أن يتسم به كل مسلم مع المصطفى صلى الله عليه وسلم.[1]

ب- التصدير:

أعقب القاضي عياض استهلاله الذي كان ديباجة موفقة بتصدير للرسالة يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم وأفضل الصلوات وأزكى التسليم على المصطفى نبيه الكريم، سيد المرسلين وإمام المتقين، وشفيع المذنبين ...".

وختمه بقوله: "عليك من صلوات الله وسلامه، وزلف بركاته، وتحف إكرامه كفء محلك الشريف لديه وقدره ... وثواب ما دعوت إلى صراط الله وامتثال أمره".

فهو في التصدير يذكر النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى ويصفه بماهو أهله من الصفات الكريمة والخلال الحميدة، وذلك دونما تكرار لما أورد في الاستهلال من أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم.

ج- غرض الرسالة:

ويأتي مباشرة عقب البعدية، فيقول: "وبعد: فإني كَتَبْتُ إليك صلى الله عليك، يا خاتم الرسل، وهادي أوضح السبل ..." وأورد جملة من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، وهي غير الواردة لا في الاستهلال ولا في التصدير، بل صفات أخرى فتح الله عليه بها، "ثم قدم نفسه للرسول

---

[1] - الترابي، البشير علي حمد - القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية – ص 181 - بتصرف.

صلى الله عليه وسلم، بكل تواضع وانكسار مؤكدا إيمانه وتصديقه به، وحبه وشوقه إليه، ثم ذكر مراده وما يبتغي ويرجو، مستشفعا بالرسول صلى الله عليه وسلم".[1]

فيقول: "فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهاجك و شرعتك، والملتزمين للحنيفية ملة أبيك إبراهيم، المؤملين النجاة بالدعوة، دعوتك التي خبأتها شفاعة لأمتك ...فيا محمداه، طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه ما كان أسعدني لو مُتّعَ المسلمون ببقائك ... و يا حبيباه، أذكرني عند ربك، في مقامك المحمود الكريم، و يا شفيعاه اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم ..." ، ثم يختم عرضه بدعاء الله أن يجعله ممن أكرمهم بزيارة قبر نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام فيقول: "واجعلني ممن شفى غليله بزيارة قبره وتشفى، وأناخ ركابه بعرصات حرمك وحرمه قبل أن يتوفى " .

فهو قد بين في هذا الباب مدى ما بلغ به الشوق إلى قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم يشرع في الدعاء والتوسل لله عز وجل أن يكرمه بزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن يجعله ووالديه في زمرة من يشفع فيهم المصطفى يوم الموقف العظيم، وهذا القسم هو أهم أقسام الرسالة.

يقول الأستاذ عبد السلام شقور: "وهذا قسم كله ابتهالات تبين بشكل واضح ما يضطرم في قلب عياض من شوق متأجج لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو شوق كامن في أعماق كل مسلم، فكيف بمن كان مثل عياض في علمه و سنه وصدق إيمانه، وعياض شأن كتاب هذا اللون من الرسائل يشكو إلى الرسول ما أصابه ويدعو تارة ويناجيه أخرى".[2]

د- الخاتمة:

يختم القاضي عياض رسالته بتوجيه تحياته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بالصلاة عليه وعلى أصحابه الغر الميامين وآل بيته الأبرار المطهرين، فيقول: " ثم السلام الأحفل الأكمل مرَددا، عدد القطر والحصى كثرة وعددا عليك يا نبي الهدى... وكافة المهاجرين والأنصار وعامة صحبك... والطيبين ذريتك، والطاهرات أمهات المؤمنين أهل بيتك الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

هذه هي العناصر الأساسية التي بني عليها هيكل رسالة القاضي عياض إلى الحضرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

---

[1] - المرجع السابق – ص 181.

[2] - شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 161.

2- الرسالة الإخوانية:

إن مما جرت عليه عادة الكتاب في الرسائل الإخوانية هو ورودها في ثلاثة أجزاء متكاملة أولها المطلع الذي يعد مقدمة لغرض الرسالة ويشتمل على البسملة والحمدلة والتحية من المرسل إلى المرسل إليه، وأحيانا الثناء عليه، ثم البعدية ويلج عندها المرسل إلى غرض الرسالة من تهنئة أو تعزية أو عتاب أو غيرها من الأغراض التي تطرأ على علاقات الناس الشخصية، وتُخْتَمُ بالدعاء للمرسل إليه ثم السلام، غير أن القاضي عياض في رسائله الإخوانية المذكورة سابقا، والتي تعتبر كل ما أوردته له المصادر في هذا المضمار، لم يتبع فيها هيكلا واحدا، فقد جاءت أشكالها متباينة، بل إن جلها كان الاستهلال فيها بغرض الرسالة مباشرة، بل إن رسالته الأولى استهلها بمقطوعة شعرية بين فيها غرضه من كتابة هذه الرسالة، وبعض رسائله جاء مختصرا جدا، حتى إن الدارس ليشك أنها ناقصة و غير كاملة، على الرغم من عدم إشارة أصحـــاب المصـــادر التي أوردتها لذلك ، سواء ابنه أبو عبد الله ، أو الفتح ابن خـــاقـــان ، أو المقري.

"وهذا لا ينقص من قيمة رسائله لأن الإخوانيات صاحبها له الحرية أن ينشئ فيها على حسب اختياره وأن يجري على جادة اقتراحه، وفي هذا مَقْنَعُ". [1]

ويمكن ضع هيكلية لرسائله الإخوانية على النحو التالي:

أ- المقدمة (الاستهلال):

" للرسائل أساليب تفتتح بها وتختتم، فمما يراعى في الافتتاحات البسملة والحمدلة — أي التحميد- والتشهد والصلاة على النبي والسلام، ولفظة "أما بعد" والأدعية التي تتوسط صدور الرسائل أو تبتدئ بها، ويراعى فيها منزلة المكتوب إليه"[2] والمقدمة في رسائل القاضي عياض غير و اضحة المعالم إذ أنه غالبـــا ما يلج إلى غرض الرسالـــة مباشرة دونمـــا تمهيـــد أو تقديم " ومن تمام البلاغة أن يتضمن الافتتاح - أو المقدمة- إشارة إلى الغرض، وأن ينسق الكاتب مطالعه وخواتيمه وما يعرض بينهما من موضوعات"[3]، فالرسالة الأولى استهلها بمقطوعة شعرية تبين غرضها وانه التباري في مجال الأدب عموما، و إظهار البراعة في كتابة الرسائل خصوصا، أما رسالته الثالثة فقد استهلها بقوله: "ليت شعري، أَأَعْتِبُ أَمْ أُعْتبْ؟ وأَعْتِرفُ بالذنْبِ أَمْ أُذْنِب؟ "، وهي صيغة استفهام

---

(1)- الحلبي ، شهاب الدين محمود - حسن التوسل إلى صناعة الترسل — تحقيق: أكرم عثمان يوسف - دار الحرية للطباعة - وزارة الثقافة والإعلام — بغداد — العراق - 1400هـ/ 1980م — ص 391 - بتصرف.

(2)- عبد العال، محمد يونس - في النثر العربي: قضايا وفنون ونصوص — ص 164.

(1)- المرجع السابق — ص 165.

تهدف إلى لفت انتباه المرسل إليه، وتشويقه لمعرفة ما سيأتي، أما رسالته الرابعة، فافتتحها بقوله: "مالي ولك أيها الماجد؟ وقَاكَ الله شر كل حاسد " وهي صيغة استفهام أيضا بينما في رسالته السادسة التي أرسلها للفتح بن خاقان فقد افتتحها بذكر المرسل إليه، يقول "عمادي أبا نصر، مثنى الوزارة، ووحيد العصر" ويخاطب الفتح ابن خاقان في الرسالة التاسعة فيقول: "لابد أعزك الله ، لكل حين من بنين، يحلون عاطلة، ويجلون فضائله "، وهو في كل رسائله الإخوانية يجري هذا المجرى، فيستهلها بذكر المرسل إليه حينا، والدعاء له أحيانا، وبالولوج في الغرض رأسا أحيانا أخرى.

ب- الغرض:

وهو الذي لأجله أنشئت الرسالة، وأرسلت للمرسل إليه والقاضي عياض لم تكن مقدماته منفصلة عن مضمون الرسالة "إذ نجده يشير في صدور رسائله إلى الغرض المذكور، ويعد ذلك من دلائل الحذق المهارة "[1] وقد تنوعت أغراض رسائله بين التباري في مجال الأدب، إلى العتاب، إلى التودد والاستعطاف، وغيرها، فرسالتيه الأولى والثانية هما في التباري في مجال كتابة الرسائل، أما الثالثة فهي في العتاب، يقول فيها: "ليت شعري أَأَعْتِبُ أَمْ أُعْتبْ؟ وأعترف بالذنب أَمْ أُذنِبْ؟ "، بينما غرض الرسالة السادسة هو التودد والاستعطاف والتحية، إذ طلب من الفتح ابن خاقان نقل هذه المشاعر نيابة عنه فيقول: "هل لك في منّة تفوت الحصر، تخف محملا وتُبْلِغُ أملا، وتُشكر قولا وعملا ... إذا بلغت الحضرة العلية مسلَّما، زلقيت الطاهر ابن طاهر فخر الوزارة مسلّما... فقف شوقي بعرفات تلك المعارف...وأبلغ عني تلك الفضائل سلاما يلتئم بصريح الحب التئاما ...".

أما في الاعتذار فيقول في الرسالة العاشرة مخاطبا الفتح بن خاقان: "أدام الله يا ولي جلالك، وأبقى في جيد الدهر خلالك، الغفارة عند من ينظر فيها ... ويُرْجَى تمامها قبل الصلاة وإدراكها ... وإن عاق عائق، فليس مع صحة الود مضائق، والعوض رائق لائق، وهو واصل، وأنت بقبوله مواصل".

ج- الختام:

" أما الاختتام فقد يكون بآية قرآنية أو بلفظ "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو "إن شاء الله" أو "والسلام". "[2]

---

[2] - عيسى، فوزي - الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - مصر - 2002 - ص 208.

[1] - عبد العال، محمد يونس - في النثر العربي: قضايا وفنون ونصوص - ص 164.

وأهم ما يلاحظ على خواتيم رسائل القاضي عياض الإخوانية هو عدم اهتمامه بها، شأنها في ذلك شأن المقدمة أو الاستهلال، وهذا يخالف ما عهدناه في الخطب إذ كان شديد العناية بخاتمة خطبته بل هي أحيانا موضع اهتمامه أكثر من العرض، وجل رسائل القاضي عياض الإخوانية، ختمت بالسلام، وأحيانا لا يورد ا السلام ، هذا إن كانت رسائله قد وصلتنا كاملة غير مبتورة، فيقول في ختام الرسالة الأولى: "والسلام عليكم يطول إعظاما لجلالكم، ويتسع، ورحمة الله تعالى وبركاته"، ويقول في ختام الثانية " والسلام عليك عميما جزيلا، يصحبك رسيلا ونزيلا"، بينما يختم الرسالة الرابعة بقوله:" والسلام الأحفل عليك ورحمة الله ".

أما الرسالة العاشرة، فيختمها بقوله :"والسلام عليك ماذر شارق، وومض بارق".

3- الرسالة العلمية :

لقد سار القاضي عياض في هذه الرسالة سيرته في الرسالة الإخوانية، إذ افتتحها بالدعاء لشيخه ووصفه بجملة من الصفات الفضيلة، فيقول: " أدام الله توفيق الفقيه الأجل، معظمي، وأبقاه وختم له بحسناه، وجمع له خير دنياه وأخراه"، وما يلاحظ على هذا الافتتاح انه مختصر موجز، و واضح لا غموض فيه.

ثم بعدها يلج مباشرة لموضوع الرسالة الذي هو جملة من الأسئلة حول قضية فقهية أشكلت عليه، فيقول: "ضمنت مدرجتي، هذه أسولة رغبتي جوابه عنها مأجورا مشكورا إنشاء الله ، وهو أعزه الله : أن جماعة أصحاب جنات، خاصموا رجلا من أهل الأرحاء في قطع الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقي والانتفاع بالماء المذكور"، ثم بعدها يُفَصّل المسألة، ويأخذ بها كل مأخذ مقلبا إياها على كل وجوهها، متطرقا لكل ما يمكن أن يعرض فيها من حجج وأدلة، ويطرح في ثنايا ذلك أسئلة يرجو من شيخه الإجابة عنها، ومنها قوله: "هل يقضى له بذلك أم لا تنحل العقلة على مقتضى القولين إلا بالدفع في الجميع؟ أو هو حكم منفذ فلا يحكم بحكم بغيره إلا بسقوط جملة شهوده بخلاف ابتداء الحكم بالعقلة؟ "

وقد جاءت هذه الرسالة في مقدمة عامة لا علاقة لها بالموضوع، تضمنت تحية وتبجيلا ودعاء من القاضي عياض لشيخه، ثم استهل موضوعها برغبته في أن يجيب شيخه على الأسئلة التي ضمنها هذه الرسالة، وبعدها عرض المسألة بكل تفاصيلها وحيثياتها، وختمها بالأسئلة التي عليها مناط الفتوى، وبها يتم الحكم في هذه المسألة ومن دون الإجابة عليها لا يتضح وجه الحق في القضية.

ثانيا: الخصائص الفنية

1- رسالته للحضرة النبوية:

يقول القاضي عياض في إحدى فقر هذه الرسالة: "وهام قلبه -أي قلب القاضي عياض- في حبك وتوقير عظيم مقدارك، وعدته العوادي عن التشفي بقصد قبرك، ومزارك وقطعت به القواطع عن التشرف بمشاهدة مشاهدك الشريفة وآثارك، مصافح بالإيمان بك وتصديقك..." هذه الفقرة تدل على أن رسالته للنبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ثمرة من ثمار جو نفسي تتردد فيه أنفاسه بين الشكوى والدعوة، والشوق.

وهي تستمد مقوماتها من الشعور المتأجج في قلب القاضي عياض، ويزيد هذا الشعور تأججا ما كان عليه من حالة نفسية، إذ أنه لم يزر قبر النبي صلى الله عليه وسلم فالمعروف من سيرة حياته أنه لم يحج، شغلته عن ذلك شواغل وحالت دونه عوائق، وهذا ما انعكس على هذه الرسالة إذ عبرت عن رقة شعوره، وفيض عاطفتة، وهذا هو سر اللهجة الصادقة التي تبرز في استغاثته قائلا: "فيا محمداه، طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه، ما كان أسعدني لو مُتّعَ المسلمون ببقائك، ويا نبياه عليك مني أفضل الصلوات ... ويا حبيباه أذكرني عند ربك في مقامك المحمود الكريم، ويا شفيعاه اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم ...".

والرسالة: "تتكئ في خطاباتها على ألوان من المعارف الأدبية والدينية والتاريخية، فتقتبس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، موظفة أثرهما البلاغي".[1] ومادة هذه الرسالة هي القرآن بالدرجة الأولى والذي يعتبر الرافد الديني الأول الذي استقى منه القاضي عياض مادته، فالاقتباس منه واضح وجلي في كل أجزاء الرسالة سواء كان ذلك بتوظيف ألفاظ الآيات، أو باستلهام معانيها ضمن معاني الرسالة، ومن أمثلة ذلك: قوله: "البشير النذير، السراج المنير، الرسول الكريم، الرءوف الرحيم، ذي الخلق العظيم، والفضل الباهر الجسيم، ودعوة أبيه إبراهيم، وبشرى المسيح ...".

فهذه الفقرة القصيرة فيها كم هائل من الاقتباسات.

إذ أن قوله: البشير النذير، السراج المنير، مقتبس من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[2]

---

[1] - الزباخ، مصطفى - فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين - ص 204.

[2] - سورة الأحزاب الآية (45-46).

وقوله: " الرسول الكريم مقتبس من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ﴾[1] .

وقوله: "الرءوف الرحيم" مقتبس من قوله تعالى ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2].

أما قوله: "ذي الخلق العظيم"، فمقتبس من قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾[3]، وقوله: "دعوة أبيه إبراهيم" إشارة لقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[4] .

وقوله: "وبشرى المسيح"، اقتباس من قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ ﴾.[5]

وأمثلة الاقتباس من القرآن الكريم في هذه الرسالة كثيرة جدا بل وحتى مبالغ فيها، فالقاضي عياض جعل رسالته معرضا للبلاغة القرآنية لفظا ومعنى كما أنه قد جعل لهذه الرسالة رافدا دينيا ثانيا استقى منه معانيه وألفاظه، وهو الحديث النبوي الشريف إذ وظف معانيه في أكثر من مناسبة، فلم يكتف بإيراد طائفة من أسمائه صلى الله عليه وسلم، وإنما استلهم من أحاديثه الشريفة بعض المعاني، وأحيانا وظفها بنصها.

يقول: "حبيب الله وخليله، ومصطفاه ورسوله، المجتبى المنتخب من خيار الأخيار، وصميم الحسب النضار ....".

---

[3] – سورة التكوير الآية (19).

[4] – سورة التوبة الآية (128).

[5] – سورة القلم الآية (04).

[6] – سورة البقرة الآية (129).

[1] – سورة الصف الآية (06).

عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل عليه السلام ، و اصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم"**.[1]

أما من ناحية الأسلوب فإن هذه الرسالة يقوم نسيجها على السجع، "والسجع في رسالة عياض هذه ليس من النوع المعقد الذي نجده مثلا في باقي رسائله، فليس فيه ذلك التقسيم الداخلي و لا ذاك التلوين الصوتي، وليس هناك حرص على المطابقة الصوتية بين الجمل، إلا أن عياضا، حرصا منه –حسب عادته دائما– على إثارة القارئ عن طريق دفع الملل وإحداث عنصر الجدة فإنه هنا في رسالته هذه يعمل أيضا على تنويع الجمل".[2]

يقول في أحد مقاطعها: "وبعد فإني كتبت إليك، صلى الله عليك، يا خاتم الرســل، وهادي أوضح السبل، ورحمة العالمين، ونعمة الله على المؤمنين، وشارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور، فإني عبد من ملتــك، المتحملين لأمانتك، منهاجــك وشرعتك ...".

" وقد كان هذا اللون من الرسائل مجالا للتباري وميدانا لعرض الصَنْعَةِ، ولونا من ألوان المدح والتقرب إلى الملوك وقد اكتسب أسلوبه من جراء ذلك بهرجا، إلا أن عاطفة الكتاب صارت تحجبها تلك الألوان البديعية التي اغرقوا فيها رسائلهم"[3].

وفن الرسالة النبوية فن نشأ ونما في حضن الدين فهو يتخذ من الإسلام وأصوله روافد تمده بالأغراض والمعاني، وهذا ما لم يشذ عنه القاضي عياض إذ كانت هذه الرسالة معرضا لثقافته الدينية.

"والخطاب الأدبي في هذا المجال اتسم بحقيقتين، موضوعية وفنية"[4].

فالحقيقة الموضوعية تتعلق بتلك الحقائق المتمثلة في مناقب النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته، ومآثره وما خصه الله به من الرسالة والأمر بالدعوة إليها والصبر على الأذى فيها.

أما الحقيقة الفنية فتتعلق بتلك الصياغة الأدبية المتمثلة في المؤثرات البلاغية كالاقتباس من القرآن الكريم، وتضمين الحديث النبوي الشريف والمحسنات البديعية كالسجع والطباق والجناس.

"وبالجملة فالرسالة سامية المعاني، بديعة التركيب، وسليمة المباني، وتتجلى فيها ملكة القاضي عياض الأدبية المشحونة بالعلم وفقه السيرة، وحبه الأعمق للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم".[1]

---

[2] – المنذري ، زكي الدين عبد العظيم – مختصر صحيح مسلم – ص 397 .

[3] – شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 163 – بتصرف

[1] – المرجع السابق – ص 164 – بتصرف.

[2] – توات، الطاهر محمد – أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن – ص 334.

2- الرسالة الإخوانية:

لقد كانت دواعي مشاركة القاضي عياض في فن الرسائل الاخوانية كثيرة كما سبقت الإشارة إليه، وذلك لعدة عوامل.

"إلا أن ما تبقى لنا من رسائله الإخوانية قليلة وهذه الرسائل كما هو معلوم قليلة الفائدة في الكشف عن حياة الكاتب أو في تصوير العصر، لأنها تخضع للعرف الأدبي أكثر من خضوعها لإحساس الكاتب الحقيقي وهذا شائع على العموم".[2]

وذلك لأن لكل عصر من العصور أعراف أدبية حرص الكتاب على مراعاتها، والإنشاء وفقها أكثر من حرصهم على الإبداع والتعبير عن الذات، وهذا هو سبب التشابه الكبير الذي نجده بين كتاب العصر الواحد، واغلب رسائل القاضي عياض الإخوانية التي سلمت من الضياع كانت موجهة للفتح ابن خاقان، لذلك احتفظ بها الفتح في كتابه: " قلائد العقيان"، كما ذكر بعضها ولده أبو عبد الله في "التعريف"، وعنهما نقل المقري في "أزهار الرياض".

وإن مفتاح فهم رسائل القاضي عياض الإخوانية، هو ما ذكره القاضي عياض نفسه غير ما مرة من أن قصده من المشاركة في هذا الفن إنما هو مجاراة الكتاب، والتباري معهم، وإثبات طول باعه في الأدب، يقول في الرسالة الرابعة: "مَالي ولك أيها الماجد، وقاك الله شر كل حاسد، تَسُحُ علي سحب بيانك وتجري قبلي طلقا مِلْءَ عنانك، وتكلّفني مِنْ مباراتك ما ليس في وسعي، وتحملني من مجاراتك ما يعجز عنه قلمي، وطبعي".

أما تباريه مع جملة من خلانه في الزيادة على إحدى الرسائل زيادة توافق معانيها، ولا تخل بمبانيها، فقد أشار إلى ذلك ابنه أبو عبد الله بقوله: "تذاكر- رحمة الله عليه – مع جلة زعماء، وقادة علماء، وسادة أدباء، تعاطوا بينهم كأس الأدب، حتى ذهبت بهم في التغلغل فيه كل مذهب، فتسابقوا في ميدانه، وجرى كلٌّ ملء عنانه، إلى أن قصدوا إلى التعجيز، وسدوا باب المسامحة والتجويز، وقالوا: الغاية القصوى، المعربة عن كل مدّع في الأدب دعوى أن نكتب رسالة معربة المعاني رائقة ... فتطاول لها – رحمة الله عليه– وأزهار آدابه تنم، وقال: أنا لها، ولكل أمر مهم".[3]

---

[3] – الترابي، البشير علي حمد – القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية – ص 182.

[4] – شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 165.

[1] – أبو عبد الله، محمد بن عياض – التعريف بالقاضي عياض – ص 88.

"وكثيرا ما كانت تضم المجالس الأدبية عياضا وجماعة من الكتاب، فيتساقون كأس الأدب، ويتبارون، وعياض على الرغم من أعباء القضاء، كان يحضر هذه المجالس أحيانا، ويغيب أحيانا، وحتى عندما كان يتخلف، فإنه كان يبعث بما شارك به من إنتاج".[1]

وكثير من نصوص القاضي عياض تشير إلى ذلك صراحة، ففي رده على ما طُلِبَ منه كتابته فيما أخبر به ابنه أبو عبد الله، كتب في الرسالة الأولى أبياتا جارى بها كتاب عصره، وأثبت من خلالها جدارته بالمنافسة والتباري، وهي تؤكد أن قصد عياض من المشاركة في هذا الفن إنما كان بصفة خاصة لأجل إثبات جدارته، وتمكنه من كأس الأدب، بل وتفوقه أيضا. يقول في مطلع الرسالة الأولى:

"قل للأماجد والحديث شجون .... ما ضَرَ إنْ شابَ الوقارَ مجون

ولئن غدوتُ من العلوم بموضِعٍ .... تومي إلى أصابعٌ و عُيـــــون

فلديَ للآداب عينٌ صبَـــــــةٌ .... فيهاَ إلى مُلَح الظروف رُكونُ

كُنا افترقنا عنـــد دعوى خطـــة .... ساءت بها فيما فهمتٌ ظنونٌ

فأتيتُ بالبرهـــان فيهـــا نَيـــرا .... وعَـــدَتْ عواد بعد ذا وشؤون

و بعثتُ الآن بِهَا لِيُعْلَمَ أَننَـــــي .... عَيْنُ الزمان و سرّهُ المكنـــون

فهو في هذه الأبيات يرد على القائلين بعدم قدرته أو المشكّكين في براعته وجدارته بالمنافسة و التباري في مجال الأدب، وأن اشتغاله بالعلم و تبحره فيه ومعرفته به، لا ينقص من أدبيته شيئا، بل هو فضل يضاف إلى أفضال أخرى، و مزية تشفع لمزايا أخرى.

وقصة هذا التباري أن القاضي عياض وأصحابه أُعجبوا برسالة لأبي القاسم ابن الجد(ت515هـــ)، وكانت هذه الرسالة من الإيجاز لدرجة جعلت أصحاب القاضي عياض يظنون أنه نظرا لإيجازها الشديد وشدة حبكها يستحيل الزيادة فيها، فعمد القاضي عياض إلى عمل يثبت أنه يستطيع ما لا يستطيعه غيره، فأضاف إلى كل سطر منها سطرا آخر من إنشائه، يوافقه في المعنى ولا يخالفه في المبنى، فجاءت الرسالة طريفة محبوكة، وهي الرسالة الثانية في نماذج الرسائل الإخوانية المذكورة، وقد وُضعت زيادة القاضي عياض، بين قوسين تمييزا لها عن نص الرسالة الأصلي لابن الجد، و جاءت الرسالة بعد زيادة القاضي عياض عليها كمايلي:

---

[2] - شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 166.

" قرَن الله يا سيدي مطالبكَ بالنجَاح، ومآربك بالأسماح، وأجرى أحوالك على حكم الاختيار، (**وأورى زندك في مساعي الأبرار ولا زلت سعيد الإيراد والإصدار مُعَلَى القِدَاح، مؤتى الأماني والاقتراح**)، ورَدَني يَسَّرَ الله أملك وسَدَّدَ قولك وعملك، كتاب خطير، بل روض من الشرف مطير (**وخِطَاب أَثير، بل مسك من الثناء نثير، فوقه زهر الحُسنِ، لا زهر الحزن، وهب عليه نسيم الشرق، لا نسيم الجوف**)...".

والقاضي عياض بعمله هذا لم يشذ عما كان عليه الكتاب والأدباء في عصره وقبل عصره، إذ كانت الكتابة الأدبية عندهم مطية للتنافس والتباري.

فقد كانت الكتابة الأدبية بكل أشكالها وفنونها، وبخاصة الرسائل منها "مجالا للفحولة، وموطنا للسحر، وميدانا للعبقرية، وموضعا للسبق، ومكانا للإبداع، يتنافس فيها أبطال القلم، وفرسان الفكر، ومغاوير البيان، وشيوخ الأناة والروية".[1]

وقد جاءت رسائل القاضي عياض الإخوانية لتحقيق رغبتين اثنتين:[2]

الأولى هي الرغبة في مشاركة الكُتّاب في لهوهم الحلال من خلال المجالس الأدبية والتباري والتنافس في المراسلات والمراجعات وغيرها ، أما الثانية فهي رغبته في إثبات الذات في المجال الأدبي، بعد أن تم له ذلك في مجال العلم ، "وقد ركب عياض لتحقيق هذه الرغبة مسالك لا أعتقد أنها كانت توافق طبعه أو ذوقه، فعياض كان ينفر بطبعه من التكلف، وقد صرح بذلك مرات عديدة، ورسائل عياض الإخوانية غارقة في التكلف والتصنع وذلك في ألفاظها ومعانيها، وهو – تمشيا مع ذوق العصر واستجابة لنازع الشعور بالتفوق – يرغم نفسه على مجافاة ذوقه".[3]

بناء على كل ما سبق، فإن هذه الرسائل لا يمكن أن تعتبر نموذجا للنثر في هذا العصر "فهي لون خاص من النثر دعت إلى وجوده ظروف خاصة في الأدب العربي، فقد ظهر عندما أصبحت الثقافة ترفا فكريا، وكان يمارس هذا اللون طبقة خاصة من الكتاب، وإذا كان الأمر كذلك، فلا محل للعجب من ضحالة المضمون الفكري لها".[4]

---

[1] – أبو الخشب، إبراهيم علي – تاريخ الأدب العربي في الأندلس – ص 117 – بتصرف.

[1] – شقور ، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 167.

[2] – المرجع نفسه – ص 168.

[3] – المرجع نفسه – ص 168.

وقد كانت رسائل القاضي عياض معرضا لمعارفه في شتى المجالات، و شكلت هذه المعارف روافدا لرسائله الأدبية منها، والدينية والتاريخية والطبيعية أيضا، فالإحالات على الروافد التي استقى منها المعاني في رسائله واضحة جلية في كلامه.

ففي الرسالة السادسة مثلا : يريد القاضي عياض أن يُحَمّل صديقه الفتح ابن خاقان رسالة إلى ذلك الوزير افتتحها بقوله: "عمادي أبا نصر مثنى الوزارة، و وحيد العصر، هل لك في منة تفوت الحصر، تخف محملا، وتبلغ أملا، وتشكر قولا وعملا ..."، ثم في الأخير أوصاه بإبلاغ السلام فقال: "وابلغ عني تلك الفضائل سلاما، يلتئم بصريح الحب التئاما ..." وخلاصة ما جاء في هذه الرسالة: يا صديقي الذي أعتمد عليه، هل تقدم لي معروفا، لا يكلفك أداؤه شيئا، فيه قضاء وطري؟ إذا بلغت الوزير، فبلغه أشواقي وشكري وتعظيمي وحبي وسلامي.

فهذه المعاني البسيطة، أداها القاضي عياض في ثوب زخرفي و زخم ثقافي كادت المعاني معه أن تضيع في اللفائف، وتصبح غامضة مبهمة.

فالمثنى تعبير نحوي، وقولا وعملا تعبير أصولي، وثقيلا ورملا تعبير عروضي، ومستلما تعبير فقهي، وإذا أضيفت إلى كلمة "مستلما" كلمات: عرفات، أنسك، أطِفْ، كعبة، سبعا...، فإن القاضي عياض يكون قد أحال القارئ للرسالة على باب من أبواب الفقه، وهو باب الحج وما فيه من مناسك، وهذا من الروافد الدينية التي أَلِفَ الاقتباس منها، وتضمينها في كل ما ينشئه من أدب، وقد ذلك في رسالته للحضرة النبوية ، وهذا إنما يدل على أن القاضي عياض كان يحبّر أعماله الأدبية من رسائل وغير رسائل، فنسيج الرسالة السابقة نسيج جيد من الألفاظ وما يزينها من فروع البلاغة، وإلى ذلك فهي تحمل حسا مرهفا بما فيها من معاني الود والتحية.

وفي رسالته الخامسة نجده يبالغ في حشر معلوماته الفلكية، فكأنه يلهو بالقارئ ويصوغ صورا غريبة، تلاعب من خلالها بأسماء النجوم ، " ولقد نجح عياض في إنشاء جو ملحمي مفرط في الخيال، و نجح في بث الحركة ، بل في هز الفضاء هزا، فهذه النجوم تقذف بالرجوم، و الشعريان يحس بالذعر، أما الثريا فإنها قطعت أصابعها، إنه الفزع الأكبر هذا الذي أصاب الكون كله بسبب رسالتين أرسلهما له صديقاه، وردّ عليها بهذه الرسالة".[1]

[1] - المرجع السابق - ص 173- 174 - بتصرف.

و يبدو أن القاضي عياض قد أعدّ في رسالته هذه عدته كاملة، فاستثار خياله، واستحضر معلوماته ومحّصها، ثم راح يكتب فجاءت رسالته فريدة في بابها، فيها صور بلاغية آخذة برقاب بعضها، مكثفة وغريبة في الوقت نفسه.

كما أنه كان شديد الولوع بالسجع في رسائله ، ومن أمثلة ذلك رسالته السابعة التي أرسلها للفتح ابن خاقان، يقول: "في علمك، سدد الله علا حكمك، ما جمعه فلان من جلائل تشذ عن الحصر، وفضائل يعترف بها نبهاء العصر، يقول فيختلس العقول، ويعن فيذهل الألباب ويحن ...".

فالرسالة تتكون من فقر قابل الكاتب فيها سجعتين بسجعتين ، فقوله: "ما جمعه فلان من جلائل، تشذ عن الحصر" يقابلها قوله: "فضائل يعترف له بها نبهاء العصر" ، وهكذا.

ثم إن القاضي عياض قد حرص على مساواة جمله (الازدواج) من الناحية الصوتية، ومن ذلك قوله: "إن نظم فعبيد أو لبيد، أو نثر، فعبد الحميد أو ابن العميد".

وبعض جمل الرسالة متفاوتة في الطول، إلا أنها تخضع لقياس دقيق جعلها تتوافق في فواصلها وكأنها موزونة، كقوله: "يقول فيختلس العقول، ويعن فيذهل الألباب ويحن" فهي تتكون من ثلاث حركات: الأولى قصيرة، تليها حركة طويلة، ويلي هذه حركة قصيرة، بها تنتهي الرسالة، وذلك يحدث تجاوبا نفسيا يحس به القارئ.

وقد أسند القاضي عياض سجعه بالجناس وأكثر منه بشكل ملحوظ في كثير من رسائله، ففي الرسالة السادسة نجده قد أثقلها بالجناسات والسجع، ورصعها أيضا بالطباق، ومنها:

(وحيد العصر- تفوت الحصر)

(تخف محملا- تبلغ أملا- تشكر قولا وعملا- ثقيلا ورملا)

(مسَلَّمًا- مسلِّمًا)

(حرما- كرمًا)

(عرفان- معارف- عوارف)

(سبعًا- ربعًا)

(سلاما- التئاما- مقاما- اهماما)

فهو يعمد إلى إنشاء إيقاع موسيقي يجعل النثر أقرب ما يكون من الشعر من الناحية الموسيقية، ففي رسالته التاسعة يقول: "لابد أعزك الله، لكل حين من بنين، يُحلون عاطله، ويَجْلون فضائله، ولكل مجال من رجال، يقومون بأعبائه، ويهيمون في كل واد بأنبائه ...".

وإلى جانب الألوان الزاهية التي كسا بها القاضي عياض رسائله فإنها كانت على درجة كبيرة من اللطافة والرقة المفرطة وقد تجلى ذلك في اعتذاراته وعتابه، وهي رقة توافق الواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه، وهو واقع تفرضه وتحكمه أعراف أدبية، ولذلك كان من الضرورة مراعاة منـــزلة ومكانة المخاطب الاجتماعية، وكذا علاقته بالمرسِل (المخاطِبْ) وقد كان القاضي عياض بطبيعة الحال من أعلى السلم الاجتماعي، والذين كان يكاتبهم كانوا في جل الأحيان من طبقته ولهذا أحيانا يكون خطابه مباشرا، ومما قاله القلقشندى عن رسوم إخوانيات المغاربة أن: " الخطاب في إخوانيات المغاربة عادة ما يكون خطاب المواجهة مثل: أنت، وأنا ، وعندي، ولك، وعندك، وربما خاطب الواحـــد بميم الجمع تعظيما للمكتـــوب إليه ...".[1]

ومن أمثلة رسائل القاضي عياض في العتاب الرسالة الثالثة، حيث يقول فيها: "ليت شعري، أَأَعْتِبُ أَمْ أُعتِبْ؟ وأَعتَرِفُ بالذنب أم أُذْنِتْ؟ لا جرم لو علمت لنفسي جرما،لجعلت عليها برد الشراب حراما ، وسلبتها لذيذ المنام عزما، حتى يفيء إليها من وجد عليها، ويرضى عنها الـــمتظلم منها ..." ، فالرسالة رسالة عتاب، يعاتب فيها القاضي عياض صديقين له على انقطاعهما عنه، وقد تلطف في عتابه، فهي تقطر رقة وتذوب شفافية، والرقة المفرطة من سمات هذا اللون من الرسائل .

"وبدافع الرغبة في التأنق والتلطف، وقع عياض في الإطناب، وواضح أن التعبير المباشر أوجز، إلا أنه في هذه الرسائل ينعدم الخطاب المباشر، وهناك أمر آخر وراء هذا الإطناب، وهو الرغبة في التلوين و الزخرفة عن طريق إبراز المعنى الواحد في ثياب مختلفة، وذلك تفنن في القول كان محمودا لديهم".[2]

ومن أمثلة ذلك خطابه للفتح ابن خاقان في الرسالة السادسة إذ يقول: "عمادي أبا نصر مثنى الوزارة، ووحيد العصر" فهو يخاطب هنا الفتح بأربعة معاني وأوصاف، العماد ، كنيته (أبو نصر)، ثم: مثنى الوزارة (أي أنه يجمع بين القلم والسيف، ويقال أيضا: ذو الوزارتين) وأخيرا: وحيد العصر.

ثم يقول: " هل لك في منة تفوت الحصر، تخف محملا، وتبلغ أملا، وتشكر قولا وعملا، شكرا تترنم به الحداة ثقيلا ورملا ؟ " وهذه الأوصاف كلها تحمل معنى واحد وهو: هل تقدم لي معروفا؟ ثم تتوالى المعاني في هذه الرسالة على هذا المنوال من إيراد للمعنى الواحد في أثواب مختلفة حتى نهايتها.

---

[1] - القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن علي- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية – القاهرة – مصر- 1334هـــ/1915م- ج8 - ص 148 - بتصرف.

[2] - شقور، عبد السلام - القاضي عياض الأديب - ص 171.

والتكلف واضح فيها إذ أن القاضي عياض قد طاف يمينا وشمالا ليقول شيئا لم يكن في حاجة لكي يقوله إلى كل هذا الطواف، ولكن هنا تكمن البراعة لأن تكلفه كان خفيف الوقع سهل الورود، أما التكلف الممجوج فهو ذاك الذي يُعَدُّ افتعالا للموضوع، وهو أقرب إلى الزيف الفني منه إلى الصدق الفني ، يقول صاحب "الصناعتين " : " فالتكلف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بسهولة، والكلام إذا جُمِعَ وطُلِبَ بتعب وجهد، وتوالت ألفاظه من بعد فهو متكلف ".[1]

والقاضي عياض في رسالته هذه شأنها في ذلك شأن بقية رسائله الإخوانية إنما كان يرغب في عرض بضاعته الفنية، إذ اتكأ على ثقافته الدينية، وضمَّن رسالته مناسك الحج قاصدا بها حضرة الوزير.

و لابد أنه كان ينظر إلى هذا على أنه لون من ألوان البراعة الأسلوبية "وإن رسائل عياض الإخوانية تحفة فنية جمعت بين البناء الهندسي الدقيق والمعاني البالغة في الرقة واللطافة، وهي تثير العقول دون شك، و إن كانت لا تحرك وجدانا، وما اعتقد أن عياضا كان يرى عكس هذا، وقد سبق أن قلت أنه إنما كتبها على هذا الشكل مجاراة لمعاصريه ليس غير ".[2]

"وقد اعتمد السجع اعتمادا ، والتزم في سجعه مالا يلزم، و استطاع بمقدرته اللغوية وبراعته الأدبية أن يتسامى عن شغف المتشدقين ممن عاصروه أو أتوا بعده ".[3]

وكما كانت رسائله الإخوانية ميدانا لعرض الألوان البديعية المختلفة، فإنها كانت كذلك مناسبة لاستعراض ألوان ثقافية مختلفة تَـــفَـــنَّـــنَ الكاتب في صياغتها، و لم يكن الأمر يقف عند حد الاقتباس والتضمين كما هو شائع بل تجاوز ذلك إلى صور أبعد دقة وأكثر ابتكارا، ويظهر أنه كان يختار لكل رسالة رافدا أو روافدا يشكل موضوعا تقوم عليه، فتارة يكون الموضوع هو أيام العرب، وتارة يكون ركنًا من أركان الدين أو ميدانًا علمياً آخر مثل علم الفلك أو غيرها من المواضيع التي يلم بـــها إلـــماما جيدا.

---

[1] – العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل – كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر – ص 44.

[2] – شقور، عبد السلام – القاضي عياض الأديب – ص 170.

[3] – الفاخـــوري ، حنـــا – تاريخ الأدب في المغرب العربي – دار الجيل – بيروت – لبنـــان – ط1 – 1417هـــ / 1996م – ص 264.

3- الرسالة العلمية:

إن هذا الضرب من الرسائل دعت إليه ضرورة تواصل القاضي عياض بشيوخه، وأحيانا بتلامذته ، " و قد كان فقهاء المالكية على الخصوص يتكاتبون فيما بينهم باستمرار، فقد أَلَّفت بينهم المحن، وخاصة في شمال إفريقيا (خصوصا في عهد العبيديين)، إلا أن مؤرخي الآداب لم يهتموا بالرسالة العلمية، بل وقف اهتمامهم عند الرسالة الإخوانية".[1]

وأسباب ذلك معروفة و ترجع أساسا إلى أن الرسالة العلمية لم تكن بأسلوبها مما يغري المؤلفين والمؤرخين للأدب بجمعها، وذلك على عكس الرسالة الديوانية أو الإخوانية، فالرسالة العلمية بسيطة في أسلوبها، خالية تماما من كل ما شاع آنذاك من ألوان بلاغية في الكتابة، فهي أقل أهمية من الجانب الفني والأدبي من الرسائل الأخرى ، والمؤلفين والمؤرخين إنما كانوا يهتمون عادة بالطرائف والمنتخبات الأدبية.

وموضوع رسائل القاضي عياض العلمية هو النوازل الفقهية، وهي قضايا تتشابه في هدفها عموما، إذ أن القاضي عياض وبخاصة عندما كان قاضيا مبتدئا كثيرا ما تعرض له قضايا ومسائل فقهية تتعلق بالنوازل وما يستجد بين الناس، فتشكل عليه فيعمد إلى جمعها وتضمينها في رسالة يبعث بها إلى شيخه ابن رشد الجد (ت520هـــ) بقرطبة.

والرسالة المذكورة في النماذج تتضمن نوازل تتعلق بالسقى والأرجاء، فهي ذات قيمة بالنسبة للفقيه لمعرفة الحكم الشرعي في هذه القضايا، وكذا بالنسبة للمؤرخ في معرفة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر ، والملاحظ من مضمون هذه الرسالة أن النوازل كانت من التعقيد بحيث كثر فيها النــــزاع بين علماء سبتة، فرأى القاضي عياض أن يَسْتَنْجِدَ بشيخه. وأهم ما تطالعنا به هذه الرسالة "عدم التأنق في البدء و الختام".[2]

و واضح أن أسلوب الرسالة العلمية يختلف كليا عن أسلوب باقي الرسائل فالقاضي عياض الذي كان شديد الكلف والولوع بجميع الألوان البلاغية في الأنواع الأخرى من الرسائل، قد تحلّل كليا من ذلك في هذه الرسالة وذلك راجع لسبب وجيه، وهو أن أساس الفرق بين الرسالة العلمية والرسالة الإخوانية هو أن الأسلوب في الثانية هدف بذاته، بينما هو وسيلة فقط في الأولى.

---

[1] - شقور، عبد السلام - القاضي عياض الأديب – ص 175 - بتصرف.

[2] - مبارك ، زكي - النثر الفني في القرن الرابع – دار الجيل – بيروت – لبنان – 1352هـــ/1934م - ج1 – ص 68.

يقول في صدر رسالته: " أدام الله توفيق الفقيه الأجل، معظمي، وأبقاه، وختم له بحسناه، وجمع له خير دنياه وأخراه" ، فباستثناء هذه المقدمة التي حلاها القاضي عياض ببعض السجعات، البسيطة العفوية " فإن باقي الرسالة من الأسلوب المرسل الشديد الإيجاز، هذا الإيجاز الذي يكاد يضلل القارئ، فلا يقف على المعنى المقصود إلا بجهد "[1]، والمطلوب هو قراءة هذه الرسالة قراءة فقهية وليست قراءة أدبية لأن مضمونها نوازل تخص علم الفقه، ولا مجال فيها لإيحاء الكلمات و لا لبعد الخيال، أما القيمة الأدبية لها فهي تتمثل في تلك الصياغة البليغة التي صيغت بها الرسالة، وهذا على الرغم من موضوعها العلمي أو المتسم بذلك الطابع العلمي، أو الاجتماعي الذي يدخل في الإطار الاقتصادي والزراعي، ومما لا شك فيه أن موضوعا كهذا لا يمكن صياغته في قالب أدبي معتمد على الأساليب الشعرية كالسجع والصور البيانية والخيال.

---

[1] - شقور، عبد السلام - القاضي عياض الأديب - ص 177.

الفصـــل الثالـــث

التراجـــم و السيـــر

I- الترجمة و السيرة والفرق بينهما

II- فن التراجم و السير عند القاضي عياض

III- البناء و التشكيل الفني

أولا : التراجـــم

ثانيا : السيـــرة

I- الترجمـــة والسيرة والفـــرق بينهما:

1- تعريف الترجمة:

أ- لغة:

يرجع الأصل اللغوي لكلمة "ترجمة" إلى مادة "رجم" وقد وردت في المعاجم اللغوية العربية بمعنى "التفسير".

ففي لسان العرب في مادة"رجم" : " و"التَرْجَمان" و" التُرْجُمَان": المُفَسِرُ، وقد ترجم عنه ... ويقال قد تَرْجَمَ كلامه إذا فسره بِلِسَان آخر، ومنه التَرْجَمان، والجمع التَرَاجِم مثل زَعْفَرَان وزَعَافِر وصَحْصَحَان وصَحَاصِح ... ولك أن تضم التاء لَضمِه الجيم فتقول: " تُرْجُمَان".[1]

أما في القاموس المحيط فإن لفظ الترجمان قد جاءت بمعنى: "المفسر للسان، وقد ترجمه وترجم عَنْه"[2] ويلاحظ أن لفظة "تراجم" في معناها اللغوي إنما تدل على مفهوم الترجمة (Traduction) بالمعنى الحديث ، والتي تعني "نقل الآثار الأدبية وسواها من لغة إلى أخرى فهي فن قائم بذاته من الفنون الأدبية، توصل المعاني الأجنبية والصياغة الأصيلة في وضوح وأمانة".[3]

وهذا الفن ليس هو المقصود بالدراسة، بل المقصود بمعنى "التفسير" ليس تفسيرا ما بالكلام من إبهام، وإنما تفسير ما بحياة الشخص من إبهام من خلال التعريف بحياته ومآثره، وكشف الغطاء عن رؤاه وأفكاره للتمكن من فهما واستيعابها.

وكلمة "ترجمة" كلمة دخيلة إلى العربية من اللغة الآرامية جرى استعمالها في أوائل القرن السابع الهجري، استعملها "ياقوت الحموي" في "معجم البلدان بمعنى حياة شخص، و "أبو الفروح الأصبهاني" في كتاب "الأغاني" لم يستعمل كلمة "ترجمة" عند حديثه عن حياة الشعراء وغيرهم بل استعمل كلمة "خبر".[4]

---

[1]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم- لسان العرب- مجلد 12 - ص 229.

[2]- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب- القاموس المحيط- ص 1123 .

[3]- جبور، عبد النور- المعجم الأدبي- ص 64- بتصرف.

[4]- العيساوي، ريم- فدوى طوقان: نقد الذات، قراءة السيرة- أندية الفتيات بالشارقة- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- مصر- ط01- 1420هـ/ 1999م- ص 10- بتصرف.

ب- اصطلاحا :

" الترجمة " جمعها " تراجم" وهي "ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر، تعريفا يطول أو يقصر، ويتعمق أو يبدو على السطح، تبعا لحالة العصر الذي كتِبت فيه الترجمة، وتبعا لثقافة المترجم – أي كاتب الترجمة- ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له".[1]

ويعرف الدكتور عز الدين إسماعيل الترجمة بقوله: "وترجمة الحياة "Biography" هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصر العظمة فيها، وهي تتسع لتشمل جوانب العظمة وجوانب الانحطاط -إن وجدت- في الشخصية المترجم لها، فالترجمة في الواقع عملية تحليلية لكل مركب من عناصر كثيرة مختلفة هو الشخصية، ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها، والتي يهم الآخرين الإطلاع عليها".[2]

فالترجمة إن هي فن أدبي نثري يقوم على استعراض حياة عَلَم استأثرت شخصيته بالاهتمام، وكانت لها قيمة وتأثير في حياة الناس، وذلك بالكشف عن كل غموض وإبهام يلف جوانبها، ومواقفها وإنجازاتها من مولدها حتى مماتها، إن كانت متوفية، أو حتى لحظة كتابة الترجمة عن كانت على قيد الحياة.

2- تعريف السيرة :

أ- لغة :

يرجع أصلها اللغوي إلى مادة "سير" والسيرة في اللغة: السُنَةُ، يقول صاحب التاج:" السِيرة بالكسر السُنَةُ، وقد سارَتْ وسِرْتُهَا... والسِيرة: الطريقة، يقال: سارَ الوالي في رعيته سيرة حسنة ، وأحسن السير ، وهذا في سير الأولين... و السيرة الهيئة ، و بها فُسرٍَ قولـــه تعـــالى:﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[3] والسِيرَةُ: الميرةُ".[4]

نقول: "سَايَرَه، ومايَرَه: حاكاه ففعل مثل ما فعل".[5]

---

[1]- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- دار المعارف- القاهرة- مصر- ط2- 1969- ص 09.

[2]- إسماعيل، عز الدين- الأدب وفنونه- ص 203- بتصرف.

[3]- سورة طه- الآية (21).

[4]- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني- تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق مصطفى حجازي- مطبعة حكومة الكويت- ج12 - ص 116- 117.

[5]- الفيروز أبادي، مجد الدين بن يعقوب- القاموس المحيط- ص 528.

وفي اللسان: "سَيَر سِيرةً: حدّث أحاديث الأوائل".[1]

وقد أورد صاحب الصحاح معنى لفظة "السيرة" بقوله: "السيرة الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة ...".[2]

وقد نالت مادة "سير" هذا الاهتمام من قبل أصحاب المعاجم نظرا لأهميتها وأهمية فن السير.

ومن مدلول الكلمة اللغوي يصح القول بأن السيرة تعني الطريقة والمذهب الخاص، وهي سلوك ذاتي ومنهج شخصي يسلكه الإنسان في فعل محمود أو مذموم.

ب- اصطلاحا:

السيرة هي "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة...ويفصّل المنجزات التي حققها وأدت إلى ذيوع شهرته، وأهّلته لأن يكون موضوع دراسة".[3]

فهي "نوع أدبي يعرف بحياة علم من الأعلام، أو هي: السرد المتتابع لدورة حياة شخص، وذكر الوقائع التي جرت له أثناء مراحل حياته".[4]

فالسيرة إذن فن أدبي نثري يجمع بين القصة والتاريخ، وذلك من خلال سرد حياة شخصية من الشخصيات البارزة واستعراضها بإعطاء صورة صادقة ومشوقة عن حياتها وذلك بالكشف عن جوانب هذه الشخصية بمختلف أبعادها الجسمية والاجتماعية والعقلية.

وليس معنى هذا أن على الأديب أن يتقمص دور عالم نفسي فيدخل لأعماق هذه الشخصية ويحاول رصد ظواهرها وتحليلها ووضع الفرضيات والوصول إلى نتائج معينة، إذ أن هذا العمل أقرب إلى العلم منه إلى الأدب، ولكن عمل الأديب كاتب السيرة يقتصر على تسليط أضواء كاشفة على جوانب الشخصية المختلفة تتيح للقارئ أن يتعرف بوضوح على صاحب السيرة.

والسيرة أيضا بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته، وظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلّفه في الحياة من بعده.

---

[1]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم- لسان العرب- مجلد 04- ص 390.

[2]- الرازي، محمد بن أبي بكر- مختار الصحاح- ص 212.

[3]- جبور، عبد النور- المعجم الأدبي- ص 143- بتصرف.

[4]- العاكوب، عيسى، وآخرون- أساليب التعبير الأدبي- دار الشروق- عمان- الأردن- ط1- الإصدار 03- 2000- ص 192.

3- أشكال السيرة :

للسيرة بشكل عام أشكال مختلفة، واختلاف أشكالها منبثق من اختلاف الضابط المعتمد في التصنيف، ولكن جل الدارسين يقسمونها باعتبار كاتبها، فهي إما أن تكون "سيرة غيرية" وهي التي يكتبها كاتب ما عن شخص آخر، وإما أن تكون "سيرة ذاتية" وهي التي يكتبها الشخص بنفسه عن نفسه، وفي ما يلي بيان كل نوع:

أ- السيرة الغيرية :

وتسمى أيضا: السيرة الموضوعية، وفيها يعرف الكاتب بشخصية غير شخصيته، سواء كان ذلك في حياتها أو بعد موتها، ولابد أن يفهم الكاتب الشخصية التي يكتب عنها في البيئة والزمن الذين عاشت فيهما.

فهي بهذا المفهوم تقدم "سردا تاريخيا مقصودا لحياة إنسان أو على الأقل تركز على الجزء الأكبر من حياته، أو الجزء الذي جعل منه شخصية مبرزة، وهذه المواصفات هي التي تمنح السيرة شكلها الأدبي المتميز"[1].

فالدافع إذن لكتابة السيرة الغيرية هو الرغبة في البحث والاكتشاف والتعرف على الغير.

وقد اهتم العرب والمسلمون بالسيرة الغيرية اهتماما كبيرا وكانت في البداية تقتصر على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، "وأول ما استعملت لفظة السيرة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسمي المؤلفون فيها بأصحاب السير وأشهرهم ابن سعد صاحب "الطبقات الكبرى" وابن هشام صاحب "سيرة الرسول " إلا أن ذلك لم يمنع مؤلفا في أواخر القرن الثالث الهجري هو احمد بن يوسف بن الداية – الكاتب المصري- أن يؤلف كتابا في "سيرة احمد بن طولون" ولعل هذه هي أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة "سيرة" من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، إلى سيرة غيره من الرجال".[2]

وقد كان الهدف من مثل ها النوع من السيرة في بداياته هو التعلق الشديد بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي الحديث عن سيرته بكل هذه التفاصيل.

والسيرة الغيرية تعد أداة للتعبير الموضوعي الذي يخلص إليه الكاتب من المرويات والأخبار التي تمثل الحقيقة التاريخية حول الشخصية التي يكتب سيرتها.

---

(1)- راغب، نبيل- دليل الناقد الأدبي- ص 141.

(2)- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- ص 28- بتصرف.

ب- السيرة الذاتية :

وفيها يكتب الأديب عن نفسه ويستعرض حياته، فهي : " أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته".[1]

وغالبا ما يكون الدافع لكتابتها هو نزعة الأديب للتعريف بالذات أو التنفيس عنهـــا، أو نقل تجربته للآخرين.

"ومما لا شك فيه أن السيرة الذاتية هي قصة حياة إنسان يرويها بنفسه، ولكن ذلك لا يعني أن كل حديث يسرده الإنسان عن نفسه هو سيرة ذاتية "[2] إذ أنه: " ليس السيرة الذاتية حديثا ساذجا عن النفس ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر "[3] ولا هي تصوير للمشاهدات والوقائع الخارجية، ولا هي مجرد يوميات أو مذكرات يهتم صاحبها بذكر الأحداث التاريخية فيها وبيان تطورها، غير مهتم بشكل أساسي بالتعبير فهذه الأشكال من الكتابة قد تشترك مع السيرة في بعض الخطوط العامة، ولكنها لا تعد سيرة أدبية.

والسيرة الذاتية هي "مضنة الإغراق والمغالاة غالبا، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها "[4] ففيها تسهل عملية الرصد والمراقبة و لا سيما فيما يتعلق بالناحية النفسية، ولكن يصعب توفر النـــزاهة في التعليل والحكم ، لان المرء يستطيع أن يعرض ما يفكر بـــه أو يعمله ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكما مجردا على نفسه، ومن ثم شك بعض الدارسين في صدق السيرة الذاتية وأمانتها في ذكر الحقائق وتفسيرها وتقويمها لأن الإنسان مهما بلغت درجة صراحته وصدقه فإنه قد يأبى أن يبوح بكل ما يخطر له من أفكار وما يجيش في صدره من نزعات ولا سيما إذا كانت منافية للأعراف والأخلاق.

كما أن كاتب السيرة الذاتية يمكن أن يتجنب في سيرته "ذكر بعض الوقائع التي لا يعرفها أحد سواه، أو أنه لا يذكر الوقائع كاملة لتحرجه من بعض أحداثها لكونها قد تمس بعض الأشخاص في زمانه"[5] يضاف إلى هذا " أنه مهما بلغت صراحة كاتب السيرة الذاتية وشجاعته، فإنه غالبا ما

---

[1]- المرجع السابق- ص 23.

[2]- شاكر، تهاني عبد الفتاح- السيرة الذاتية في الأدب العربي- المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت - لبنان - ط1- 2002 - ص 11.

[3]- عباس، إحسان- فن السيرة- دار صادر - بيروت- لبنان- دار الشروق- عمان- الأردن- ط1- 1996- ص 91 - بتصرف.

[4]- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- ص 23.

[5]- نجا، أشرف محمود- في الأدب الأندلسي- بحوث في نقد الخطاب الإبداعي- ص 182.

يحرص على أن يقدم صورة متناسقة لحياته من أولها إلى آخرها، وهو لذلك قد يتجنب تلك الوقائع التي قد تبرز نوعا من التناقض في شخصيته".[1]

وقد عبر عن هذا المعنى "أحمد أمين" في كتابه "حياتي" الذي يعد سيرة ذاتية له بقوله: "وضعت هذا الكتاب (كتاب حياتي) ، و لم أذكر فيه كل الحق، ولكني لم أذكر فيه أيضا إلا الحق فمن الحق ما يرذل قوله، وينبو عن الأذن سماعه، وإذا كنا لا نستسيغ عري كل الجسم، فكيف نستسيغ عري كل النفس"[2].

غير أن السيرة الذاتية "إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقا على حياته، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض، ولكنها مجال تحقيق وتثبت، ولهذا يصح في صاحب السيرة الذاتية المثل العربي: قطعت جهيزة قول كل خطيب"[3] .

فالواضح إذن أن السيرة الذاتية هي شكل نثري يحمل رؤية خاصة لأحداث تاريخية قد تنقل بموضوعية أو بتكلف ومغالاة، كما أنها تعبر عن حالات انفعالية من التأثر والتأثير في الأحداث التي مرت بصاحبها خلال حياته.

ومهما يكن من أمر فإن في طليعة شروط السيرة الناجحة (غيرية و ذاتية) الأمانة في ذكر الحقائق والحرص على البحث عنها في مظانــــها، والإنصاف في الأحكام التي يصدرها الأديب على نفسه أو على غيره.

4- الفرق بين السيرة والترجمة :

أغلب المُنَظرين والدارسين لهذا النوع من الأدب لا يرون الفرق بينهما في طبيعة اللغة والأساليب وإنما يرجع للاصطلاح والحجم، فأغلبهم يصطلحون على الفن بمصطلح الترجمة إذا لم يطل نَفَس الكاتب فيها، وإذا كان العكس سميت سيرة.

يقول محمد عبد الغني حسن: "ما الفرق بين الترجمة والسيرة؟ ليس في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينها على وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا، فقد جرت

---

(1)- إسماعيل، عز الدين- الأدب وفنونه- ص 211.

(2)- أمين، أحمد- حياتي- المؤسسة الوطني للفنون المطبعية (موفم)- الرغاية- الجزائر- ط2- 1988- ص 12.

(3)- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- ص 23.

عادة المؤرخين أن يسمو الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نَفَسُ الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت: سيرة"[1] .

وهذا يجعل السيرة متميزة بغزارة المعلومات وتنوعها مقارنة بالترجمة، وبديهي أن لا ينهل القارئ من صفحة أو صفحتين في ترجمة شخص ما، ما سينهله من مجلد كامل في سيرة ذلك الشخص.

ويرى أنيس المقدسي أن مصطلح "السيرة" نستعمله إذا تناولت الدراسة الواحدة شخصا واحدا، وكان هو محورها، ومصطلح "الترجمة" نستعمله إذا تناولت الدراسة الواحدة أكثر من شخص[2].

وقد عبر إحسان عباس عن هذا المعنى بقوله: "التراجم، وهي معاجم للسير".[3]

وهذا يعني أن الفرق بين التراجم والسير لا يتعلق بالناحية الفنية بقدر ما يمس الناحية الكمية، وطول السيرة يستدعي بالضرورة استقلاليتها، إذ يصبح لزاما على الكاتب - نظرا لكثرة المادة المترتبة عن الاهتمام بدقائق الأمور، والتفصيل في عرض حياة المترجم له- أن يخص الشخصية التي يكتب عنها بمؤلف مستقل.

فهو في السيرة يتعمق في إبراز تفاعل الشخصية مع بيئتها، بينما في الترجمة قد لا يفعل، إذ يسرد حياة الشخصية ومواقفها وأهم إنجازاتها.

كما أن الترجمة تتمسك بالحقيقة أكثر من السيرة، لأن أفق هذه الأخيرة أرحب وأوسع، وأكثر حرية في الإبداع، فكاتب الترجمة ينقل الحقيقة كما هي، لأنها تأريخ لحياة المترجم له، ولكن بطريقة أقل من التاريخ، أما السيرة فإن كاتبها يبني شخصية صاحبها، معتمدا على الحوادث والآراء والأدلة، فالسيرة بذلك أقرب للفنية الأدبية من الترجمة.

وقد تتداخل في السيرة فنون أخرى كالرحلة والجغرافيا والتاريخ، وذلك راجع لكونها مسرحا لكل الأحداث، فهي تورد التفاصيل من حيث المكان والزمان وتكثر فيها الاستطرادات، كما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي كتبها "ابن هشام" وتهتم بدقة التفاصيل من حيث المكان والزمان وإيراد أسماء الأعلام بكثرة، وبالتالي تبرز فيها خصائص أسلوب الكاتب وشخصيته أكثر من الترجمة.

---

[1]- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- ص 28.

[2]- المقدسي، أنيس- الفنون الأدبية وأعلامها- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- ط2- 1980- ص 547.

[3]- عباس، إحسان- فن السيرة- ص 16.

فالسيرة إذن هي ما طال من حديث عن حياة الفرد ومواقفه وغيرها، والترجمة هي ما كان سردا مختصرا موجزا، يقتصر فيها المترجم على ذكر المحطات الكبرى والمواقف البارزة في حياة المترجم له، وعلى العموم فإن الدارسين على خلاف في استعمال المصطلحين، وغالبا ما يأتي المصطلحان مقترنان فيقال: "فن التراجم والسير".

II – فن التراجم والسير عند القاضي عياض:

لقد لاقى التاريخ الإسلامي عناية كبيرة من جوانبه المختلفة، وعبر مسافات زمنية طويلة ومساحات مكانية شاسعة، وعكف المصنفون على تسجيل تفاصيل المعرفة الشاملة الداخلة في تكوين عبقرية الحضارة العربية الإسلامية.

"ويظهر أن جمع الأحاديث النبوية الشريفة كان الباعث الحقيقي على الاهتمام بتمييز أهل الثقة من غيرهم، ثم تعدى ذلك إلى فروع المعرفة الأخرى".[1]

وقد توسع التأليف في هذا المجال اتساعا كبيرا حتى مس كل الفئات والطبقات، فصار بعض المصنفين يتناولون ذوي الاهتمام الواحد، ويتتبعون أخبارهم وأحوالهم وهذا ما جعل تراجم الرجال في آداب اللغة العربية تشغل " أبين مكان، وتستغرق أكبر حيز، بل لا نبالغ إذا قلنا، إن ما نسميه اليوم " أدب اللغة " كان يدور حول تراجم الرجال من أدباء وشعراء وعلماء، وذكر شيء من أجود ما قالوا، فأقدم كتب الأدب كالأغاني إنما بني على الأصوات المختارة، وتدرج منها إلى ذكر الأدباء وترجمة حياتهم، وأهم ما عرض لهم".[2]

وقد أخذت كتب التراجم والطبقات تكثر وتتعدد وتتنوع، ويقوم بها المؤلفون بوحي من أنفسهم واستجابة لدواعي العلم، لا تقربا إلى وال، ولا تزلفا إلى أمير، ولا إجابة لرغبة راغب أو طلب طالب".[3]

وهذا ما جعل فن التراجم والسير يمتاز بكونه: "صورة تجسد الجوانب النفسية والعقلية والعلمية والاجتماعية للمترجم له، بالإضافة إلى إحساس المترجم بالصدق التاريخي والأمانة العلمية ".[4]

وكما تمت الإشارة إليه سابقا، فإن الباعث الأول على ترجمة الرجال- في الإسلام- كان باعثا دينيا، وذلك من وجهين:

أولهما أن المسلمين في أثناء جمعهم للحديث النبوي الشريف رأوا قسما كبيرا منه يتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، وغزواته وحوادث تتعلق بكبار الصحابة كأبي بكر الصديق –رضي الله

---

[1]- زمري، محمد- الأعلام المغاربة في مصنفات المشارقة- ص 09.

[2]- أمين، احمد- فيض الخاطر- المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (موفم)- الرغاية- الجزائر- 1989- ج2- ص 265.

[3]- حسن، محمد عبد الغني- التراجم والسير- ص 20- بتصرف.

[4]- بهنام، هدى شوكة- النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب للمقري- دار الرائد العربي- بيروت- لبنان- ط2- 1984- ص 92 - بتصرف.

عنه- وفتوحاتهما، فكان ذلك أساسا لوضع كتب السير، وكانت أول سيرة كتبت هي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما الثاني فهو أن علماء المسلمين لما هالتهم كثرة ما وُضِعَ كذِبًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث لجأوا إلى وسائل يعرفون بها صحيح الحديث من ضعيفه وموضوعه وكان من هذه الوسائل وأهمها هو تشريح رجال الحديث، ونقدهم اعتمادًا على علم "الجرح والتعديل"، فتكَونَ من ذلك مجموعات من تراجم الرجال وسيرهم وشيء مما حدث لهم، ليستفاد من صدقهم وكذبهم، ثم توسعت دائرة التراجم وتجاوزت المحدثين إلى رجال الأدب الذين أبدعوا أيما إبداع في التراجم والسير واحكموا بناءها وصياغتها.

وقد كان القاضي عياض من أشهر أصحاب تراجم الرجال إذ كانت حياته موزعة بين القضاء والتأليف والتدريس شأنه في ذلك شأن علماء عصره الذين كان للتأليف عندهم شأن كبير، فكثيرا ما كانوا يدرسون مؤلفاتهم وتصانيفهم في حلقاتهم العلمية إلى جانب ما سمعوه وتلقوه من كتب على شيوخهم.

وقد اتجهت تراجم القاضي عياض اتجاها إخباريا معتمدا على الروايات فقد أرخ لأعلام مذهب الإمام مالك –رحمه الله- وكذا لشيوخه الذي تتلمذ عليهم في المغرب وفي الأندلس، مسجلا أخبارهم ومروياتهم وأهم كتبهم التي ألفوها أو التي تلقاها عنهم.

وقد صنف القاضي عياض في السيرة كتاب واحد هو "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى" وهو عبارة عن كتاب في التعريف بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، إلى جانب ما يجب على المسلم نحو الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تضمن فوائد شتى في الحديث والسيرة النبوية والتفسير وغيرها.

أما في التراجم فله أربعة كتب هي "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" وكتاب "الغنية" وهما كتابان موجودان ومطبوعان، وثالثهما هو كتاب "المعجم في شيوخ ابن سكرة الصدفي" وقد ذكره ولده أبو عبد الله بقوله: "وكتاب المعجم في شيوخ ابن سكرة سفر"[1] وقد علق عليه محقق "التعريف" الدكتور محمد بن شريفة "بأنه يعتبر مفقودا[2].

[1]- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 117.

[2]- المصدر نفسه- ص 117- الهامش رقم 296.

وهو نفسه ما توصل إليه الدكتور: البشير علي حمد الترابي إذ قال: "هذا الكتاب من مؤلفات عياض المفقودة، وهو كتاب ترجم فيه لشيوخ شيخه الحافظ الصدفي ... وقد بحثت عنه في خزانات المغرب بالرباط، وفاس وتطوان فلم أعثر له على خبر"[1] .

ورابعها هو كتاب "جمهرة رواة مالك" وقد ألفه قبل "ترتيب المدارك" بل وكان من مصادره في تصنيف "ترتيب المدارك"، وهو كتاب مفقود، ولم يذكره أحد من المتقدمين ولا المتأخرين عدا الأستاذ عبد السلام شقور في كتابه "القاضي عياض الأديب" حيث قال: "لقد تعمدت الإكثار من هذه النقول لكي لا يبقى أي شك في وجود هذا الكتاب الذي قلت عنه أن أحدا لم يذكره باستثناء مؤلفه"[2].

وقد أشار القاضي عياض إلى هذا الكتاب، أكثر من مرة، فقد فعل ذلك في مقدمة "ترتيب المدارك" حيث قال: "ولم أقصد في هذه الورقات (يعني كتابه ترتيب المدارك) لاستيعاب كل من ذكرت له عنه رواية أو مجالسة أو سؤال، إذ قد أودعنا ذلك كتابا آخر في جمهرة رواة مالك، انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راو وتقصيتها من الكتب المؤلفة في ذلك".[3]

فكتاب القاضي عياض هذا (جمهرة رواة مالك) من الكتب التي لا يعرف عنها إلا أسماؤها، إلا أن القاضي عياض قد أفاد الدارسين والباحثين بأن مؤلفه يشتمل على أكثر من ألف وثلاثمائة اسم من أسماء رواة مالك، وان اسمه كما يظهر من خلال حديثه عنه هو "جمهرة رواة مالك".

أما كتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" فهو كتاب في طبقات المالكية.

يقول عنه ابن فرحون المالكي في "الديباج المذهب": "أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي كتب في طبقات المالكية كتاب: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك"، وكتابه هذا هو واسطة العقد، ودرة التاج، في التراجم التي سبقته والتي لحقت به على السواء".[4]

وهو يعتبر من جهود القاضي عياض في علم الرجال.

---

[1]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 157.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 117.

[3]- عياض، أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك- تحقيق: أحمد بكير محمود- دار مكتبة الحياة- بيروت- لبنان- دار مكتبة الفكر- طرابلس- ليبيا- 1968- ج1- ص 44.

[4]- المالكي، ابن فرحون- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- ج1- المقدمة- ص : ي .

أما كتاب "الغنية" فهي مشيخة القاضي عياض، جمع فيها تراجم شيوخه وسماعاته عليهم، وقد جاوزوا المائة شيخ، وتعتبر من المشيخات العظيمة التي تصور حال طبقة من العلماء عاشوا في زمان واحد.

وحين يترجم القاضي عياض لكل شيخ من شيوخه يذكر ما أخذ عنه سماعا أو إجازة، والغنية تعتبر فهرسا لشيوخ القاضي عياض، وهي أيضا من جهوده في علم الرجال وسيأتي بيان الكتب الثلاثة من حيث المحتوى والأسلوب والخصائص المميزة لكل منها.

III – البنـــاء والتشكيل الفني:

أولا: التراجم :

1- كتاب ترتيب المدارك:

أ- موضوعه: لقد سمى القاضي عياض كتابه هذا باسم: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" ، بهذا الاسم الكامل ذكره ابنه أبو عبد الله في "التعريف"، فقال: "وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، خمسة أسفار، و لم يسمعه"[1] ، وكثير من الدارسين يختصر اسمه إلى : "المدارك" وهو يعد أكبر موسوعة تتناول ترجمة رجال المذهب المالكي ورواة " الموطأ " وعلمائه.

والكتاب في طبقات المالكية ابتداء من الإمام مالك إمام المذهب الذي أفرده القاضي عياض بترجمة هي أجمع وأشمل وأصح ما كتب عن الإمام مالك، وإلى غاية الطبقة التي أدركها القاضي عياض.[2]

وقد كان الهدف من تصنيف "ترتيب المدارك" هو أولا الترجمة لمن أخذ العلم عن الإمام مالك رحمه الله وفي طبقات المالكية على مر العصور حتى عصر القاضي عياض وجمع تراجمهم في موسوعة كبرى، وثانيا: الدفاع عن المذهب المالكي، فقسم هام من الجزء الأول من "ترتيب المدارك" كله في الدفاع عن المالكية ورجالها.

وقد أراد القاضي عياض " ترسيخ جذور المالكية في المغرب فاهتم بالمذهب، وبرجاله، ولا يعني هذا أن المالكية كانت غريبة عن المغرب إلى أن جاء عياض، لا أحد يقول بهذا، لأن جذور المذهب المالكي ترجع إلى عصورٍ سابقة لعصر عياض، لكن لا أحد ينكر ما لتأليف عياض من تأثير على وضع المذهب في المغرب، فالمالكية في المغرب عرفت دورا جديدا من حياتها على يد عياض ".[3]

و" ترتيب المدارك" يقع في خمسة أسفار كما ذكر أبو عبد الله في التعريف، أما حجم الكتاب في طبعة دار مكتبة الحياة بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود – وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة- فقد جاء في أربعة أجزاء، كل جزئين في مجلد، ثم مجلد ثالث يمثل الجزء الخامس أفرده المحقق للفهارس .

---

(1)- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 116.

(2)- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 415- بتصرف.

(3)- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 119- بتصرف.

وقد ضمن القاضي عياض كتابه هذا ألفًا وخمسمائة ترجمة قدم عليها أبوابا في أول الكتاب ومقدمة .

ذكر في المقدمة أنه عمل على جمع التراجم المتفرقة لرجال المالكية ، كما بين فيها أيضا أنه يقدم على ذكر التراجم، أبوابا تمس الحاجة إليها وتتم الفائدة بالوقوف عليها تشتمل على أبواب في ذكر المدينة وفضلها، ووجوب الحُجَّة بإجماع أهلها وتقديم علمائها وترجيح مذهب إمامها مالك واقتداء الأئمة به.[1]

ثم بعد الأبواب السابقة شرع في ترتيب الطبقات، فقال: "وهذا حين ابتدأ لي ترتيب الطبقات المقصودة على العهود الموعودة وقد وجدنا أصحاب مالك من الفقهاء ثلاث طبقات، أولها ما كان له ظهور في العلم مدة حياته وقاربت وفاته مدة وفاته، وثانيها قوم بعد هؤلاء فمن عرف بطول ملازمته وصحبته وشهر بعده بتفقيهه عليه وروايته، ثالثها، قوم صحبوه صغار الأسنان وأخرجهم بعده الزمان، فقاربوا أتباع أتباعه ، وفضلوا بشرف مجالسته وحرية سماعه، فرتبناهم على هذا التطبيق وجئنا بمن بعدهم فريقا بعد فريق، والله ولي التوفيق".[2]

"وعلى هذا النسق سار القاضي عياض، ففي أصحاب مالك ذكر الطبقة الأولى، وبدأ بمن هو من أهل المدينة ثم اليمن ثم أهل المشرق، فأهل مصر، فأهل إفريقيا، فأهل الأندلس وكذلك صنع في الطبقة الثانية والثالثة مع أصحاب مالك، ولما انتهى من أصحاب مالك جاء بمن بعدهم طبقة بعد طبقة وقد بلغوا عشر طبقات".[3]

فقد التزم في طبقاته التوزيع الجغرافي لمن يترجم لهم، وخصص لكل بلد عنوانا يدرج تحته علماءه من المالكية في كل طبقة .

وقد كان لترتيب المدارك أثر كبير في المؤلفات بعده في تراجم الرجال من أعلام المالكية كما كان موضوعا للاختصار والتذييل على يد الكثير من العلماء.

ب– مصادره : إن الدارس لكتاب ترتيب المدارك يجد نفسه أمام ثلاثة موضوعات متفاوتة من حيث الحجم هي:

- أولا: ترجمة الإمام مالك ومذهبه وحجيته.
- ثانيا: تسمية الرواة عنه.

---

[1]– الترابي، البشير علي حمد– القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية– ص 418– بتصرف.

[2]– عياض، أبو الفضل بن موسى البحصبي السبي– ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك– ج1– ص 281.

[3]– الترابي، البشير علي حمد– القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية– ص 421.

- ثالثا: طبقات أعلام المذهب إلى زمان القاضي عياض.[1]

وهذا ما جعل القاضي عياض في تناوله لهذه الموضوعات يعتمد على ثلاثة أصناف من المصادر، وقد ذكر ذلك بالتفصيل في مقدمة "ترتيب المدارك" ففي ترجمة حياة الإمام مالك وبيان فضله وعلمه أخذ القاضي عياض عن الجم الغفير من العلماء الذي صنفوا في فضائل الإمام مالك، وأشهرهم القاضي أبو عبد الله التستري (ت 453هـ)، وكان عالما بمذهب مالك وأبو محمد الحسن بن إسماعيل الضراب المصري (ت 362هـ)، والقاضي أبو جعفر الفريابي (ت301هـ) صاحب كتاب "مناقب مالك"، وأبو العرب التميمي (ت 303هـ) صاحب كتاب "فضائل مالك"، وغيرهم ممن صنف في سيرة و فضائل ومناقب ومذهب مالك.

والقاضي عياض قد ذكر هذه المصادر وغيرها في مقدمة "ترتيب المدارك" وأكد أن اعتماده الأكبر كان على كتاب الضراب المصري، والحافظ التستري، وضم إليهما زيادات من غيرهما.

يقول في مقدمة "ترتيب المدارك": "وأكثر تعويلي فعلى كتابي التستري و الضراب وتتبعت من غيرهما ما فيه زيادة فائدة أو نادرة لم تقع فيهما".[2]

أما في الرواة عن مالك ونقلة العلم عنه فقد أشار إلى أن ذلك قد صنف فيه مصنفا مستقلا تضمن أكثر من ألف وثلاثمائة ترجمة تقصاها من مختلف الكتب المؤلفة في ذلك، وقد تمت الإشارة سابقا إلى هذا الكتاب الذي عنونه بـ "جمهرة رواة مالك"، وهو من مؤلفات القاضي عياض المفقودة، وقد ذكره أكثر من مرة في مقدمة "ترتيب المدارك".

وأخذ تراجم الرواة عن الحافظ أبي الحسن الدار قطني (ت 385هـ) وعن أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463) صاحب كتاب "الرواة عن مالك" وكذا عن أبي نعيم الأصفهاني (ت 365هـ).

أما في تراجم الرجال من أعلام مذهب مالك، فقد اعتمد القاضي عياض على طائفة كبيرة من كتب المحدثين والمؤرخين، وأشار إلى ذلك بقوله: "استصفيناه، من كبار تصانيف المحدّثين وأمهات تآليف المؤرخين".[3]

ومن هذه التصانيف التي أخذ عنها القاضي عياض، كتاب "التاريخ الكبير" لأبي عبد الله البخاري، و"الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (ت327هـ)، وكتب ابن جرير الطبري (ت310هـ) وكتاب

---

[1]- المرجع السابق- ص 427.

[2]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك- ج1- ص 45.

[3]- المصدر السابق- ص 56.

"تاريخ علماء الأندلس" للقاضي أبي الوليد بن الفرضي (ت403هـ) كما أخذ عن كتاب "طبقات الفقهاء" لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي(ت476 هـ)، وأشار الدكتور إحسان عباس في مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب أن القاضي عياض قد استدرك على طبقات الشيرازي كثيرا من الأشياء فقال: "صحيح أن القاضي عياض قد استدرك عليه (يعني الشيرازي) أشياء تتصل برجال المالكية".[1]

وإضافة إلى هذه المصادر وغيرها، فإن القاضي عياض قد جمع مادة كتابه مما تلقاه من أفواه الشيوخ الذين تتلمذ عليهم وسمع منهم وروى عنهم.

وكثرتها إنما تدل على سعة إطلاعه، وهذا ما جعل "ترتيب المدارك" يصير مشربا لكثير ممن كتب في طبقات المالكية، وذلك لكثرة مادته وغزارتها من جهة، ولكونها دقيقة و موثوقة من جهة أخرى.

2- كتاب الغنية :

أ- موضوعه: إن كتب المشيخات هي الكتب التي يؤلفها المحدثون ويضمنونها ذكر شيوخهم الذين لقوهم وأخذوا عنهم، أو أولئك الذين أجازوهم وإن لم يتم بينهم لقاء.

و المشيخات تأخذ تراجمها أحيانا شكل المعاجم أو الفهارس، وهي تتجه اتجاها إخباريا معتمدا على الروايات، فيؤرخ صاحبها للأعلام والشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم أو الذين أجازوه دونما لقيا، مسجلا أخبارهم وأسماء كتبهم و مروياتهم ، ومنها ما يقتصر على فرع معين من العلوم أو صنف واحد من الأعلام، ومنها ما يعنى بتراجم الشيوخ الذين لمعوا في أفق العصر ودرس عليهم كاتب المشيخة وأجازوه أو درس كتبهم وتلقاها عن غيرهم دونما لقاء.

وكتب المشيخات إضافة إلى كونها تبين حياة الشيوخ المترجم لهم فيها وتوضح أسانيدهم فهي تتضمن كذلك فوائد عديدة، إذ أنها تعتبر تاريخا لطبقة عاشت في زمن واحد وتميزت بمعلومات ومدارك خاصة.[2]

كما أن الباحث في التاريخ يستطيع اعتمادًا على المشيخات أن يتقصى كثيرًا من الحقائق التاريخية التي ترد في سياق سرد حياة كل شيخ، وعندما تتجمع لديه تلك الحقائق فإنه يمكنه بناء صورة واضحة جلية للعصر الذي عاش فيه أولئك الشيوخ من حيث ظروف الحياة بكل جوانبها السياسية منها والاجتماعية والعلمية.

---

[1]- الشيرازي، أبو إسحاق الشافعي- طبقات الفقهاء- تحقيق: إحسان عباس- دار الرائد العربي - بيروت - لبنان - ط2 - 1401هـ/ 1981م- ص 25.

[2]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 390.

إضافة إلى ذلك فإنها تحمل سيرة الأعلام من العلماء الأخيار الذين يعتبرون القدوة الحسنة الصالحة لغيرهم، وسيرتهم هدى وخير وصلاح.

والمحدثون في تراجمهم لشيوخهم لا يقفون عند ذكر مراحل حياتهم وملابساتها فقط، بل يتعرضون لقوتهم من حيث الضبط وسلامة النقل، وثقتهم في الرواية.[1]

"وأهم كتب ها الفن المشهورة في هذا العهد (المرابطي) فهرسة القاضي عياض".[2]

وقد سمى القاضي عياض مشيخته بـــ : "الغُنْيَة" وعرّف فيها بشيوخه الذين أخذ عنهم العلم بمختلف فنونه من قرآن وقراءات، وحديث وفقه وأصول وعربية وغيرها، وقد جمع فيها حوالي مائة ترجمة.

يقول ولده أبو عبد الله في "التعريف" بعد ذكره جملة من شيوخ والده: " ... انتهى أشياخه الذين ضم إلى فهرسته – ممن سمعه أو أجازه- واليسير منهم لقيه وجالسه و لم يسمع منه، إلى مائة شيخ ".[3]

وقد أشار القاضي عياض إلى سبب تصنيفه لكتاب "الغنية" في مقدمته فقال: "وبعد، أيها الراغبون في تعيين رواياتي، وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي، فقد تعين بحكم إلحاحكم علي، و مدكم أيدي الرغبات إلي، أن أنص لكم من ذلك على عيون، وأخص أوراقي هذه بما لعله يفي بالمضمون وأحيل على فهارس الأشياخ على العموم في سائر أنواع العلوم، وأسمي أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا، ومناولة وإجازة وممن كتب إلي ممن لم ألقه، وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يعطي الحال وفقه، بطرق من الاختصار والإيجاز، بحكم ما أدت إليه الحال، من الرحلة والانحفاز، وذكرت أثناء ذلك أسماء جلة ممن لقيتهم وجالستهم وذاكرتهم و لم أرو عنهم، أو سمعت منهم اليسير، إما لقاطع قطع، أو لسبب منع، أو لأنهم لم يكونوا أصحاب رواية، أو أهل إتقان لما رووا أو دراية".[4]

والكتاب مطبوع، طبعته دار الغرب الإسلامي ببيروت، بتحقيق: ماهر زهير جرار، وهو المعتمد في هذه الدراسة.

---

[1]- المرجع نفسه- ص 390- بتصرف.

[2]- السائح، حسن- دفاعا عن الثقافة المغربية- دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1968- ص 125.

[3]- أبو عبد الله محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 09- 10.

[4]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الغُنْية- ص 25- 26.

وقد رتب القاضي عياض تراجم شيوخه في "الغنية" على حروف المعجم غير أنه قدم من اسمه "محمد" لشرف هذا الاسم.[1]

فبدأ بمن اسمه "محمد" من شيوخه، ثم تتبع حروف المعجم في ذكر تراجم شيوخه حتى انتهى بحرف الياء دون أن يغفل بقية حرف الميم، أي من لم يكن اسمه "محمد" من شيوخه ويبتدئ بحرف الميم.

ثم بعد أن أكمل التراجم في مشيخته عقد فصلا في نهايتها قال فيه: "هذه مائة ترجمة وقد تركنا جماعة ممن لقيناهم و ذاكرناهم وحضرنا مجالس نظرهم من الفقهاء والرواة ممن لم نحمل عنهم الكتب ولا الحديث اقتصارا على ما ذكرنا وبالله تعالى التوفيق وهو تعالى يرحم الجميع برحمته".[2]

وذكر في الأخير حصالته من إجازاتهم والتي تتمثل في فهارس الشيوخ التي رواها عنهم، وهي تزيد عن الثلاثين.

ب- أهميته وقيمته : تعتبر "الغنية" كغيرها من المشيخات تاريخا يصور حالة طبقة خاصة من العلماء عاشوا في عصر واحد، ومن خلاله يستطيع الباحث أن يدرك الحالة الثقافية والاجتماعية وحتى السياسية التي كانت سائدة خلال تلك الفترة.

"وفي هذا النوع من الكتب يستطيع الدارس أن يضع يده على مصادر التكوين العامة لدى مفكري وأدباء هذه الفترة، كما تؤرخ لمظاهر النشاط المعرفي، ولعدد المؤلفات التي كانت سائدة في تلك الفترة، وبمعرفة نوع المؤلفات وأصحابها ندرك عملية التأثر والتأثير المتبادلة بين الثقافتين الشرقية والأندلسية المغربية"[3]، فيقول مثلا عن شيخه" أبي عبد الله محمد بن سليمان النفزي" المعروف بابن أخت غانم (ت 525هـ): "أصله من مالقة وبها سكناه، ولكنه لَزِمَ قرطبة كثيرا، وبها لقيته، ثم رجع إلى مالقة و بها توفي، رحمه الله ... قرأت عليه في منـــزله بقرطبة الكتاب الكامل لأبي العباس المبرد ... وقرأت الكتاب الكامل أيضا بسبتة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة على الأديب صاحب الشرطة ، أبي بكر بن محمد بن البـــراء الجزيـــزي (ت 500هـ)".[4]

---

[1]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 397- بتصرف.

[2]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الغنْية- ص:227.

[3]- الزباخ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص 266- بتصرف.

[4]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الغنية- ص 59- 60.

فلكتب الفهارس إذن قيمة تاريخية وأدبية كبيرة إلى جانب القيمة الذاتية التي تؤرخ للنسيج الثقافي المكون لمحيط المترجم له، فتكون سيرة فكرية لصاحبها ومدخلا لفهم الكثير من قضايا العصر الثقافية والاجتماعية والحضارية.[1]

ومن ناحية أخرى فإن "الغنية" تظهر مدى سعة ثقافة القاضي عياض ومحصوله من حيث التحصيل والإطلاع والقراءة، وما امتاز به من كثرة الأخذ وكثرة الشيوخ.

فهي تبين المصادر التي استقى منها القاضي عياض ثقافته الغزيرة العميقة المتشعبة، وأول ما يلاحظ هو هذا العدد الضخم من الكتب التي سمعها ورواها، إضافة إلى الكثير من الأخبار والروايات التي حملها عن عدد كبير من الشيوخ إما سماعا أو إجازة فحصّل علما كثيرا وصار مدار الرواية في المغرب والأندلس عليه.

فقد ذكر القاضي عياض في "الغنية" كل الكتب تقريبا التي قرأها عليهم أثناء الترجمة لهم، فهو حفظ القرآن أولا بطرقه المختلفة المعروفة، ثم قرأ العربية وقواعدها وآدابها، أما الحديث فقد تخصص فيه وله علو الإسناد في رواية كتبه وبخاصة موطأ الإمام مالك، كما درس الفقه المالكي أيضا وكان مداره حينها على "مدونة" سحنون، كما قرأ أيضا أصول الفقه وغيرها من العلوم على أيدي أشياخه الذين أثبتهم في" الغنية ".

"ومن فوائد الغنية أنها احتوت على تراجم بعض خَاصَةِ أهل العلم الذين هم مظنّة أن يُهْمِلَهُم أهل التراجم والطبقات وكم من شيخ ممن ترجم له القاضي عياض لا نعلم له ترجمة إلا في الغنية".[2]

4/ منهج القاضي عياض في تراجم "ترتيب المدارك" و "الغنية" :

لقد ولج القاضي عياض ميدان التراجم من باب الفقه والحديث فالتراجم عنده لا تخرج عن علم الرجال والذي ينْبَنى أساسا على الجرح والتعديل لأجل تنقية السنة النبوية الشريفة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي كان أعداء الإسلام يسعون لدسّها بين ثنايا الحديث ... ومن هنا فقد انتهج القاضي عياض في تراجمه طريقة المحدثين والحقيقة أنه لم يكن وحده المتبع لهذه الطريقة يقول أحمد أمين: "ومن أكبر المظاهر التي تأثرت بها كتب تراجم الأدباء بكتب المحدثين احتجاب شخصية المؤلف من خلال اعتماد طابع الرواية إذ يغمرك بروايات عن الرجل وأحاديثه ووقائعه وأدبه وشعره ... ويظهر أن هذا أيضا أثر من آثار نمط المحدثين ... فقد حصروا أنفسهم في دائرة النقل، نقل ما حدثوا

---

[1]- الزباخ، مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين- ص 267- بتصرف.

[2]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 411.

به، ونقل ما بلغهم عن الرجل، لأن المحدث لا يهمه من المترجم له إلا ما يدل على صدقه أو كذبه، تجريحه أو عدالته".[1]

وهذا إن جاز في الحديث لأن مجال القول فيه ضيق، فإنه يضر بالأدب الذي مجال القول فيه واسع، إذ أن شخصية الأديب والنقد والتحليل، وبيان المحاسن والمساوئ، وموضع الجمال أو القبح، لها القيمة الكبرى في الفن الأدبي.

وأول ما يلفت نظر القارئ لمؤلفات القاضي عياض وخصوصا التراجم منها هو طابع الرواية الذي يغلب عليها عموما، حتى أن شخصية الكاتب تكاد تختفي أحيانا أمام كثرة النقول التي يثقل بها تراجمه، ففي كتابه "ترتيب المدارك" الجزء الأول منه من إنشائه أما بقية الأجزاء فكلها روايات وسماع ونقول يأتي بها القاضي عياض ليرسم صورة صاحب الترجمة، وكثيرا ما يكتفي بعبارة موجزة يعلق بها على تلك النقول التي يوردها.

ولا عجب أن يبرز عنصر الرواية في تراجم القاضي عياض إذ أن الرواية ركن من أركان العلم في زمنه وبخاصة عند المحدثين وأصحاب الروايات المسندة وهو أحدهم.

"وتآليف عياض وسط بين ذلك، فليس في كتبه كتاب واحد لم يَعُدْ فيع عياض إلى فكره وليس بينها أيضا كتاب واحد لم ينقل فيه عن غيره، وعلى الرغم من طغيان طابع الرواية على أسلوب عياض فإن شخصية الكاتب بارزة في أكثر ما كتب ... ومن ذلك نقده الشديد لما ينقل، ومنه كذلك الصياغة اللغوية الخاصة به والتي تميز بها عن كثير من الكتاب في عصره ...".[2]

يقول ابن فرحون المالكي عن "ترتيب المدارك": "وقد برزت فيه شخصية القاضي عياض مؤلفا، ومؤرخا، وناقدا نزيها في النقد، وناقلا أمينا في النقل، ومدافعا عن المذهب المالكي، سواء أكان دفاعه عن أسسه ومبادئه، أم كان عن أعلامه ومقلديه".[3]

وعلى صعيد المنهج فقد اعتنى القاضي عياض عناية فائقة برسم المنهج الذي سيلتزم به وبَيَنَ ذلك في مقدمة كل كتاب، ففي مقدمة "ترتيب المدارك" بين المصادر التي اعتمد عليها في تراجمه وكان ينقدها أحيانا ويستدرك عليها أحيانا أخرى، وإذا ما خالف ما سطره في المقدمة فإنه ينبه إلى ذلك.

---

[1]: أمين، أحمد- فيض الخاطر- ج2- ص: 268- 269- بتصرف.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص: 121.

[3]- المالكي، ابن فرحون- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - ج1- - المقدمة — ص: ي .

وقد قدم القاضي عياض على ذكر تراجم الأعلام في المدارك أبوابا رآها مهمة، ولما انتهى منها قال: "...وبعد هذا أطردت أغراض التأليف واتسقت طبقات التصنيف، فابتدأنا بذكر الفقهاء من أصحابه خاصة، ثم بأتباعهم طبقة طبقة، وأخلاقهم أمة بعد امة، إلى شيوخنا الذين أدركناهم وأئمة زمننا الذين عاصرناهم، ممن شهرت إمامته، وعرفت معرفته، أو ظهرت تواليفه، ونقلت أقواله، وامتثلت فتاويه و آراؤه، على حسب تقدم أزمانهم وتعاقب أوقاتهم".[1] فهو هنا يصرح بالمنهج الذي سيتبعه في مداركه.

وعند تناوله لترجمة كل واحد من هؤلاء المشاهير فإنه يبين اسم المترجم له ويبين المشكل ويضبطه خوفا من وقوع التصحيف أو التحريف، يقول: "فأنبأنا بأسمائهم وأعربنا عن ألقابهم وأنسابهم وقيدنا مهملها لئلا يقع فيها تصحيف، وأزحنا علة مشكلها ليأمن من اطلع عليها من التحريف".[2]

ثم يبرر هذا الحرص بأقوال العلماء وآرائهم في هذه المسألة، قائلا : "فقد قال أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجرسي: أولى الأشياء بالضبط أسماء الناس، لأنه لا يداخله قياس، لا قبله ولا بعده شيء يدل عليه ، وقال علي بن المديني: أشد التصحيف، التصحيف في أسماء الرجال"[3]

ثم يبين بعد ذلك مولد المترجم له ووفاته، ويذكر مشايخه والرواة عنه، وطبقته في الرواة وذلك ليتبين وقته وتُعْرَفَ درجته.

ثم يذكر فضائله ومناقبه وثناء الأعلام عليه، وتوثيقه وعدالته أو جرحه وتضعيفه ومنـــزلته من ذلك ومرتبته في العلم والرواية.

"وقد يستفيض أحيانا في جمع أخبار المترجم له وقصصه ويسهب في ذكر محن من امتحن وبلايا من أبتلي وربما انتقى ملحا ونوادر من نوادر المترجم له، كما أنه يوضح تخصص المترجم له، أي ما غلب عليه من العلوم".[4]

والقاضي عياض على الرغم من أنه قد ترجم لأعلام مذهب الإمام مالك ، فإنه يسلك منهج المحدثين في علم الرجال، ولا أدل على هذا من أنه أخذ جل مادته من كتب الرجال وعلى رأسها: كتاب "التاريخ الكبير" للبخاري" و"الجرح والتعديل" لعبد الرحمان ابن أبي حاتم، بل لا يذكر في

---

[1]- عياض، ابو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك- ج1- ص 46.

[2]- المصدر نفسه- ص 46.

[3]- المصدر السابق- ص 46.

[4]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص424- بتصرف.

بعض التراجم إلا ما قاله علماء الجرح والتعديل في المترجم له، ففي ترجمة "محمد بن دينار الجهني"[1] (ت 182هـ) وهو من رجال الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك رحمه الله، في هذه الترجمة يأخذ بأقوال علماء الرجال في ترجمته لمحمد بن دينار الجهني، وعلى رأسهم رأي البخاري ورأي عبد الرحمان بن أبي حاتم، ومن أجل هذا فهو قد جمع في منهجه بين طريقة أهل التراجم المبنية على استقصاء أخبر المترجم له واستعراض حياته، وبين طريقة أهل الحديث المبنية على الجرح والتعديل.

كما أن القاضي عياض وقف من المصادر التي اقتبس منها تراجمه موقف المحقق المدقق الناقد وقد استدرك على الكثير منها، وانتقد بعضها في مقدمة "ترتيب المدارك".

والمنهج الذي سار عليه في تراجمه يؤكد على أنه لم يكن بمعزل عن شخصيته كمحدث، فالكتاب فيه من علم الرجال ما فيه منهجا ومضمونا.

وقد راعى في كتابه هذا التسلسل الزمني، غير أنه رآه لا يكفي لبناء الطبقات لأن الرجال الذين سيترجم لهم ليسوا من بلد واحد، بل هم من جميع الأمصار، "ولذلك أعد تقسيما آخر هو التقسيم بحسب البلدان الإسلامية، وهكذا تتوالى الطبقات واحدة تلو الأخرى، وداخل كل طبقة يرد الفقهاء مرتبين حسب ترتيب خاص وفق موطن كل منهم ابتداء بفقهاء المدينة وصولا إلى فقهاء الأندلس والمغرب، وبفضل هذا المنهج تمكن القاضي عياض من توزيع المادة الضخمة التي تجمعت لديه، وبفضله أيضا يستطيع القارئ أن يجد ضالته في الكتاب بكل سهولة".[2]

وقد بنا القاضي عياض منهجه في الترجمة في هذا الكتاب على أسس متماشية مع الغرض الذي من أجله ألفه، وهو التعريف بفقهاء المذهب المالكي من لدن الإمام مالك رحمه الله إلى الفقهاء الذين عاصروه.

أما في "الغنية" فقد أوضح القاضي عياض في مقدمتها منهجه الذي سلكه فيها، فقال: "أيها الراغبون في تعيين رواياتي، وإجازة مسموعاتي ... وأحيل على فهارس الأشياخ على العموم في سائر أنواع العلوم، واسمي أشياخي الذين أخذت عنهم، قراءةً وسماعاً، ومناولةً وإجازةً وممن كتب إليَ ممن لم أَلْقَهُ وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يُعطي الحالُ وَفْقَه، بِطرف من الاختصار والإيجاز، بحكم ما أدَت إليه الحال من الرِحلة والانْحِفَازِ...".[3]

فهو إذا سمى وترجم لجميع شيوخه الذين أخذ عنهم، حتى لو كان ذلك إجازة من غير لقاء.

---

[1]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك- ج1- ص 291.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 122- بتصرف.

[3]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الغنية- ص 25.

"وقد رتب شيوخه في الغنية على حسب حروف المعجم، إلا أنه إكرامًا لاسم النبي صلى الله عليه وسلم عزّ عليه أن يؤخر اسمه "محمد" فبدأ به وترجم أول ما ترجم لمن كان اسمه محمد من أشياخه". [1]

وطريقته في تراجم أشياخه، أنه يذكر اسم الشيخ ونسبه، وتقلبات الدهر به، وشيوخه الذين أخذ عنهم ثم يذكر العلوم والكتب التي سمعها عليه وإسناده في ذلك.

ففي ترجمة "ابن أخت غانم" (ت 525 هـ) يقول في اسمه ونسبه وحياته "الأديب الراوية أبو عبد الله محمد بن سلمان النفزي المعروف بابن أخت غانم، أصله من مالقة وبها سكناه ولكنه لَزِمَ قرطبة كثيراً، وبها لقيته، ثم رجع إلى مالقة وبها توفي، رحمه الله، وكان شيخًا مُسِنًا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب، أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسها عمرَه بغير أجر، وسُمِع منه كُتب الحديث والغريب، وحَمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء لعلو سنده ومعرفته". [2]

ثم يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم: "وكان أكثر أخذه عن خاله أبي محمد غانم بن وليد الأديب وسمع أيضا من القاضي أبي بكر ابن صاحب الأحباس وأبي العباس الدلائي ... وجماعة غيرهم". [3]

وبعد الانتهاء من ذكر شيوخه، ينتقل إلى ذكر العلوم والكتب التي سمعها عليه وإسناده في ذلك، وهو يذكر الإسناد كاملا إلى غاية صاحب الكتاب، فيقول: "قرأت عليه في منزله بقرطبة الكتاب الكامل لأبي العباس المبرد حدثني به عن خاله أبي محمد غانم عن أبي عمر يوسف بن عبد الله السهمي عن أحمد بن أبان بن سيد عن أبي عثمان سعيد بن جابر عن أبي الحسن الأخفش عن المبرد.

وقرأت الكتاب الكامل أيضا بسبتة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة على الأديب صاحب الشرطة أبي بكر محمد بن البراء الجزيري و سنذكر سنده، وسمعت منه كثيرا على شيخنا أبي علي التاهرتي النحوي". [4]

وهو هنا يسند كل شيء حتى كتب الأدب واللغة، وهذا من أثر علم الحديث عليه والذي يُبنى على الإسناد ، وإن لم يذكر الإسناد في مكان ما ذكر بــه إن كان ذكره سابقــا أو سيذكره فيما سيأتي.

---

[1]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 394- بتصرف.

[2]- عياض، أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي- الغنية- ص 59.

[3]- المصدر نفسه- ص 59.

[4]- المصدر نفسه- ص 59- 60.

ومما يلاحظ كذلك أنه عندما يتعرض لبيان أخذه لكتاب عن شيخ من مشايخه يذكر في الوقت نفسه كل شيوخه الذين أخذ عنهم ذلك الكتاب، كما فعل مع كتاب الكامل للمبرد.

ويواصل القاضي عياض في ذكر ما سمعه وأخذه عن شيخه بإسناد ويصل أخيرا إلى تحديد سنة وفاة شيخه، وقد يذكر معها سنة المولد إن لم يكن قد ذكرها في بداية الترجمة، فيقول: "وتوفي رحمه الله، بمالقة سنة خمس وعشرين وخمسمائة، مولده سنة سبع وثلاثين وأربعمائة".[1]

وعلى النهج الذي ذكره القاضي عياض في مقدمة "الغنية" سار في كل تراجم شيوخه.

و الملاحظ أن "مقومات الترجمة في ترتيب المدارك تختلف عن مقوماتها في الغنية لأن الغايتين مختلفتان، فترتيب المدارك كتاب أُلِفَ للفقهاء خاصة وهو يحوي أسماء رجال المذهب، فبالإضافة إلى ضرورة معرفة بلد المترجم له، وشيوخه وتلامذته يجب تعديله أو تجريحه ولذلك لاتخلو أي ترجمة فيه من هذا الجانب، أما في الغنية فحسبه أن يذكر الشيخ ولقبه وشيوخه وما أخذ هو عنه مع بيان طريقة الأخذ".[2]

وهذا إنما يدل أن القاضي عياض في اختياره لمنهج الكتاب كان حريصا على أن يكون ذلك المنهج خادما للموضوع وليس عبئا عليه.

وقد تجنب في تراجمه كثيرا من الاستطراد الذي بلي به بعض معاصريه في كتبهم "ويبدو أن هذه الآفة انتشرت بالخصوص لدى الكتاب من الأدباء، أما غيرهم فقد عصمتهم الدراسات الحديثية والأصولية بمناهجها الدقيقة المعروفة من الوقوع فيها".[3]

والقاضي عياض ككتاب التراجم " قد حافظ على هيكلية بناء الترجمة المعهودة فيها، والتزم في الغالب بمقوماتها من حيث البداية بالتعريف بالمترجم له، وذكر كنيته واسمه الكامل، وما يعرف به من النعوت أو الألقاب، وذكر شيوخه ورحلاته العلمية أو التعبدية إن وجدت، والإشارة إلى إجازاته ومروياته ومؤلفاته وتقرير بعض أخباره، والإلماع إلى تاريخ وفاته إن كان معلوماً ".[4]

وأسلوب القاضي عياض في التراجم مختلف تماما عما كان عليه في الخطب والرسائل، وذلك راجع لطبيعة الموضوع ومميزات كل فن، فهو في تراجمه يكتب بأسلوب بسيط، وطابعه العام هو الطابع السردي التقريري الذي تتخلله بعض التعليقات أو التعقيبات في بعض الحالات التي يكون فيها

---

[1]- المصدر السابق- ص 62.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 123.

[3]- المرجع نفسه- ص 122.

[4]- جبران، محمد مسعود- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب- ج2- ص 155- بتصرف

المترجم له فيه أقوال من علماء الجرح والتعديل، ولهذا فإنه كثيرا ما يستدرك على المصادر التي يستقي منها تراجمه بعد مقارنته لما تورده وما سمعه من أشياخه، وإلى ذلك فإن أسلوبه كان شديد الإيجاز على الرغم من إيراده لكثير من الأسانيد في مروياته، كما أن البعد عن السجع والمحسنات البديعية قد ساعدت على الإيجاز في التعبير لأن الاحتفال بها كثيرا ما يوقع في الإطناب.

"وليس من السهل الجمع بين الإيجاز والتبسيط مع إيفاء الموضوع حقه ... هذا قد يبدو متناقضا واعتقد أنه قد تم لعياض ذلك بفضل أمرين اثنين، أولهما التمكن التام من المادة، وثانيهما امتلاك أداة التعبير امتلاكا تاما".[1]

فالقارئ لتراجم "ترتيب المدارك" وحتى مقدمته يجد نفسه أمام صناعة أسلوبية تامة، لا تقوم على جلب الأصباغ البديعية، ولكنها تقوم على اختيار اللفظة والتلاؤم بين الألفاظ، فالقارئ للكتاب وبخاصة الجزء الأول منه: "يعجب بالغزارة اللغوية من جهة، وبالذوق الأصيل الظاهر في تركيبها، ومعلوم أن للفظة معنىً معجميا ودلالات نفسية وحضارية اكتسبتها عن طريق الاستعمال، واستغلال جميع الطاقات الإيجابية للفظة ليس في مقدور كل كاتب، فلابد من ذوق صقيل وحس نافذ وتمكن تام من اللغة، وهذه أمور كان لعياض منها الحظ الأوفر، وذلك هو سر هذا الجمال الذي يحسه القارئ لأسلوب عياض في كتابه هذا".[2]

يقول القاضي عياض في مقدمة "ترتيب المدارك" "فلما تكررت رغبات الأصحاب شملنا الله وإياهم بسعادته، لإمضاء ما كانت النية اعتقدته، وتبييض ما غدت الهمة قد سودته، من كتابٍ حاوٍ لأسماء أعيان المالكية وأعلامهم، وتبيين طبقاتهم وأزمانهم، وجمع عيون فضائلهم وآثارهم، ونظم نثر فنون سيرهم وأخبارهم، تشمل منفعته، وتجمل معرفته، وتستغرب فوائده، وتستعذب مصادره وموارده، إذ هو فن لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع".[3]

"في هذا النص القصير نلمح بعض خصائص أسلوب عياض التأليفي (أو الوظيفي كما يسميه بعض الكتاب) فالعناصر الجمالية لا تقوم على حشد الألوان البديعية ولكن على اختيار اللفظة كما قلت ، وعلى تركيب الجملة، وبناء الموضوع".[4]

فهو يزاوج بين الجمل مثل "تشمل منفعته، وتجمل معرفته".

---

[1]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 127- بتصرف.

[2]- المرجع نفسه- ص 128.

[3]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك- ج1- ص 41.

[4]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 129.

وعلى الرغم من التزامه السجع في هذا النص –وقليلا ما يفعل ذلك– إلا أن ذلك لا يكون إلا عفوا لا تكلف فيه ولا إسراف.

ومن مميزات تراكيبه اللغوية ما يسمى بالتئام الكلم، ويعني ذلك أن تكون الألفاظ آخذة برقاب بعضها البعض، بحيث لا يقع في السياق انقطاع، كتداخل الضمائر، أو يقع تقديم وتأخير يخل بنظام الكلام، وكما يقال : فإن صفاء الأسلوب من صفاء نفس الكاتب، وهذا هو سر اختلاف أساليب الكتاب، وإن جمع بينهم عصر واحد، ومكان واحد، وزاد ثقافي واحد.

وأسلوب عياض في مقدمته الطويلة في "ترتيب المدارك" كان مُنْسابا سلسا، عكس الجفاف الذي يلف متون التراجم التي كتبها، فهذه المقدمة تعد نموذجا للنثر الفني للقاضي عياض ، فقد وفر لها كثيرا من الخصائص الجمالية التي لا تقف عند السجع، ومن ذلك قوله: "فاستخرت الله تعالى على ذلك، و استعنته، جل اسمه، لتوطئة هذه المسالك، و جمعت قراطيس فقبضتها، عما استودعتها، وطالعت تآليفي فوقفت على خفي أسرارها، وأستثبت محفوظاتي فأنجدتني اذّكارها، فنظمت منثورها، وفصلت شذورها، ورتبت أعجازها وصدورها، وأبرزت تأليفا مفردا في مضمونه، بالغا فيما قصر عليه من أنواع هذا العلم وفنونه ...".[1]

ولا يخفى ما في هذه الفقرة من جماليات إضافة إلى السجع و الطباق والجناس.

فأسلوب المدارك إذن ليس على مستوى واحد، فمرة يوشح القول بصناعة ولكن ذات لون غير براق ولا مثير، وأخرى يرسل القول إرسالا هادئا، وهو في هذا وذاك يصدر عن قريحة هذبتها الدراسة وشحذها التحصيل.

فهو في تراجمه يسعى لتجميع الحقائق وصياغتها في قالب لغوي واضح، فمن البديهي إذن أن يحسن اختيار اللغة التي يكتب بها، وتكون له القدرة على حسن التعبير حتى يعبر بصدق وأمانة عن الحقائق التي يعرضها في أسلوب بسيط يعتمد على العبارة المركزة البعيدة عن تكرار المعاني تجعل حياة المترجم له ذات قيمة أدبية مع تجنب الإبهام والابتعاد عن الإيجاز المُخِل وعن الإطناب المُمِل.

ومن هنا كان الأسلوب الأدبي الصرف غير مستساغ في هذه الحالة لأنه قد يحرف الحقائق عن مسارها الدقيق، بما يطرحه من ألفاظ عامة أو حاملة لصيغ المبالغة، أو ساعية وراء الخيال، فليس الهدف من تراجم القاضي عياض هو جذب القارئ وتشويقه بقدر ماهو إبراز الحقائق التي أحاطت حيوات الأعلام الذين يترجم لهم وشكلت عوامل نبوغ لديهم.

---

[1]– عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي– ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك– ج1– ص 43.

ثانيا: السيـــرة:

كتاب: الشفا بتعرف حقوق سيدنا المصطفى .

أ- موضوعه: تعد السيرة النبوية أوسع ما في السير الإسلامية، وأقدمها ظهورا، فقد كانت المحور الذي تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وانتشاره وهي التأريخ الذي جمع غزوات وفتوح الإسلام.

ولهذا فقد عنيَ المحدثون والمؤرخون بالكتابة في السيرة النبوية، وشمائل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم جدير وخليق بأن يُعْتَنَى بالتأليف في حقه.

ومما لا يخفى أن أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم كلها تشريع، وهي كلها سنة.

وقد أُلِّفَ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله عددا جما من المصنفات، ومنها كتاب "الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى" للقاضي عياض، وهو يتضمن شمائل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومقاطع من سيرته وبيانا لما يجب له على أمته من حقوق.

وقد "عُرف الشفا قديما في كل بقاع العالم الإسلامي، فقد كتب الله له القبول، فكتبه تلاميذ القاضي عياض عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا".[1]

وهو مطبوع، وطبعاته كثيرة، ومنها طبعة دار الرشاد الحديثة بالمغرب، والتي حققها وراجعها هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي، وهو يقع في جزأين يجمعهما مجلد واحد.

والشفا في تجزئته يقع في ستة أجزاء كما أخبر بذلك ابنه أبو عبد الله في "التعريف": "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ستة أجزاء".[2]

وهناك من يسميه "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" وأيضا "الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى" وهو عنوان الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة. وجملة ما في الشفا من الأبواب اثنا عشر بابا، وفيه مائة وسبعة وخمسين فصلا.

قدم لها القاضي عياض بمقدمة قصيرة نسبيا، حدّد فيها سبب تأليفه له وانه طَلَبٌ طُلِبَ منه وتكرر من أجل التعريف بقدر المصطفى صلى الله عليه وسلم وانه رجى بذلك الأجر والثواب من الله

---

[1]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 301.

[2]- أبو عبد الله، محمد بن عياض- التعريف بالقاضي عياض- ص 116.

تعالى يقول: "...فإنك كرّرت عَلَيَ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام وما يجب له من توقير وإكرام .. فبادرت إلى نكت سافرة عن وجه الغرض، مؤديا من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال"[1].

وقد وضح في مقدمته أقسام كتابه، فهو مقسم إلى أقسام والأقسام إلى أبواب وكل باب تحته فصول، وكل فصل يتناول جانبا مما اشتمل عليه موضوع الباب ، وهذا ما يجعل الشفا في القمة من المصنفات دقة في التبويب والتقسيم والمنهجية.

وبيان أقسامه كما يلي:

- القسم الأول: في تعظيم العلي الأعلى لقدر النبي صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا.
- القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم.
- القسم الثالث: فيما يجب للرسول صلى الله عليه وسلم وما يستحيل من الأحوال البشرية.
- القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام فيمن تَنَقَّصَه أو سَبّه صلى الله عليه وسلم.

وبعد ذلك ختم الكتاب بخاتمة، مما جاء فيها: "هنا انتهى القول بنا فيما حررناه وانتجز الغرض الذي انتحيناه واستوفي الشرط الذي شرطناه مما أرجو أن في كُلِ قِسْمٍ منه للمُريد مقنع، وَفِي كلِ بابٍ منهجٌ إلى بغيته ومَنْزَعْ ... وإلى الله تعالى جزيل الضراعة والمِنَة بقبول ما منه لوجهه والعفو عما تخلله من تزينٍ وتصنعٍ لغيره وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه ... ويجعله لنا ولمن همّم باكتتابه واكتسابه سببا يصلنا بأسبابه، وذخيرةً نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً نحوز به رضاه وجزيل ثوابه ... وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرًا والحمد لله رب العالمين".[2]

ويظهر من خلال مضمون كتاب "الشفا" أن القاضي عياض قد "غلبت عليه نزعة الحب، واستولت عاطفة الشوق، فشفا غليله من الثناء على حبيبه بماهو أهل له من الإجلال والاحترام، وكان فيما رواه في مكارمه، وسطره في محاسنه، يُشْبِعُ همما صارخا، أو يروي ظمـأ داعيـا، أو يستجيب لنـزوع قوي، يحركه إليه شوق حار ورغبة حادة وإيمان صميم".[3]

---

[1]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى- تحقيق: هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي- دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1422هـ/ 2001م- ج1- ص 14- 15.

[2]- المصدر نفسه- ص 406- 407.

[3]- أبو الخشب، إبراهيم علي- تاريخ الأدب العربي في الأندلس- ص 107.

ب- منهج القاضي عياض وأسلوبه في الشفا :

اتبع القاضي عياض في بناء "الشفا" منهجا دقيقا تمت الإشارة إليه ، أما حديثه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فكان في ثنايا حديثه عما يجب له على الأنام وما يحق في شخصه الكريم وما لا يحق ولهذا فهو يورد الكثير من الأحاديث، وقد حذف الأسانيد في أغلب الأحاديث التي أوردها، وهو إنما فعل ذلك خشية التطويل، إذ لم يرد مسندا في الكتاب سوى أحاديث قليلة.

"والقاضي يصدر كل فصل بحديث يسنده أو أحاديث يسندها ثم يأتي بعد ذلك بالأحاديث من غير إسناد، وإذا كان في الفصل شاهد من القرآن قدمه على الأحاديث، وبعد الأحاديث يأتي القاضي بأقوال الأئمة إن وجدت، وقد يقدم على هذا دليلا عقليا بسيط التركيب".[1]

وهو في استشهاده بالقرآن والحديث يحرص أشد الحرص على بيان وجه الدلالة في ذلك، ويستعين كثيرا بأقوال الأئمة والمفسرين في هذه النصوص.

"وأسلوب الكتاب، أي صياغته اللغوية، صنفان: صنف يغلب عليه السرد العلمي، وآخر يكثر فيه التحليق في فضاء فسيح الأرجاء، يفوح بعطر الروضة الشريفة، والحق أن النصوص التي خرج فيها عياض عن السرد جاءت بشكل واضح ، جاءت وكأنها واحات كان يفيء إليها عياض من هجير النقاش الفكري المضني".[2]

فهو يجد راحته فيها، فيطلق العنان لخياله الواسع فأبدع فيها إبداعا رائعا.

وأسلوبه في الشفا كان نتاج جهد فكري في قسم منه، وثمرة عاطفة متأججة في قسم آخر.

فالأسلوب التقريري في الشفا تميز بالتحرر من الألوان البديعية والصور البيانية من جهة، ومن جهة ثانية فإن أسلوبه السردي تميز بإيجازه الشديد، ومن تعابيره البالغة الإيجاز قوله "الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ... والسماحة التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس ... والسخاء سهولة الإنفاق ...".[3]

وقوله أيضا: "الشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يُحمدُ فِعلها دون خوف".[4]

---

[1]- الترابي، البشير علي حمد- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية- ص 316.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 137.

[3]- عياض أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى- ج1- ص 78.

[4]- المصدر نفسه- ص 80.

وقوله كذلك: "وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رِقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يُتَوَقَع كراهيته أو ما يكون تركه خيرا من فعله، والإغضاء: التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته".[1]

فهذه التعاريف على درجة كبيرة من الإيجاز فلا حشو ولا تكرار فيها ولا فضول قول.

وإن أسلوب القاضي عياض السردي التقريري يتميز من جهة ثالثة بالوضوح التام، وذلك على الرغم من إيجازه الشديد، وسبب هذا الوضوح يتمثل في أنه يعمد – قبل الكتابة- إلى ترتيب أفكار الموضوع الذي يعالجه، فيختار لموضوعه مخططا واضحا يغنيه عن التكرار والإطناب في التعبير، ثم يبدأ في الكتابة مختارا أدلّ الألفاظ على المقصود، واقصر التعابير الممكنة، وذلك حتى وإن كان يناقش أكثر من رأي أو يستشهد بأكثر من قول، فإن لكل رأي مكانه ولكل شاهد موضعه، ذلك أنه من عاداته في الكتابة أن يمهد لموضوعه بمقدمات يعالج فيها ما يراه ضروريا من قضايا قبل البدء في طرح الموضوع.

وهو في "الشفا" يعتمد كثيرا على الأسلوب الخطابي، فالجمل عنده بنيت على أساس خطابي، إذ يتخيل القارئ أمامه يتلقى عنه مباشرة ويخاطبه دون واسطة الكتابة، ولهذا فهو يستعمل ضمير المخاطب، ويكثر من استعمال أدوات التنبيه، ويَنَوِّعُ جمله بين الطول والقصر، كما يزاوج بين الجمل الاسمية والفعلية، ليضمن استمرار انتباه القارئ، وتجاوبه معه.

أما الصنف الثاني من أسلوبه فيتمثل في تلك النصوص النثرية المتميزة التي وشّح بها الكتاب ، ونظرا لتميزها فقد أشار إليها القدماء ... وهذه النصوص كثيرة، منها الفصل الذي عقده لبيان فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم والفصل الخاص بإعجاز القرآن الكريم، ونصوص هذه الفصول وأضرا بها من النثر الفني الرائع الذي تـــميز بقيمة جمالية خاصة".[2]

يقول المقري : "وقد وقع للقاضي – رحمه الله - أثناء كتاب الشفا مواضع من نثره، هي من الفصاحة بمكـــان".[3]

وتضاف إلى النصوص السابقة مقدمة الكتاب، والتي كانت تحظى على الدوام بعناية خاصة من طرف المؤلفين، و" مقدمة " الشفا شحنها القاضي عياض بألوان من البديع، وإن كان نجح – كعادته - بالخروج بـــها من التكلف، فقد بناها على حرف واحد، فكان السجع لها بمثابة القافية في الشعر، وحلاّها أيضا بالازدواج، فزواج بين جمله، بل كلف نفسه المزاوجة بين الجمل الاسمية

---

[1]- المصدر نفسه- ص 82.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 142.

[3]- المقري، شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني- أزهار الرياض في أخبار عياض- ج4- ص 175.

والفعلية، وذلك بأنه يورد صفا من الجمل الاسمية ثم يعقبه بصف آخر من الجمل الفعلية، ثم يعود مرة أخرى إلى الجمل الاسمية، وهكذا من بداية النص إلى آخره، وهو ما يضفي على الأسلوب حركية تمنحه حيوية ورونقا، هذا إلى جانب الطباق والجناس التي كان لها نصيب وافر في صياغة القاضي عياض لتعابيره.

يقول في مقدمته للشفا : " الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى، المختص بالعز الأحمى، الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى، الظاهر لا تخيلا ولا وهما، الباطن تقدسا لا عُدْما، وَسِعَ كل شيء رحمة وعلما، وأسبغ على أوليائه نِعَمًا عما،وبعث فيهم رسولا من أنفسهـــم، عُرْبًا وعُجْمًا ...".[1]

"إذا كانت من صفة عامة تعطى لنثر عياض في الشفا بخاصة فهي الصفة الموسيقية العامة، إنه حريص كما نرى على توفير الإيقاع الموسيقي لنثره وهو فيما ذلك لا يحفل بضروب الصناعة الأخرى".[2]

فالكاتب يغرف من بحر معـــارفه الثري الزاخر الذي لا يتهدده النضوب، فالألفاظ تنهال عليه، وكذلك الأفكار تتولد من بعضها البعض بشكل لا يكاد يشعر معه القارئ بالانتقال من فكرة إلى أخرى.

فالقاضي عياض يبدو متحررا من الأعراف الأدبية المعروفة في عصره لأنه لا يكتب لأجل الكتابة ولكنه يكتب ليقول شيئا هو مؤمن به أشد الإيمان، وهذا هو سر الصدق الذي يشعر به القارئ لأسلوبه التأليفي عموما ولأسلوبه في الشفا خصوصا، وهو أيضا سر الجمال الذي يظهر في تعابيره.

وأسلوب القاضي عياض التأليفي في "الشفا" يتكئ اتكاء يكاد يكون كليا على الرواية.

فكتاب الشفا إذن "ليس كتابا في السيرة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ولو أراد له عياض ذلك لاتبع منهج كتب السيرة ، فليس فيه تسلسل زماني، على أن القارئ يستطيع أن يستخرج منه صورة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم".[3]

والكتاب تناول موضوعا عقائديا يتمثل أساسا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس، وكذا ما يستحيل في حقه صلى الله عليه وسلم وما يجوز من الأمور البشرية، ومع ذلك فإن بعض نصوصه كانت على درجة من الأدبية تجلت في بعض الخصائص التي تميز بـــها أسلوبه كابتعاده

---

[1]- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى- ج1- ص 13.

[2]- شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- ص 145- بتصرف.

[3]- المرجع السابق- ص 135.

عن الزخرف البديعي عموما، وتوفره على مقومات جمالية كفصاحة اللفظ ومتانة التركيب وجودة الصياغة والإيقاع الموسيقي الناتج عن الازدواج والسجع.

خـــاتـــمـــــة

لقد كـــان نثر القاضي عياض متنوعا ، إذ كتب في كثير من الفنون ، أهمهـــا الخطابـــة و الرسالة و التراجم و السير، ومن خلال التعرض لأعمالـــه في هذا المـــجال توصلت إلى النتائج التالية:

- في ضبط المصطلحات اتضح لي أن الأدبية كمفهوم تعني العناصر الفنية والجمالية المطلوب توفرها في عمل ما شكلا ومضمونا لكي يصبح أدبا.

أما الخطاب فهو نظام تعبير متقن ومضبوط ولا فرق فيه بين الشفوي والمدون.

في حين أن النثر هو ذاك الكلام الفني الجيد الذي يرسله قائله أو كاتبه إرسالا بلا وزن ولا قافية.

- وفي بالتعريف بالقاضي عياض فقد وجدت أنه كان شخصية فذة ، بل علما من أشهر أعلام المغرب والأندلس و كان واسع الثقافة غزير التأليف له باع كبير في جل علوم ومعارف عصره وبخاصة الشرعية منها في ميدان الفقه و الحديث.

- وفي دراستي لخطبه اتضح لي أن القاضي عياض كان من أبرز خطباء عصره وأنه كان فصيحا بليغا لا يخطب إلا من إنشائه ، وكانت خطبه إما دينية وعظية أو جهادية،كما أن الكتاب الذي جُمعت فيه خطبه قد ضاع ، أما من الناحية الفنية فإن خطبه لم تخرج في شكلها عما ألفه الخطباء قبله، فجاءت في هيكل عام ضمن مقدمة وعرض وخاتمة ، وتناولت قضايا فكرية تعلق الخطاب فيها بالمعتقدات أولا وبالعبادات والمعاملات ثانيا.

وقد كانت خطبه أشبه بوصايا إرشادية يمارس فيها الخطيب معتقداته الدينية.

ومن خصائصها الفنية الأثر الديني إذ كانت معرضا لثقافته الدينية وعبرت بجلاء عن رتبته العالية في علوم الشريعة وبخاصة في القرآن الكريم الذي شع نوره في كل خطبه، كما أن التعبير الخطابي الذي يقوم عليه البناء الفني للخطبة اعتمد فيه على المقارنة والمقابلة بين الحقائق المختلفة وذلك بهدف التأثير في العقل والوجدان بالبرهنة والاستدلال واستمالة الأسماع والنفوس.

وقد كان القاضي عياض شديد الاحتفال بالبلاغة وفنونها في خطبه، فالبيان والبديع لهما مكانة خاصة عنده، إذ ينم أسلوبه عن ثقافة بلاغية واسعة، وقد تكلف كثيرا في توظيف السجع و الازدواج و الطباق والجناس، حتى ولدت في خطبه أوزانا ونغمات كأوزان الشعر ونغماته.

و أوضح ظاهرة بلاغية في خطبه هي الاقتباس من القرآن الكريم ، إذ لم تخل خطبة من خطبه من اقتباس أو توظيف لآيات القرآن الكريم.

و تراوح أسلوبه بين المرسل المؤثر للعفوية وبين المتكلف المغرم بالأصباغ والمحسنات.

- أما في تناولي لفن الرسالة فقد وجدت أن القاضي عياض كان من رواد هذا الفن والمبدعين فيه، وأن الكتاب الذي جُمعت فيه رسائله قد ضاع شأنه في ذلك شأن كتاب الخطب، وأن ما بقي من رسائله مبثوثا في بطون المصادر لا يمثل إلا النزر اليسير مما دبّـــجه من رسائل، وقد كتب رسالة للحضرة النبوية الشريفة، وله رسائل إخوانية متنوعة الأغراض وكذا رسائل علمية تخص موضوع الفتوى الشرعية في بعض النوازل الفقهية.

هذه الرسائل جاءت في هيكل عام تضمن مقدمة وعرضا وخاتمة ، و اختلفت قيمتها الفنية بحسب موضوعها، فرسالته للحضرة النبوية كانت سامية المعاني، بديعة التركيب ، بُني نسيجها على السجع والازدواج، كما كان للاقتباس فيها حظ وافر ، إذ لم تشذ عن أسلوبه في الخطبة، أما رسائله الاخوانية فإن الدافع الأول لكتابتها هو مجاراة الكتاب والتباري معهم و إثبات طول باعه في الأدب،وهذا ما جعلها ميدانا لعرض الألوان البديعية المختلفة، ومضمارا لاستعراض ألوان ثقافية مختلفة تفنن في صياغتها و أثبت فيها موسوعية معارفه، و كان التكلف باديا على جل رسائله الإخوانية ، إذ كثيرا ما كان يلتزم في أسلوبها ما لا يلزم وخصوصا في جانب السجع الذي جعله مطية لإظهار بلاغته اللغوية وبراعته الأدبية.

بينما جاءت رسالته العلمية بسيطة في أسلوبها خالية من الألوان البيانية ، وذلك لأن الأسلوب فيها وسيلة وليس غاية ، وهذا ما جعلها أقل قيمة من الناحية الفنية والأدبية من الرسائل الأخرى.

- كما توصلت من خلال دراستي للتراجم التي كتبها أن طابع الرواية هو الغالب على أسلوبها وهذا ما جعلها لا ترقى إلى مصاف التراجم الأدبية ، إذ أنها جاءت أساسا على شكل طبقات للمالكية في كتابه "ترتيب المدارك" ، و فهرس لمشايخه الذين أخذ عنهم شتى أصناف العلوم وهو ما ضمنه في "الغنية" .

وأسلوبه في هذه التراجم مختلف تماما عما كان عليه في الخطب والرسائل، فهو يكتب في تراجمه بأسلوب بسيط، يغلب عليه طابع الرواية ، الذي تتخلله بعض التعليقات أو التعقيبات البسيطة .

أما سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم التي سماها " الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى" فهي ليست كتابا في السيرة بمعناها الاصطلاحي الأدبي ، و لكنها في الشمائل النبوية ، و كذا في تبيين حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على الأنام.

وتراجمه لم تخل من بعض الجماليات في الأسلوب التي تبدو في ثنايا النقول التي تزخـــر بـــها ، وأهم ما تميز به أسلوبـــها هو الابتعاد عن الزخرف البديعي عموما، و توفرها على فصاحة اللفظ ومتانة التركيب وجودة الصياغة.

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها بصفة عامة ،كما أشير إلى أن نثر القاضي عياض المفقود أكثر بكثير مما هو بين أيدي الدارسين والباحثين ، و هذا ما يصعب الحكم عليه انطلاقا من النصوص الموجودة ، وإن العثور عليها قمين بتغيير كثير من الأحكام حول نثر القاضي عياض.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر و المراجع

- القران الكريم – رواية حفص عن عاصم.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل- الصحيح المسند – إشراف : أبو عبد الله محمود بن الجميل- مكتبة الصفا – القاهرة – مصر – ط1- 1423هـ/2003م.

قائمة المصادر والمراجع :

-أبو الخشب،ابراهيم علي

01-تاريخ الأدب العربي قي العصر العباسي الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب-فرع الإسكندرية-مصر.

02-تاريخ الأدب العربي في الأندلس-دارالفكر العربي-القاهرة-مصر-.1970

03-أبو زهرة،محمد-الخطابة ،أصولها،تاريخها في أزهر عصورها عند العرب-دار الفكر العربي-القاهرة-مصر-ط.1

04-أبو عبد الله،محمد بن عياض-التعريف بالقاضي عياض-تقديم وتحقيق:محمد بن شريفة-وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية-المملكة المغربية-ط2-1402هـ/1982م.

05-أحمد،يوسف-بين الخطاب والنص-مجلة تجليات الحداثة-معهد اللغة العربية وآدابها-جامعة وهران-السنة الأولى-العدد الأول-.1992

06-أرسطو،طاليس-الخطابة-الترجمة العربية القديمة-تحقيق:عبد الرحمن بدوي-دار القلم-بيروت-لبنان-.1979

07- الأصفهاني،أبو محمد صفي الدين عبد الله بن محمد الكاتب - خريدة القصر وجريدة العصر-قسم شعراء المغرب والأندلس-تحقيق:أذرتاش أذرنوش-الدار التونسية للنشر-تونس-1972.القسم الرابع-الجزء2-تحقيق:عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم-دار نهضة مصرللطبع والنشر-القاهرة-مصر-1969.

08-آل سلمان-أبو عبيدة مشهور بن حسن-عالم المغرب القاضي عياض وكتابه"مشارق الأنوارعلى صحاح الآثار"-مجلة الأصالة-مكتبة ابن تيمية-القاهرة-مصر-السنة الرابعة-العدد19-15 ذوالقعدة1419هـ .

-أمين،أحمد

09-حياتي-المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية(موفم)-الرغاية-الجزائر-ط2-1988.
10-فيض الخاطر-المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية(موفم)-الرغاية-الجزائر-.1989
11-بغورة،الزاوي-المنهج النبوي:بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات-دار الهدى-عين مليلة-الجزائر-ط1-.2001
12-ابن الأبار،محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي-المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي- دار الكتاب العربي-القاهرة-مصر-1387هـ/1967م.
13-بن ابراهيم،العباس-الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام-تحقيق:عبد الوهاب بن منصور-المطبعة الملكية-الرباط-المغرب-1400هـ/1980م.
14-ابن بشكوال،أبو القاسم خلف بن عبد المالك-كتاب الصلة في تاريخ غلماء الأندلس-تحقيق:صلاح الدين الهواري-المكتبة العصرية-صيدا-بيروت-ط1-1423هـ/2003م.
15-ابن ثابت،أبو الوليد حسان بن المنذر الأنصاري-ديوان حسان بن ثابت-شرح وتهميش:عبد أ.مهنا-دار الكتب العلمية-بيروت- لبنان-ط4-1425هـ/2004م.
16-ابن جعفر،قدامة-نقد النثر-المكتبة العلمية-بيروت- لبنان-.1980
17-ابن خاقان-أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي-قلائد العقيان-تحقيق:محمد الطاهر بن عاشور-الدار التونسية للنشر-.1990
18-ابن خلدون،عبدالرحمن-المقدمة-دارالفكر-بيروت-لبنان-ط1- 1424 هـ/2004م.
19-ابن خلكان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر-وفيات الأعيان وأبناء الزمان-تحقيق:إحسان عباس-دار صادر-بيروت-لبنان.
20-ابن رشد،أبو الوليد محمد-تلخيص الخطابة-تحقيق:عبد الرحمن بدوي-دار القلم-بيروت-لبنان.
21-ابن عميرة الضبي،أحمد بن يحي بن أحمد-بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس-مكتبة المثنى-بغداد العراق.
22-ابن فارس،أبو الحسين أحمد-معجم مقاييس اللغة-دار الجيل-بيروت لبنان.
23-ابن فرحون المالكي،أبوإسحاق ابراهيم بن علي-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب-تحقيق:محمد الأحمدي أبو النور-دار التوراث-القاهرة-مصر-1972.
-بن محمد،علي
24- بن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة-المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1989.

25- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس:مضامينه وأشكاله-دار الغرب الإسلامي- بيروت-لبنان-ط1-.1990
26-ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم-لسان العرب-دار صادر- بيروت-لبنان-ط1-.1992
27-بهنام،هدى شوكة-النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب للمقري-دار الرائد العربي-بيروت-لبنان-ط2-.1984
28-بوحوش،رابح-الأسلوبيات وتحليل الخطاب-منشورات جامعة باجي مختار-عنابة-الجزائر-. 2006
29-بو ملحم،علي-في الأدب وفنونه-المطبعة العصرية-صيدا-لبنان.
30-بو نار،رابح-المغرب العربي تاريخه وثقافته-دار الهدى-عين مليلة-الجزائر-ط3-.2000
31-الترابي،البشير علي حمد-القاضي عياض وجهوده في علم الحديث رواية ودراية-دار ابن حزم-بيروت لبنان-ط1-1418هـ/1997م.
32-التهانوي،محمد علي-موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم-ترجمة:عبد اله الخالدي-تحقيق:علي دحروج-مكتبة لبنان ناشرون-بيروت-لبنان-ط1-.1996
33-توات، الطاهرمحمد-أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-.1993
34-تودوروف،تزيفيطان-مفاهيم سردية-ترجمة:عبد الرحمن مزيلن-منشورات الاختلاف-الجزائر-ط1-.2005
35-الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر-البيان والتبيين-تحقيق:عبد السلام محمد هارون-مكتبة الخانجي-القاهرة-مصر-ط7-1418هـ/1998م.
36-جبران،محمد مسعود-فنون النثر الأدبي في آثارلسان الدين بن الخطيب:المضامين و الخصائص الأسلوبية-دار المدار الإسلامي-بيروت-لبنان-ط1-.2004
37-جبور،عبد النور-المعجم الأدبي-دار العلم للملايين-بيروت-لبنان-ط1-.1979
38-الجبوري،كامل سليمان-معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة2002-دار الكتب العلمية-بيروت لبنان-ط1-1424هـ/2003م.
39-الجزائري،أبو بكر جابر-منهاج المسلم-دار السلام-القاهرة-ط4-.2004
40-الجيلالي،عبد الرحمن بن محمد-تاريخ الجزائر العام-دار الثقافة-بيروت-لبنان.

41-الحاج،جورج زكي-دروس وموضوعات في أدب اللغة العربية-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان-ط1-1403هـ/1983.
42-حجازي،سمير سعيد-النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة-دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية-القاهرة-مصر-2004.
43-الحربي،فرحان بدري-الأسلوبية في النقد العربي الحديث:دراسة في تحليل الخطاب-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيرون-لبنان-ط1-1424هـ/2003م.
44-حسين،طه-في الأدب الجاهلي-المجموعة الكاملة-المجلد05-الأدب والنقد(01)-دار الكتاب اللبناني-بيروت-لبنان.
45-حسين،محمد عبد الغني-التراجم والسير-دار المعارف-القاهرة-مصر-1969.
46-حطيط،كاظم-أعلام ورواد في الأدب العربي-دار الكتب الحديثة-بيروت-لبنان-ط1-1423هـ/2003م.
47-الحلبي،شهاب الدين محمود-حسن التوسل إلى صناعة الترسل-تحقيق:أكرم عثمان يوسف-دار الحرية للطباعة-وزارة الثقافة والإعلام-بغداد-العراق-1400هـ/1980م.
48-الحوفي،أحمد محمد-فن الخطابة-دار نهضة مصر-القاهرة-مصر-2003.
49-الخراشي،سليمان بن صالح-قصص لا تثبت-دار الصميعي-الرياض-المملكة العربية السعودية-ط1-1420هـ/1999م.
50-الخضراوي،فخري-رحلة مع النقد الأدبي-دار الفكر العربي-1977.
51-الخطيب،محمد كامل-نظرية النقد-القسم الأول:من البلاغة إلى النقد:حد الكتابة وأقسامها-منشورات وزارة الثقافة- سورية-2001.
52-دحو،العربي-مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم-دار الشهاب-باتنة-الجزائر-1406هـ/1986م.
53-درويش،محمد الطاهر-الخطابة في صدر الإسلام-دار المعارف-القاهرة-مصر-ط2-1968.

54-الذهبي،شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان-سير أعلام النبلاء-تحقيق:شعيب الأرناؤوط-محمد نعيم العرقسوس-مؤسسة الرسالة-بيروت- لبنان-ط1-1405هـ/1985م.

55-الرازي،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر-مختار الصحاح-دار مكتبة الهلال-بيروت-لبنان-1988.
56-راغب،نبيل-دليل الناقد الأدبي-دار غريب للطباعة والنشروالتوزيع-القاهرة-مصر-.1998
57-رزان،محمود ابراهيم-خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة-دار الشروق للنشر والتوزيع-عمان-الأردن-ط1-.2003
58-ركيبي، عبد الله-تطور النثر الجزائري الحديث-المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-ط2-.1983
59-الزباخ،مصطفى- فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين -الدار العالمية للكتاب-الدار البيضاء-المغرب-بيروت-لبنان-ط1-.1987
60-الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني - تاج العروس من جواهر القاموس -ج 2 تحقيق:علي هلال و ج 12 تحقيق :مصطفى حجازي-وزارة الإرشاد والأنباء-الكويت-1386هـ/1966م.
61-الزركلي،خير الدين-الأعلام ، قاموس تراجم - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - ط15 -2002.
62-الزمخشري،جار الله أبو القاسم محمود بن عمر-أساس البلاغة-مكتبة لبنان ناشرون-بيروت-لبنان-ط1-.1996
63-زمري،محمد-الأعلام المغاربة في مصنفات المشارقة-دار الغرب للنشر والتوزيع-وهران-الجزائر-.2004
64- السائح،حسن- دفاعا عن الثقافة المغربية - دار الكتاب -الدار البيضاء -المغرب - ط1-.1968
65-سارتر،جون بول-ما الأدب-ترجمة:محمد غنيمي هلال-دار نهضة مصر-القاهرة-مصر-1990.
66-سعد،فاروق-فن الإلقاءالعربي الخطابي والقضائي والتمثيلي-شركة الحلبي للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان-ط2-.1999
67-سعد الله،أبو القاسم-تاريخ الجزائر الثقافي-دار الغرب الإسلامي-بيروت-لبنان-ط1.
-سلام،محمد زغلول
68-الأدب في العصر الفاطمي:الكتابة والكتاب-منشأة المعارف - الاسكندرية-مصر -1995 .
69- الأدب في العصرالمملوكي-منشأة المعارف-الاسكندرية-مصر-1995.

70-النقد الأدبي الحديث:أصوله واتجاهاته ورواده-منشأة المعارف-الاسكندرية-مصر-.1981

71-السلاوي،أحمد بن خالدي الناصري-كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى-تحقيق:أحمد الناصري-منشورات وزارة الثقافة والاتصال-المغرب-.2001

72-اسماعيل، عز الدين – الأدب و فنونه – دار الفكر العربي- القاهرة- مصر- ط8- .1983

73-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر- طبقات الحفاظ- تحقيق نخبة من العلماء بإشراف الناشر- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط2- 1414هـ / 1994م.

74-شاكر، تهاني عبد الفتاح- السيرة الذاتية في الأدب العربي- المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت- لبنان- ط1- .2002

75- شرشار، عبد القادر- تحليل الخطاب الأدبي و قضايا النص- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- سوريا- .2006

76-شريط، عبد الله- تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ط 3- .1983

77-شقور، عبد السلام- القاضي عياض الأديب- الأدب المغربي في ظل المرابطين- دار الفكر المغربي- طنجة- المغرب- ط1- 1983.

78- الشكعة، مصطفى- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية- كتاب النثر- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- مصر- ط3- 1426هـ /2005م.

79-شلبي، عبده عبد الجليل- الخطابة و إعداد الخطيب- دار الشروق- القاهرة- مصر- .2003

80-الشيخ، محمد عبد الغني- النثر الفني في العصر العباسي الأول- اتجاهاته و تطوره- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983.

81- الشيرازي، أبو إسحاق الشافعي-طبقات الفقهاء-تحقيق: إحسان عباس- دار الرائد العربي- بيروت- لبنان- 1401هـ/1981م.

82- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك- كتاب الوافي بالوفيات- تحقيق: أحمد الأرناؤوط تركي مصطفى- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ط1- 1422هـ / 2001م.

83-صفوت، أحمد زكي- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة- دار الحداثة- بيروت- لبنان- ط1- .1985

84- الصلابي، علي محمد محمد- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي- دار الإيمان- الإسكندرية- مصر- .2003

85- طائفة من الأساتذة- حاضر النقد الأدبي (مقالات في طبيعة الأدب)- ترجمة، محمود الربيعي- دار غريب للطباعة و النشر- القاهرة- مصر- .1998

86-الطباع، عبد الله أنيس- القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية- دار ابن زيدون- بيروت- لبنان- ط1- 1406هـ /1986م.

87-الطرابلسي، محمد الهادي- تحاليل أسلوبية- مؤسسة عالم الكتاب- .2006

88-عاصي، ميشال- الفن و الأدب- مؤسسة نوفل- بيروت- لبنان- ط3- 1980.

-العاكوب ، عيسى

89- التفكير النقدي عند العرب- دار الفكر- دمشق- سورية- ط 1- 1997 / إعادة .2002

90- أساليب التعبير الأدبي(تأليف مشترك)- دار الشروق- عمان- الأردن- ط1- الإصدار03- .2000

91-عامر، مخلوف- الخطاب الأدبي و مقتضيات التلقي- مجلة المخبر- أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري- جامعة محمد خيضر- بسكرة- العدد الثالث- .2006

92-العبادي، أحمد مختار- في تاريخ المغرب و الأندلس- مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية- مصر- 2003.

-عباس، إحسان

93- تاريخ الأدب الأندلسي- عصر الطوائف و المرابطين- دار الثقافة- بيروت- لبنان- ط2- 1991.

94- فن السيرة-دار صادر-بيروت-لبنان- دار الشروق-عمان – الأردن - ط1- 1996.

95-عبد السلام،بنعبد العالي-بين بين-دار توبقال للنشر-الدار البيضاء-المغرب-ط1-.1996

96-عبد العال،محمد يونس-في النشر العربي:قضايا وفنون ونصوص-الشركة المصرية العامة للنشر(لونغمان)-الاسكندرية-مصر-ط1-1996

97-عتيق،عبد العزيز-الأدب العربي في الأندلس-دار النهضة العربية-بيروت-لبنان.

98-العسكري،أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل-كتاب الصناعتين:الكتابة والشعر-تحقيق:علي محمد البجاوي و محمدأبو الفضل ابراهيم-المكتبة العصرية-صيدا-بيروت-لبنان-1406هـ/1986م.

99-علام،عبد الله علي-الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي-دار المعارف-القاهرة-مصر-.1971

100-عنان،محمد عبد الله،تراجم اسلامية شرقية وأندلسية-مكتبة الخانجي-القاهرة-مصر-ط2-1390هـ/1970م.

-العوبي،رابح

101-أنواع النثر الشعبي-منشورات جامعة باجي مختار-عنابة-الجزائر.

102-مضامين الرسائل السياسية في القرن الثاني والثالث للهجرة-مطبعة المعارف-عنابة-الجزائر-ط1-2003.

-عياض،أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي

103-ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك-تحقيق:أحمد بكير محمود-دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان-دارمكتبة الفكر-طرابلس-ليبيا-1968.

104-الغنية-تحقيق:ماهر زهير جرار-دار الغرب الإسلامي-بيروت لبنان-ط1-1402 هـ/1982م.

105- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى-تحقيق:هيثم الطعيمي و نجيب ماجدي-دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء – المغرب-ط1- 1422هـ/2001م.

106-عيسى،فوزي-الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي-دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية-مصر-.2002

107-العيساوي،ريم-فدوى طوقان:نقد الذات،قراءة في السيرة-أندية الفتيات بالشارقة-الدار المصرية اللبنانية-القاهرة-مصر-ط1-1420هـ/1999م.

108-الغنيمي،عبد الفتاح مقلد-موسوعة تاريخ المغرب العربي-مكتبة مدبولي-القاهرة-مصر-ط1-1414هـ/1994م.

109-الفاخوري،حنا-تاريخ الأدب في المغرب العربي-دار الجيل-بيروت-لبنان-ط1-1417هـ/1996م.

110-فضل،صالح-مناهج النقد المعاصر-دار الآفاق العربية-القاهرة-مصر-.1996
111-الفيروزآبادي،مجد الدين بن يعقوب-القاموس المحيط -دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط2-1428هـ/2007م.
112-القلقشندي،أبو العباس أحمد بن علي-صبح الأعشى في صناعة الإنشا- -المطبعة الأميرية-القاهرة-مصر-1333هـ/1915م.
113-كارينجي،ديل-فن الخطابة-الأهلية للنشروالتوزيع-عمان-الأردن-ط1-2001.
-كرو،أبو القاسم محمد
114-شخصيات أدبية من المشرق والمغرب- بالاشتراك مع :عبد الله شريط -دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان- ط2-1966.
115-عصرالقيروان- -دار المغرب العربي-تونس-ط1-.1973
116-كنون،عبد الله-أدب الفقهاء-دار الكتب اللبناني-مكتبة المدرسة -بيروت- لبنان-ط2 -1404هـ/1984م.
117-كولر،جوناثان-مدخل إلى النظرية الأدبية-ترجمة:مصطفى بيومي عبد السلام-المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة – مصر -ط1- 2003 .
118-مبارك،زكي-النثر الفني في القرن الرابع-دار الجيل-بيروت-لبنان-1352هـ/1934م.
119-محمد،حسن عقيل موسى-نزهة الفضلاء:تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي-دار الأندلس-جدة-المملكة العربية السعودية-1991.
120-مرتاض،محمد-النقد الأدبي القديم في المغرب العربي:نشأته وتطوره(دراسة وتطبيق)-منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق-سورية-.2000
121-معاليقي،منذر-دراسات نقدية في الأدب الإسلامي-المؤسسة الحديثة-للكتاب-طرابلس-لبنان-ط2-.2000
122-المقدسي،أنس-الفنون الأدبية وأعلامها-دار العلم للملايين-بيروت-لبنان-ط2-1980.
-المقري،شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني
123-أزهار الرياض في أخبار عياض-ضبط وتحقيق وتعليق:مصطفى السقا وآخرون-مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة-مصر-1358هـ/1939م.

124-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب-تحقيق:إحسان عباس-دار صادر-بيروت-لبنان-1408هـ/1988م.

125-مندور،محمد-الأدب وفنونه-دار نهضة مصر-القاهرة-مصر-.2000

126-المنذري،الحافظ زكي الدين عبد العظيم-مختصر صحيح مسلم-تحقيق:محمد ناصر الدين الألباني-قصر الكتاب-البليدة-الجزائر-ط1-للطبعة الجديدة.

127-موافي،عثمان-في نظرية الأدب:من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي-دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية-مصر-ط3-.2002

128-مويقن،المصطفى-بنية المتخيل في النص ليلة وليلة-دار الحوار-اللاذقية-سورية-ط1-.2005

129-ميلز،سارة-الخطاب-ترجمة:يوسف بغول-منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات-جامعة قسنطينة-دار البعث-قسنطينة-الجزائر-.2004

130-ناظم،حسن-مفاهيم الشعرية:دراسة مقارنة قي الأصول والمناهج والمفاهيم-المركز الثقافي العربي-بيروت-لبنان/الدار البيضاء-المغرب-ط1-.1984

131-ناظم،عبد الجليل-نقد الشعر في المغرب الحديث-دار توبقال للنشر-الدار البيضاء-المغرب-ط1-.1992

132-النباهي،أبو الحسن بن أبي عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي-تاريخ قضاة الأندلس-تحقيق:لجتة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة-دار الآفاق الجديدة-بيروت-لبنان-ط5-1403هـ/1983م.

133-نجا،أشرف محمود-في الأدب الأندلسي:بحوث في نقد الخطاب الابداعي-دار الوفاء-الاسكندرية-مصر-ط1-.2006

134-النص،إحسان-الخطابة العربية في عصرها الذهبي-دار المعارف-القاهرة-مصر-ط2-1969.

-نصر الله،سعدون عباس

135- تاريخ العرب السياسي في المغرب - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان- ط1-.2003

136-دولة المرابطين في المغرب والأندلس -دار النهضة العربية-بيروت-لبنان-ط1-1405هـ/1985م.

137-الهاشمي،السيد أحمد-جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب-دار الجيل-بيروت-لبنان.

138- الهراس ،عبد السلام –مجلة المناهل-العدد 19 –السنة 07- 1980- وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية – المغرب .

139-الورقي،السعيد-في الأدب والنقد الأدبي-دار المعرفة الجامعية-مصر-.2002

140-الوزير السراج،محمد بن محمد الأندلسي-الحلل السندسية في الأخبار التونسية-تحقيق:محمد الحبيب الهلية-الدار التونسية للنشر-تونس-.1970

141-الونشريسي،أحمد بن يحي-المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب-تحقيق:جماعة من العلماء بإشراف:محمد حجي-دار الغرب الإسلامي-بيروت-لبنان-1401هـ/1981م.

142-يقطين،سعيد-تحليل الخطاب الروائي:الزمن،السرد،التبئير-المركز الثقافي العربي-بيروت-لبنان/الدار البيضاء-المغرب-ط3-1997.

فهرس الموضوعات

فهـــــرس الموضـــوعـــــات

الفصـــل الثـــاني: الـــرسائـــل

IV-البناء و التشكيل الفني

أولا : الهيكل العام

ثانيا : الخصائص الفنية

الفصـــل الثـــالث: التراجم و السير